

شِيخُ أَبْوَ الْعَبَاسِ
أَحْمَدُ بْنُ خَالِدِ النَّاصِرِيُّ

كتاب
الاستفصال

لَا خِيَارُ دُولَ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى

الْجُنُبُ الْأَوَّلُ

تَحْقِيقُهُ وَتَعْلِيَّهُ
الْأَسَاتِذَةُ
جَعْفُرُ النَّاصِرِيُّ وَ مُحَمَّدُ النَّاصِرِيُّ

دَارُ الْكِتَابِ
الْمَدِينَةِ الْمَطْفَلِ

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لدار الكتاب

ساحة المسجد الحمدي

الدار البيضاء

1418هـ / 1997م

رقم الإيداع القانوني والدرولي

1399/96

مقدمة

لقد كان لظهور فن الطباعة العربية بالشرق في أوائل القرن السابع عشر الفضل الأكبر في ما للشرق العربي اليوم من ازدهار فكري وثقافي ، إذ بفضل المطبعة العربية التي عرفتها لبنان فمصر ثم بقية الأمم العربية أمكن أن يزاح غبار النسيان والإهمال عما كاد يندثر من المخطوطات العربية ، ووجد الكاتب العربي مجالاً أوسع منه له سبيل نشر منتوجاته ، وربط الصلة بينه وبين قرائه ؛ وتقارب الشرق الإسلامي إلى حد بعيد من العالم الغربي بما أخذت تنشره مطابع الشرق من كتب تنقلها من مختلف اللغات ، وتقديمها سهلة ميسورة إلى قراء العربية .

وعلى العكس من ذلك كان لفقد فن الطباعة بالمغرب أثره في تخلف المغرب عن ركب الحضارة الفكرية خلال القرنين الأخيرين . وما يعني أن المغرب كان ي عدم خلال تلك الفترة رجال الفكر والقلم ، وإنما كان هؤلاء - بحكم انعدام وسائل النشر - مجبورين على الرضى بقلة الإنتاج ، وعلى أن يتركوا منتوجاتهم مستسلمة لنوم عميق في رفوف الخزائن الخاصة ، يتوارثها الأبناء عن الآباء في ضمن ما يتوارثونه من أمتعة وأثاث ، وكثيراً ما يجني الأبناء على تلك التركة فتندثر دون أن يدركوا فائدتها فضلاً عن أن يقدروا قيمتها .

وإذا استثنينا المطبعة الفاسية الحجرية التي قامت بمحاولة طيبة لتدارك هذا النقص الشائن بوسائل أقل ما يقال عنها أنها بدائية إلى حد بعيد في فن الطباعة الذي كان مزدهراً إذ ذاك في الشرق ، إذا استثنينا ذلك لا نجد في هذا الميدان شيئاً مذكوراً مع الأسف الشديد .

وقد كان لثلاثة قليلة من أعلام الفكر بالمغرب فضل التفكير في التوجه إلى مطابع الشرق لنشر مؤلفاتهم، وكان من بين هؤلاء الأفذاذ مؤلف كتاب الاستقصا، في أخبار دول المغرب الأقصى. فقد طبع كتابه هذا بمصر سنة 1894م.

فأمكنا بذلك أن يكشف الستار عن كتاب كاد - لو لا همة مؤلفه - أن يضاف إلى زمرة المخطوطات المغربية القيمة التي نسطوا عليها الأرضية في زوايا خزانتي الرباط وفاس، وفي المكاتب الخاصة التي لا يعرف إلا القليلون بعض محتوياتها.

وبالرغم من ذلك لم يتيسر لهذا الكتاب الرواج الكافي كما لو طبع في بلاد المغرب، فوجد القراء المغاربة منه ما يكفي من النسخ لشفاء غليلهم.

وهكذا ظل هذا الكتاب المغربي أصلاً وفصلاً يتسرّب إلى المغرب على أنه منحة شرقية، فتختطفه الأيدي وتحتفظ به الخزائن كتحفة عزيزة نادرة. ولم يمض على طبعه غير يسير حتى أصبح - كما يقول المثل العربي - أعز من بيض الأنوق.

وإذا كان للمغرب في عزته التاريخية في العصور الأخيرة بعض العذر في عدم توفره على المطابع العصرية الحديثة، فليس له عذر اليوم في أن يظل عالة على الشرق العربي يتوجه إليه على بعد المسافة ملتمساً منه أن يعرف العالم بمتوجهاته عن طريق الطباعة.

لذلك كان من الأهداف الكبرى التي توكّتها مؤسسة دار الكتاب أن تعمل على نشر ما أقربته السنون من الذخائر المغاربية لتسمع صوت المغرب من المغرب، وتساهم بذلك في تغذية حركة النهضة الفكرية التي أخذت منذ أمد غير يسير تشق طرقها في هذه البلاد، وتمضي في تطور سريع.

ومنذ تأسست هذه الدار سنة 1948 أخذت تنشر في مطابع الشرق العربي بعض متنوّجات المغاربة، ولكنها سعيدة اليوم بأن تقدم مطبعتها بال المغرب هذا الكتاب التاريخي القيم العاشر بتفاصيل الأحداث التاريخية التي عرفها المغرب منذ أقدم عصوره إلى أواخر حياة مؤلفه سنة 1893 م.

ولقد كانت أمينة عزيزة داعبت خيالنا منذ تأسس مشروع دار الكتاب أن يكون هذا الكتاب في طبعة منشورة، ذلك لأنّه بحق الكتاب الجامع - في غير تطويل ولا اقتضاب - ل تاريخ المغرب، والمصدر الهام الذي لا غنى عنه لمن يريد أن يكتب عن المغرب في عصر من العصور أو حقبة من الحقب.

وقد رأت دار الكتاب أن تقدم «كتاب الاستقصاء» لقراءها دون أن تشفعه بتعليقات مسهبة تضيع معها الفائدة التي نظن أن مؤلف الكتاب توخاها، إذ قصد أن يكون كتابه مستوعباً لجميع عصور التاريخ المغربي، وبعيداً في الوقت نفسه عن أن يكون كتاب تحليل واستنتاج ل عبر التاريخ وعظاته، أو كتاب تاريخ للرجال والأعلام، فإنما قصد المؤلف بكتابه - على ما نظن، وكما يدل عليه اسم الكتاب نفسه - أن يكون استقصاء ل تاريخ الدول المتعاقبة على المغرب.

ولكننا شفينا هذه الطبعة بتعليق مختصرة، وفي الوقت نفسه ذات أهمية، تفضل بإعدادها ولذا المؤلف الأستاذ جعفر الناصري والأستاذ محمد الناصري؛ كما ألحقنا به بعض الاستدراكات التي كتبها المؤلف بخطه على النسخة الأصلية التي طبعنا عنها.

وتفضل الأستاذان المذكوران بكتابه ترجمة حياة المؤلف، وهما ولا شك أحق من يتحدث عن المؤلف ويترجم له.

وما نشك في أن الباحث لن يعدم بين ثنياه هذا الكتاب - وقد أصبح

الآن سهلاً ميسوراً - ما يعينه على استكشاف ما لا يزال غامضاً من جوانب التاريخ المغربي الذي لا يزال في حاجة أكيدة إلى مزيد من البحث والتنقيب، وخصوصاً التاريخ الاجتماعي والفكري.

وقد حرصت دار الكتاب على أن تقسم الكتاب أجزاء بحسب العصور التاريخية، وهكذا تصدر الجزء الأول محتواً على تاريخ الفتح الإسلامي لل المغرب وفترة ارتباط المغرب بالخلافة الإسلامية، ثم الدولة الإدريسية، ودولة زناتة.

والجزء الثاني خاصاً بالدولة المرابطية، والموحدية.

والثالث عن الدولة المرinية إلى آخر دولة أبي عنان.

والرابع من دولة أبي عنان إلى نهاية الدولة المرinية.

والخامس من الدولة السعدية إلى وفاة المنصور السعدي.

والسادس من أخبار أولاد المنصور إلى نهاية الدولة السعدية.

ويبتدئ الجزء السابع منذ بداية الدولة العلوية لينتهي عند عهد السلطان المولى محمد بن عبد الله.

والجزء الثامن منذ بداية عهد هذا السلطان إلى عهد المولى عبد الرحمن حيث تخصص له الجزء التاسع والأخير إلى نهاية الكتاب.

كما حرصت دار الكتاب على أن تضع للكتاب فهارس للأعلام والقبائل والأماكن، وألحقتها بكل جزء لتسهل على الباحث سبل البحث، وتضع بين يدي القارئ هذا الكتاب وقد اكتسي حلقة زاهية جديدة لم يعرفها في طبعته الأولى.

وقد يلاحظ من لا يزالون يحتفظون بتلك الطبعة فرقاً في بعض النصوص والتعابير بين طبعة مصر وهذه. وذلك يرجع إلى أنها اعتمدنا على

النسخة المصرية التي صححها المؤلف بعد طبعها وكان يشطب على بعض العبارات فيها أو يتدارك فيها بعض السهو، أو يصحح بها ما عسى أن يكون اهتدى إليه بعد طبع الكتاب بمصر. فليس إذن من التطاول في شيء أن نقول إن طبعتنا هذه تستأثر بهذه المزية وتفضل بها سابقتها.

ومن واجبنا قبل أن نترك هذا الكتاب بين يدي القراء أن ننوه بحسن المعونة وجميل المساعدة التي وجدتها دار الكتاب من ولدي المؤلف الأستاذ جعفر والأستاذ محمد، فلهمَا أكابر الفضل في تمكين قراء العربية من الظفر بهذه الذخيرة المغربية التي تهديها دار الكتاب لروادها في مطلع العام الميلادي الجديد.

الدار البيضاء

10 جمادى الأولى 1373

15 يناير 1954

دار الكتاب

ترجمة المؤلف

نسبة :

هو أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد بالضم المدعو حماداً بن محمد بالضم الكبير بن أحمد بن محمد بالفتح الصغير ابن الشيخ محمد بالفتح الشهير بابن ناصر الدرعي مؤسس الزاوية الناصرية بالمغرب، ينتهي نسبة إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب زوج زينب شقيقة الحسن والحسين أبناء فاطمة الزهراء زوج علي بن أبي طالب وبنت محمد صلوات الله عليه.

تاریخ أسرته^(١) :

أصل أجداد صاحب الترجمة بدرعة من أرض المغرب الأقصى، وكانوا قد انقلوا أولاً من جزيرة العرب إلى صعيد مصر أوائل المائة الرابعة للهجرة أثر منازعة على الرياسة كانت بينهم وبينبني الحسين في ذلك العهد.

فاستمر مقامهم هنالك إلى أن حدث نفور بين ملك مصر المستنصر بالله العبيدي وبين عامله على إفريقية المغربي باديس الصنهاجي، فاستنفر إليه المستنصر عرببني هلال بن عامر وبيني سليم بن منصور الذين كانوا مقيمين بصعيد مصر، وأمرهم بحرقه في خبر طويل، ليس استيفاؤه من غرضنا، فانفلت طائفة منبني جعفر الذين كانوا يومئذ بالصعيد فدخلت معهم واستقرت بجنوب المغرب مما يلي ملوية وتأفلالت وواحات درعة، وذلك في أواسط المائة الخامسة للهجرة فاستوطنو تلك الناحية وطاب لهم المقام بها.

وكانوا مشهورين بالفضل والعلم والرياسة في تلك البقاع، لم ينقطع ذلك منهم إلى أن ظهر الشيخ ابن ناصر المذكور وطار صيته وامتدت شهرته وعظم

(١) قد بسط المؤلف القول في هذا الموضوع وفصله تفصيلاً في كتابه المسمى: «طلعة المشتري، في النسب الجعفري» المطبوع بفاس سنة ١٣٢٦.

أمر الزاوية^(١) بتامكروت وكثير نسل آل ناصر وامتدت فروعهم بذلك الصقع. وكان في أسرة صاحب الترجمة فضل ورياسة وشهرة في العلم ووجاهة وظهور، فاختصت بالزاوية المعروفة بزاوية البركة قرب تامكروت فكانت بأيديهم، وتوارثها أعقابهم من بعدهم إلى زمن والد صاحب الترجمة خالد بن محمد المدعى حماداً فحصل له ما يقتضي مفارقته لها من بعض أموره الشخصية.

فهاجر منها أولاً إلى مدينة سلا في حدود سنة 1220 للهجرة 1805 م وقابلة أهلها بما لا مزيد عليه من التعظيم والاحترام، والإجلال والإكرام، لما كان لهم من تمام المحبة والإخلاص لآل ناصر فاستوطنها مدة وانتشر صيته في القبائل المجاورة لها إلى العرائش ونواحي طنجة لما كان عليه من العلم والزهد والورع والتعري في التماس الرزق من أوجه الحلال. ثم استقر بطنجة وتزوج بها إحدى بنات عمته السيدة زينب بنت الفقيه علي بن محمد الناصري، وكانت غنية جداً، وأقام معها بضع سنوات إلى أن توفيت رحمها الله، فورث منها عدة أملاك وأراضي، واشتغل بالفلاحة والتجارة بقبيلة الغرب قرب العرائش وملك هناك عدة أراضي ومزارع فكان ذلك سبباً باعثاً على انتقاله إلى العرائش وتردداته ما بينها وبين طنجة وما والاهم من القبائل.

واستمر ساكناً بالعرائش دهراً واتخذ من أهلها نسباً وصهراً، فتزوج بوالدة صاحب الترجمة فاطمة بنت محمد بن زروق العلمي من شرفاء جبل العلم وولد له سائر أولاده بهذه المدينة ما عدا صاحب الترجمة.

ثم بدا له أن يرجع إلى سلا لما كان يجده من العيل إلى المقام بها.

(١) تاريخ زاوية تامكروت وما تفرع عنها من الروايات مبسوط في كتاب طلعة الدعوة في تاريخ درعة، والدرر المرصعة في ترجم صلحاء درعة للشيخ محمد المكي الناصري، وطلعة المشتري في النسب الجعفري للمترجم له والأولان مخطوطتان الثالث طبع بفاس 1320 هـ (1902) م وكلها موجودة بالخزانة الناصرية بسلا.

فأرتحل إليها وصاحب الترجمة حمل في بطن أمه وذلك سنة ١٢٥٠ هـ ١٨٣٤ م وكان هو المزداد من أولاده بهذه المدينة فقط واستقرت به فيها حينذاك أهـ والقى عصا التسيار وما زال خلفه بها إلى الآن.

موالده^(١):

كانت ولادة المؤلف بمدينة سلا إثر رجوع والده إليها بقصد الاستيطان بها من العرائش وقت طلوع الفجر يوم السبت الثاني والعشرين من شهر ذي الحجة الحرام متم سنة خمسين ومائتين وألف للهجرة الموافق للثاني والعشرين من شهر مارس سنة خمس وثلاثين وثمانمائة وألف للميلاد.

نشأته ودراسته^(٢):

نشأ صاحب الترجمة بمسقط رأسه سلا كما تقدم في حجر والديه. وكانت هذه المدينة إذ ذاك زاهرة بالعلوم الإسلامية والعربية، وفيها جماعة وافرة من العلماء والمدرسين والأساتذة القراء الذين يعتمد عليهم في تحقيق الفنون ودرس أصول العلوم والمتون. فأقبل صاحب الترجمة منذ نعومة أظفاره على رضاع ثدي علومهم والاقتباس من مشكاة أنوار أفكارهم. فأخذ في قراءة القرآن منذ صباحه على شيخه الأستاذ الحاج محمد العلو السلاوي إلى أن تولى هذا الشيخ خطة الحسبة بسلا فانتقل إلى الأخذ عن شيخه بعده الأستاذ محمد بن الجيلاني الحمامي فقرأ عليه مبادئ العلوم الراجعة لقراءة القرآن، ودرس عليه القرآن بحرف ابن كثير ونافع إلى أن اصطفى السلطان المولى عبد الرحمن هذا الشيخ لنفسه وجعله إماماً للصلوة به.

(١) الاستقصاصا صحيفـة ١٩٣ من الجزء الرابع طبع مصر.

(٢) جل ما في هذا الفصل مأخوذ عما ترجم به المؤلف لنفسه في رسالة مخطوطة كتب بها لصديقه الأديب الفاطمي الصقلي الفاسي وهي محفوظة بالخزانة الناصرية بسلا.

فصار يقرأ بعد ذلك على شيخه الأستاذ محمد بن طلحة الصباغي ولازمه إلى أن توفي. وأتم القراءات السبع على شيخه الأستاذ عبد السلام بن طلحة ابن عم المذكور آنفًا، وعلى هذا الشيخ تلقى فن التجويد وحفظ المتنون والأمهات كمنظومة الشاطبي وابن عبد البر وخلاصة ابن مالك وتلخيص المفتاح وابن السبكي ومختصر الشيخ خليل وغير ذلك. ولما حصل ذلك وأنقنه شرع في قراءة علوم العربية على شيخه العلامة محمد بن عبد العزيز محبوبة السلاوي فدرس عليه عدة تأليف في النحو والبلاغة والمنطق والكلام والفقه وأصول الدين إلى أن ارتحل هذا الشيخ إلى الحجاز وتوفي هناك سنة ١٢٧٩هـ ١٨٦٣م وهذا الشيخ هو عمدته في علوم اللسان والبلاغة والأدب وقد رثاه بقصيدة بلية مدونة بديوان شعره المخطوط، مطلعها:

ملازمة التذكرة تذهب باللب وتغري قديم الوجد بالهائم الصب
وَلَهُ قَلْبٌ مَا أَشَدَّ تَقْلِبَأَ عَلَى جُمُراتِ الْبَيْنِ وَالْحَادِثِ الْعَصْلِ - الْخِ
فَصَرَفَ وَجْهَهُ حِينَئِذٍ لِلأَخْذِ عَنْ شِيَخِهِ وَعَمِدَتْهُ أَيْضًا الْعَالَمَةُ قَاضِي سِلا
وَخَطَبِيهَا أَبِي بَكْرَ بْنَ مُحَمَّدَ عَوَادَ السَّلَوِيَ فَقَرَأَ عَلَيْهِ فَنَوْنَا جَمَةً وَعِلْمَوْمًا مَهْمَةً
كَالأَصْوَلِ وَالْمَعْانِي وَالْبَيَانِ وَالْبَدِيعِ وَالْحَدِيثِ وَالسِّيرَةِ النَّبُوَيَّةِ وَالتَّصْوِفِ وَفَلْسَفَةِ
الدِّينِ قَرَاءَةَ تَحْقِيقٍ، وَإِنْقَانَ وَتَدْقِيقٍ، زِيَادَةً عَلَى الْأَبْحَاثِ وَالْمَطَالِعَاتِ
وَالْمَذَاكِرَاتِ وَالْمَرَاجِعَاتِ وَحْلَ الْمَشْكُلَاتِ الَّتِي كَانَتْ تَرُوْجُ بَيْنَهُمَا فِي بَيْتِهِ فَذَلِكَ
شَيْءٌ كَثِيرٌ لَا يَدْخُلُ تَحْتَ الضَّبْطِ وَالْإِحْصَاءِ. وَكَانَ هَذَا الشَّيْخُ مُعْطِفًا لَهُ مُشْغُوفًا
بِهِ لَا تَلِذُ لَهُ قَرَاءَةٌ إِلَّا إِذَا كَانَ حَاضِرًا فِي الْمَجْلِسِ صَرَحَ لَهُ بِذَلِكَ غَيْرَ مَا مَرَأَ.
وَكَانَ لَهُ عَدَدٌ أَشْيَاخٌ غَيْرُ مِنْ ذَكْرِ أَخْذِهِمْ فَنَوْنَا مُخْتَلِفَةً مِنَ الْعِلْمِ تَرَكَنَا
ذَكْرُهُمْ اخْتِصَارًا إِذَا تَبَعَ ذَلِكَ يَطُولُ جَدًا.

وفي أثناء ذلك توفي والده^(١) واستغل إخوته بما كان يشتغل به والدهم

(١) كانت وفاة والده بقبيلة الغرب في مزرعته التي كانت هناك سنة ١٢٧٧هـ ١٨٦١م
راجع الاستقصاص صحفة ٢٥٥ الجزء الرابع طبع مصر.

من الفلاحة وغيرها فلم يعفه ذلك عن طلب العلم بل تخلى عن كل شيء لا يخوته وزهد فيه وأقبل على ما كان صارفاً وجهته إليه.

هذا، ولم يكن صاحب الترجمة مقتصرًا في تعاطيه للعلوم على ما كان نافقاً منها في وقته شائعاً بين أبناء جنسه بل كانت همته تتوجه إلى الاطلاع على سائر العلوم القديمة الإسلامية التي لم يبق للناس اعتماد بها.

فإنك على مطالعة التأليف الموجودة فيها فدرس علم التفسير وعلوم الحديث والرياضيات والطبيعيات والإلهيات، وحده بغاية الاجتهد والذوق، وطالع كتب التاريخ القديمة وانتسخ لنفسه عدداً كبيراً من المؤلفات الغربية منها، وطالع كتب الجغرافية القديمة وبعض التأليف الحديثة المترجمة من اللغات الأجنبية في هذا الفن، ورسم خرائط ورسوماً عديدة متنوعة بيده في وقت لم يكن أحد يهتم بذلك ولا يتشفف إليه.

وكان متشوقاً دائماً إلى الاطلاع على المعارف الواقتية والوقوف على حقائق العلوم العصرية والمختبرات الأوروبية، معجبًا بما يصدر منها ويظهر، ومعطياً لذلك حظه من النظر، معتنباً بمطالعات المجالس العلمية، مولعاً بالجرائد السيارة وترجمتها إن كانت بغير لغته العربية واقتباس ما فيها من الفوائد والشوارد وتقييدها والتمعن فيها وانتقادها. وكانت تأتيه من مصر والشام وأسبانيا وفرنسا وما زال الكثير منها محفوظاً بخزاناته العلمية إلى الآن.

ولما أتم قراءته وحصل على ما أراده من العلوم العربية سواء في ذلك المؤلف منها والمتروك ظهر بمظهر غريب في قومه وفكر بعيد المرمى بين أبناء جلدته، فصار بذلك متميزاً عنهم، مرموقاً بعين الإعجاب بينهم، وتفرغ حيثيت لنشر العلم والتأليف حسبما ذكره.

تصديقه لنشر العلم:

ثم إن صاحب الترجمة انتصب لنشر العلم وبشهادة وصرف وجهته وكليته لنفع الخاص والعام وكان فصيح اللسان قوي الحافظة، حاضر الذهن حسن

الإيراد، فكان كلامه إذا بُرِزَ فيه نفذ إلى القلوب ورسخ فيها رسوحاً بيناً. وقد سلك في تدريس العلوم طريقة جديدة بالنسبة لعلماء عصره. وذلك أنه كان يراعي في تدرسيه التفهيم ويطرق المسائل الاجتماعية والدينية ويتكلّم عليها بالكلام البليغ الذي يؤثر في عقول الحاضرين فكانت دروسه من أجل ذلك أندية تزدحم عليها الناس على اختلاف طبقاتهم وتبادر مقصدهم وأغراضهم فكانوا يبكررون إلى المجلس قبل الوقت بالساعة وال ساعتين ويتسابقون إلى محلات الجلوس ومع ذلك كان المجلس يعمر ويغص بأهله حتى يجلسوا بالطرق القرية منه والرحايب المتصلة به.

فعكف على تدريس تأليف كثيرة في فنون مختلفة عقلية ونقلية: منها علم التفسير بشرح الخازن، وكان هذا الفن قد ترك بالمغرب منذ زمن طوبيل فأحياءه وختّم تفسير القرآن مرتين. ومنها مقدمات ابن رشد في الفقه، وتبصرة ابن فرحون في الأحكام الفقهية أيضاً، وابن بري في علم القراءات وفتح المنان كذلك، والمطول على السعد في البلاغة، ومغني الليب لابن هشام في النحو، ومحضر الشیخ خليل، والتحفة، والزفافیة، والمرشد المعین، وألفية ابن مالک، وغير ذلك مما يطول تعداده في العلوم الرياضية والطبيعية والشرعية.

سيرته ومذهبه:

كان مقتفياً أثراً السنة في كل شيء، شديد الإنكار على أهل البدع متصدباً إليهم عاملاً على زجرهم وردهم إلى الكتاب والسنة، متندداً بالطوائف^(١) وأرباب الأهواء الذين أدخلوا في الديانة الإسلامية ما ليس منها حتى شوهوا وجهها وغيروا أصلها معتقداً أن أصل كل تأثير حل بالإسلام وال المسلمين إنما أتى من هذه التزغات والبدع، مع الحرص الشديد على إيقاظ المسلمين من غفلتهم وردهم إلى الطريق الواضح المنهج السوي الذي يؤدي إلى الرقي

(١) قد ألف صاحب الترجمة تأليفاً خاصاً في هذا الموضوع سماه تعظيم المنة، بنصرة السنة. ما زال لم يطبع.

ال حقيقي في الدين والدنيا ، وتلك كانت غايتها المقصودة وضالتها المنشودة ، كأنما أوقف عمره لأجل ذلك ، ومن راجع تأليفه وخصوصاً « تاريخ الاستقصاء » و« تعظيم المنة » وجدها طافحة بالتحذير من هذا الداء والإعراض بالمبادرة إلى العلاج بالوسائل الفعالة التي كانت يعتقد بها ناجعة في حسم مادته ، وهي : نشر العلم الصحيح الحقيقي بين سائر أفراد الأمة .

وكذلك من تتبع ما كتبه في مؤلفاته على اختلاف أنواعها علم قدر وطبيته وغيرته على بلاده ودينه وتأسفه العظيم على ما هي عليه من التأخر .

هذا ، ولم يكن صاحب الترجمة متعصباً كما يتورهم بل كان واسع الفكر حر الضمير معطياً كل ذي حق حقه ، متواضعاً لين الجانب طيب المعاشرة دمث الأخلاق ، مع جد صارم في سائر أحواله يحب تعلم اللغات الأجنبية ، ومحالطة رجال الدول الأوروبية للاقتباس من معارفهم ، وكانت له مع بعض قناصل الدول والتجار الأجانب في عصره معاشرة ووداد ومذاكرات ومحاورات ومراسلات علمية في مسائل مختلفة . وطالما كان يهتم بإرسال بعض أنجاليه إلى أوروبا بقصد أخذ العلم في مدارسها ، مع أن هذه الفكرة لم تكن تخطر لأحد من المغاربة أهل عصره ، وإنما كان يصده عن تنفيذ هذا العزم عدم سهولة المواصلة على ما ينبغي إذ ذاك وكونه طعن في السن وأحتياجه إلى من يقوم بشؤونه ويتصف عنده أفكاره وآراءه ودروسه .

ومن أراد الوقوف على رأيه في هذا الموضوع ، وأفكاره في معاملة بلاده مع الخارج فلينظر ما كتبه في المسائل السياسية والاقتصادية التي طرقها في تاريخه الاستقصاء في عدة مواضع كمسألة^(١) تنظيم الجيش ومسألة^(٢)ربط العلائق السياسية ما بين المغرب ودول أوروبا وغير ذلك من الموضوعات التي ددق البحث فيها .

(١) راجع الاستقصاء صحيفة 222 الجزء الرابع طبع مصر .

(٢) راجع الاستقصاء صحيفة 226 وما بعدها الجزء الرابع طبع مصر .

أما مذهبه في التعليم^(١) فإنه كان يرى أن الطريقة المسلوكة في التعليم عند المغاربة في عصره قليلة الجدوى عديمة النتيجة بعيدة الوصول إلىغاية المقصودة منها، وأن التأليف المتداولة بين أيديهم لا تفي بالغرض المطلوب لاختصارها وغموضها وإنغلاق عباراتها واختلاطها وعدم ترتيبها ولاحتواها على المسائل والأبحاث الفارغة التي لا طائل تحتها.

فكان من رأيه صرف الناس في التعليم إلى كتب السلف المؤلفة أيام ازدهار العلوم في عصر التمدن الإسلامي، والأخذ منها لوضوح عبارتها وسهولة فهمها وكثرة فائدتها.

وكان من رأيه أيضاً إحياء ما اندر من العلوم المهمة التي كانت نافقة عند العرب إبان زهو حضارتهم كالطب والفلسفة والتاريخ والجغرافية والجبر وما أشبه ذلك؛ وطالما ندد بهذه الفكرة في دروسه وخطبه ومجتمعاته وكتبه. ولكن بكل أسف لم تكن عقول أهل عصره بلغت الدرجة التي تؤهلهم لفهم ما كان يحاوله على حقيقته وتقديره حق قدره، وتحمله على محمله وتعمل به. بل كانوا يتلقون ذلك منه بصفة الاستعجب والاستغراب.

ومع ذلك فهو بحسن سياسته وهديه كان يتكلف الوسائل ويستعمل غاية مجهوده في تفهيمهم ذلك وتبينه لهم. وقام في وجهه بعض الناس من أرباب الطوائف والطرق وصار يشنع^(٢) عليه فلم يهمنه ذلك ولم يشن عزمه بل استمر مثابراً على طريقته وحاب سعي ذلك المنكر ولم يدرك منه مراده لحسن قصده وخلوص نيته إلى أن أنته منه وهو على ذلك الحال.

(١) قد بسط صاحب الترجمة أفكاره في هذه المسألة في مقدمة حاشيته على التبصرة المسماة: «الفلك المشحون، بتفايس تبصرة ابن فردون» ما زال لم يطبع وهو محفوظ بالخزانة الناصرية بسلا.

(٢) قد شرح صاحب الترجمة ما لقيه من هؤلاء وما كان مآلهم في كتابه تعظيم المنة، بنصرة السنة في باب الكلام على التصوف. وهو مخطوط بالخزانة الناصرية بسلا.

تنقلاته وخدماته المخزنية⁽¹⁾

لما ظهر صاحب الترجمة بمظاهر النزاهة والإرشاد وعلو الهمة وسمو المدارك في العلم طار صبيته في أقطار بلاده فندبه السلطان مولاي الحسن للانخراط في سلك موظفي دولته فامتنع أولًا لأنه كان يظن أن ذلك يصرفه عن وجهته العلمية، فألح عليه حتى امتنل، وتنقل في عدة وظائف سامية في أنحاء المملكة الشريفة، فتولى أولًا خطة الشهادة ببلده سلا مدة في حدود سنة 1280 هـ 1863 م، وكان ينوب بها إذ ذاك عن قاضيها الفقيه أبي عبد الله محمد العربي بن أحمد بن منصور.

ثم لما تولى شيخه العلامة أبو بكر بن محمد عواد خطة القضاء بسلا في سنة 1285 هـ 1868 م، أستندت إليه خطة العدالة والصائر على الأحباس الكبرى بسلا بأمر سلطاني، فأظهر فيها غاية الحزم والضبط: ونظمها تنظيمًا يشهد ببراعته في الترتيب، ونقب عن ما ضاع منها وردها لأصولها، حتى أن الجواة الموجودة الآن هو الذي استخرجها ووقع جل ثائقها وهي المعتمدة والمرجوع إليها اليوم في الأحباس السلاوية.

ومن جملة أعماله المأثورة في الأحباس أن المدرسة المرئية المشهورة بطالعة سلا قبلة المسجد الأعظم كانت عند توليه لهذا المنصب في حالة برهني لها: قد تداعت إلى السقوط وشن الخراب الغارة عليها وكاد يأتي على رائحتها، فأراد بعض ذوي السلطة أن يجعلها مربطاً للدواب، فقام لذلك وقعد، وأظهر غاية الكراهة لهذا الأمر الشنيع، وكتب إلى المخزن يعرفه بأهمية هذا الأثر العظيم وما يرتب عن اندثاره، فصادف كلامه قبولاً وأجيب بإجراء المتعين في إصلاحها وترميمها وردها إلى الحالة التي كانت عليها، فقام في ذلك بنفسه أتم قيام حتى آلت لما هي عليه اليوم. ولو لاه لما بقي إلا خبرها كاختها المدرسة العنانية الموجودة بباب حسين من هذه المدينة

(1) المخزن في الاصطلاح الإداري المغربي يعني الحكومة المغربية.

المعروفة اليوم بفندق آسكور. وقد أصلحت في العهد الأخير وصارت محكمة شرعية.

وفي هذه المدة كان شيخه القاضي المذكور آنفًا يسند إليه النيابة عنه في الأحكام القضائية ويستشيره في التوازن المهمة ويقدمه لفصلها ويعول عليه في حل ما أشكل منها كما كان يسند إليه النيابة عنه في الخطابة بالمسجد الأعظم بسلام يوم الجمعة.

وقد تنقل صاحب الترجمة خلال هذه المدة من سنة ١٢٨٠هـ ١٨٦٣م إلى سنة ١٢٩٠هـ ١٨٧٣م، عدة تنقلات اختيارية بقصد التجول والزيارة والاطلاع على الأحوال بأنحاء المغرب.

فсаير صحبة شيخه السالف الذكر أولًا إلى المغرب الشمالي ودخل مدينة فاس وتعرف بعلمائها وكبارها وذاكر أدباءها، وكانت له معهم مطارحات ومحاورات في فنون شتى وأعجبت فاس به وحصل له من الإقبال والإجلال ما زاد في شهرته وتضافر الناس على تقديره، وعرج في جولته هذه على مدينة مكناسة الزيتون وزاوية زرهون ونواحيها وخالط ناسها ودرس أحوالها.

ثم سافر بعد ذلك لجبال الريف وغماره ودخل مدينة طوان ومنها إلى العرائش وأصيلا والقصر الكبير بعد ما زار ضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش بجبل العلم وخلف ذكرًا جميلاً حيث ما مر، وثناء عاطراً حيثما قر.

وكانت له جولة أخرى ببلاد الشاوية من المغرب وماجاورها درس فيها أحوال تلك الناحية وسبر غور أهل المغرب وعرف أخلاقهم ومميز أفكارهم مما زاد في سعة اطلاعه على أحوال هذه البلاد من الجهة الجغرافية والإيكولوجية، كما زار أيضًا مدينة آزمور وضريح الشيخ أبي شعيب أبوبن سعيد الملقب بالمساري و مدحه بقصيدة رائقة أثبتها في تاريخ الاستقصاص^(١)، كلها حكم وأداب.

(١) راجع الاستقصاص صحفة ١٤٥ الجزء الأول طبع مصر ١٣١٢.

ثم ورد عليه الأمر السلطاني بالتوجه للخدمة بمرسى الدار البيضاء سنة 1292هـ 1875م فامثل بعد ما تصل وتعلل بعمل كثيرة زهداً في ذلك ورغبة في اكتساب العلم ونشره، ولو لا أن شيخه وصهره أبا بكر عواد أرمه ذلك لما قبل. وأقام بهذه الخدمة إلى آخر سنة 1293هـ 1876م.

وفي سنة 1294هـ 1877م استدعاء المخزن للقيام بوظيفة الخدمة في المالية ببنية الصائر بمراكنش فأقام بها مدة ثلاثة أعوام وهناك انتهز الفرصة لجمع مواد تاريخه الاستقصا كما سندكره بعد، وأ牟ى دروساً مفيدة بجامع ابن يوسف بمراكنش كالسعد والتبصرة والمغني وكتب بخطه عدة كتب علمية غريبة عشر عليها هناك.

ثم رجع لبلده، وما كاد يستقر به المقام حتى ورد عليه الأمر الملكي بالقدوم لمراكنش للالتحاق بالسلطان بالحضور المراكشية سنة 1297هـ 1879م.

وكان القصد من قدومه هذا أن يختصه السلطان بالخدمة معه في الحكومة العليا ولكن ذلك لم يوافق طبعه لما كان مرکوزاً فيه من حب الحرية في الأعمال، وعدم التقييد ببعض التقاليد المخزنية والانتقلات السلطانية، حرصاً على التفرغ للكتابة والدرس والتقييد، فاعتذر إلى السلطان وتخلص مما عرضه عليه، فوجهه للخدمة بمرسى الجديدة وهناك أتم جمع كتابه الاستقصا وترجم ما يتعلق به من اللغات الأسبانية والبرتغالية والإنجليزية حسبما سندكره في فصل خاص بعد هذا.

وقام في هذه المدينة بجملة أعمال خيرية منها الوقوف في بناء المئار وإصلاح المسجد الموجود الآن وغير ذلك بمعاضدة صديقه باشاها^(١) إذ ذاك السيد محمد الجراي.

واتخذه المخزن في هذه المدة مستشاراً سرياً فكان يكتبه ويأخذ رأيه في الأمور المهمة والقضايا السياسية.

(١) الباشا في الاصطلاح الإداري المغربي يعني حاكم المدينة.

وطلب منه أن يبدي رأيه في إصلاح المالية المغربية ومداخيلها على النهيج الشرعي فحرر في ذلك قانوناً للخارج والمداخل المالية بال المغرب على مثال عجيب.

وكانت أشغاله المخزنية لا تتعوقه عن نشر العلم وبشه، فدرس تفسير الخازن وختم البخاري هناك وانتفع الناس به نفعاً بينما وانفصل عن الخدمة بهذه المرسني سنة 1299هـ 1881م. وبعد استراحته ببلده سلا مدة يسيرة ورجوعه لتنفيذ خطته العلمية والدؤوب عليها عاد للخدمة بمرسى الدار البيضاء سنة 1301هـ 1883م وطال مقامه بها ثلاثة أعوام، وتعرف بقتاحن الدول ونوابهم هناك وحصل بينه وبينهم وداد وجرت له معهم مذاكرات ومحاورات في مسائل علمية واقتصادية وسياسية ترجع إلى ربط العلائق بين المغرب وأوروبا فأحبوه وعرفوا قدره وراسلوه وهادوه.

وأثناء ذلك استشاره السلطان المولى الحسن رحمة الله في المعاملة التجارية مع دول أوروبا فيما يرجع للسوق وتسريح ما كان محجوراً من المواد كالحبيبات والأنعام وتعديل «صاكة» الأعشار فتصدى لهذه المسألة وحرر فيها جواباً شافياً أثبته في تاريخ الاستقصا^(١).

وعاد لبلده فجلس بها أيام قليلة ثم عينه السلطان سنة 1304هـ 1886م لفصل قضية أولاد الدكالي في معاملتهم التجارية مع تجار الطليان بطنجة فذهب إليها واجتمع بسفراء الدول بها إذ ذاك وخصوصاً السفارة الطليانية واستفاد من هذه الوجهة فوائد ومعلومات مهمة.

ولما رجع لبلده استقل بمطالعة دواوين الفقه وراجعتها إلى أن ورد عليه الأمر السلطاني سنة 1305هـ 1887م بالتوجه لحضوره فاس بقصد الخدمة بالمالية بقسم الصائر وعند وصوله إليها اشتغل بتدريس مختصر الشيخ خليل بكلية القرويين بشرح الدردير لاختصاره وسهولة مأخذة بالنسبة لشرح الزرقاني

(١) راجع الاستقصا صحفة 266 الجزء الرابع طبع مصر سنة 1312.

الذى كان العمل جارياً بتدريسه بالقرويين، فاستحسن الناس طريقته واقتفي العلماء في ذلك أثره إلى أن أصبح الآن شرح الدردير مقرراً في النظام الجديد لكتلية القرويين بفاس وابن يوسف بمراڭش، وازدادت معرفة واختلاطاً بعلماء تلك الحضرة وأبدى فكره في إصلاح التعليم، وأكتب على مطالعة كتب الأنساب وأصولها واستخرج من ذلك المواد لتأليفه: «طلعه المشتري في النسب الجعفري».

ثم آب المدينة سلا سنة ١٣٠٨هـ ١٨٩٠م ليستريح من الأشغال ومواصلة الأعمال فأقام بها مدة منكباً على الدرس والتأليف والكتابة والتقييد بغایة الاجهاد.

ثم خطر بباله حينئذ أن يشد الرحلة لزيارة مقر أجداده ومهد عائلته بزاوية تامكريوت من وادي درعة قاصداً بذلك اكتشاف تلك الأصقاع الجنوبية والاطلاع على أحوال سكان تلك الناحية والوقوف على منازل أسلافه وديارهم ومايترهم، ومن أعظمها الخزانة العلمية الخطية^(١) التي لا نظير لها بالمغرب الموجودة بالزاوية التامكريوتية فشرع في تهييء الزاد والراحلة لطول السفر وبعد الشقة.

ويبينما هو في ذلك ورد عليه الأمر الشريف سنة ١٣١٠هـ ١٨٩٣م بالخدمة بمرسى الدار البيضاء أيضاً فامتثل وأخر تنفيذ هذه الفكرة لوقت آخر إن ساعده على ذلك الرمان. ولم يقصر - مدة خدمته هذه - في أعمال البر بهذه المدينة كالوقوف على إتمام بناء جامع الحمراء وصرف نصف دخل ضريح سيدى أبي الليوثر إلى الفقراء والمساكين والتدريس وإلقاء الخطب وغير ذلك. وأثناء هذه المدة وقعت قضية السفير الإبريزية المشهورة مع أسبانيا إثر حربها

(١) هذه الخزانة تشتمل على نحو عشرة آلاف مخطوط وكلها من غريب الكتب ونفيسها مما لا يقدر بثمن، ولكن بكلأسف ضاع الشيء الكثير منها الآن. وعشر على أسلانها تباع عند الوراقين والسماسرة بالأسواق والأمر الله وحده.

مع زناتة الريف وكان قد أبدى رأياً في فصلها فلم يصادق عليه فحصل له تأسف عظيم على حل هذه المسألة على تلك الصورة التي فصلت عليها كما أشار لذلك في تاريخه^(١) فانفصل عن الخدمة المخزنية ورجع لوطنه سنة ١٣١١هـ ١٨٩٤م وذلك عقب وفاة السلطان المقدس المولى الحسن وتولية ابنه المولى عبد العزيز بعده.

ولما تسلم عرش المملكة هذا السلطان اقتفى سنن والده في تعظيم المترجم له واحترامه ومعرفة قدره ومكانته في العلم والسياسة. فتدبره سنة ١٣١٢هـ ١٨٩٥م لفقد الأموال المخزنية وإحصائها والبحث فيها بالدار البيضاء فتوجه إليها وقام بذلك أحسن قيام، وجرد في مأموريته هذه تقريراً رفعه للحكومة ولا زال هو المعتمد لدى إدارة الأموال المخزنية حتى الآن.

وعند رجوعه من هذه الوجهة انقطع عن مخالطة الناس وانكب على المطالعة والتقييد وتخلى عن الخوض في الأعمال السياسية وأقبل على إتمام مؤلفاته وتحريرها وتحريجها كنصرة السنة وتحريج شرح قصيدة ابن الونان وحاشية التبصرة وغير ذلك مع تكرر عرض المناصب عليه واعراضه عنها غير أنه مع ذلك كان يستشار في الأمور المهمة وبقي على هذا الحال إلى أن وافته منيته. شعره:

لقد قال المترجم له شرعاً كثيراً في عهد شبابه ولم يدون منه إلا نزراً يسيراً في ديوانه المخطوط بالمكتبة الناصرية، إذ لم يكن له اعتماد بحفظه وجمعه وكله من الشعر الجيد. وله في تعاطي الشعررأي خاص قال رحمه الله في رسالته التي ترجم فيها لنفسه مخاطباً بها صديقه الأديب الفاطمي الصقلي الفاسي:

«وأما تعاطي الشعر فقد كنت أنتحله أيام الشبيبة ثم أعرضت عنه إذ

(١) راجع الاستقصا صحفة ٢٧٧ وما بعدها الجزء الرابع طبع مصر.

بضاعته مزجاً سيناً في هذا الزمان الذي سوق الأدب فيه كاسدة وقبل اليوم
قال المتنبي :

إلى كم ذا التخلف والتوانى
وكم هذا التمادي في التمادي
وشغل النفس عن طلب المعالى . ببيع الشعر في سوق الكساد
وإنما المطلوب أن يعرف الإنسان آلة وما داته وكيفية قرره ونقده حتى
تجود ملكته ، ويتم ذوقه ويصير بصيراً باللسان العربي وأساليبه وفنونه ثم
يتفرغ لما هو أهم من ذلك من علم الفقه وأصوله وعلم عيوب النفس
وأمراض القلب وكيفية علاجه».

وقد أثبت بعضه في تاريخ الاستقصا فمن ذلك :

القصيدة التونية التي مدح بها الشيخ أبي شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي
الملقب بالسارية دفين مدينة آزمور وهي مذكورة في صفحة 185 من الاستقصا
طبع مصر عام 1312هـ.

والقصيدة السينية التي مدح بها سلطان عصره مولاي الحسن بن محمد
لما زار مدينة سلا في جمادى الأولى سنة 1293 وهي طويلة ملينة بالنصائح
والإشارة إلى الأمثال العربية والواقع التاريخية . وقد كان صديقه العلامة
القاضي أبو محمد عبد الله بن خضراء خصها بشرح نفيس إلا أنه لم يبق منه
بخزانة المترجم له إلا بضعة أوراق لا غير . وقد ذكرها في الاستقصا أيضاً
صفحة 247 من الجزء الرابع طبع مصر في العام المذكور .

ومن ذلك القطعة الحائمة التي أجاب بها صديقه الأديب المحاضر أبي
عبد الله محمد بن عزوز الرباطي أصلاً المراكشي دارأً عما كتب له به لما كان
بمراكش وذلك في فاتح رجب عام 1294 وقد أثبته في الاستقصا أيضاً صفحة
113 من الجزء الثاني طبع مصر .

ولما زار مدينة فاس الإدريسية مع شيخه العلامة القاضي المرحوم أبي
بكر بن محمد عواد سنة 1280 كان ذات يوم وقد عزم السفر بقصد الرجوع
إلى بلده عند الشرفاء أولاد مولاي الطيب الدرقاوي بمدرسة الصفارين فذاكه

مولاي عبد السلام بن مولاي الطيب في أمر السفر والعزم عليه كالمتوجع
لفرقه فأنشده في الحال :

أرى القلب يا عبد السلام سليما
ووشك النوى لي مقعداً ومقينا
إذا أنا سرت عنك أول غدوة
تركت فؤادي في ذراك مقينا
ولما سافر من الغد خرج جماعة من الطلبة لوداعه فقال وأنشدهم عند
الوداع خارج باب المحرق :

غدا الشمل بالتوديع وهو مشت
أسكان قلبي لست أنفك بعدكم
ولو أني أعطيت حظي منكم
فها أنا سرت اليوم عنكم ومهجتي
وأيسر ما ألقى من الشوق أني
ومنما قاله في المدح :

وسيف النوى بين الأحبة مصلت
نجي الأسى يملي علي فأنصت
لما خللتني عن جمعكم أفلت
تدوب وكبدى بالفارق تفتت
أسير وقلبي نحوكم يتلفت
أبناء أحمد لستم ذوي كرم
لكنكم في عرائين العلا شتم
ولا أقول نسيم الروض ذكركم
وإنما هو في روض الشنا ديم
ومما قاله في النصح، وكان بعض الطلبة يحضر مجلسه وربما تكاسل
فصحه ذات يوم فتختلف عن المجلس بالكلية وذلك سنة ١٢٨١هـ:
أيا مبديا هجري لأجل نصيحة كلانا أتى في رأيه خطوة الجهل
فعما قليل تعترىك ندامة على فرقتي فاستبق إن كنت ذا عقل
ومما خاطب به جماعة من الأدباء أصحابه من أهل سلا في سفرة
عرضت له سنة ١٢٧٧هـ:

فالذى رمت ما إليه سبيل
لا ترم مني سلوة يا عذول
وسهاد، ورقة، ونحوه
شرح حالى لديك: فقد، ووجد
أترى ذا مع الملام يزول؟
واصفار، ولوغة، ولوغ
ومن القلب حيرة وذهول
كل يوم من أم أوفى عتاب

وَجْبَالُ، تَضَلُّ فِيهَا الْوَعْوُلُ؟
 تَقْطَعُ الْحَبْلُ بِي، وَدَهْرِي يَحْوِلُ
 غَالِهَا تَحْتَنَا السَّرِي وَالذَّمِيلُ
 دَاسَنَا الشَّوْقُ، فَالْحَدَاءُ عَوْيِلُ
 تَسْكُبُ الدَّمْعُ، وَالنُّوَى يَسْتَطِيلُ
 سَحْبَتُ لِلسَّحَابِ فِيهَا ذِيولُ
 فِي زَمَانِ بِهِ الشَّبَبِيَّةِ غُولُ
 سَمِ وَيَذِلُّ النَّهَيِّ وَفَخْرًا يَطْوُلُ
 مَا لَهُمْ فِي الْوَرِي يَعْدُ مُشِيلُ
 لَسَنَا الْمَجْدُ فِي ذَرَاهِمِ مَقِيلٍ
 لَهُمْ، فَالْمَنَالِدِيكُ نَزُولُ
 مَا لَهَا الْدَّهْرُ فِي مَدَاهَا أَفُولُ
 مَعْهُمْ، وَالزَّمَانُ عَنِي غَفُولُ
 فِي سَرُورٍ، بِهِ الْوَقُورُ يَمِيلُ
 فَمَبِيِحِي لَهُمْ بِشَكْرِي كَفِيلُ
 غَيْرِهِمْ، إِنِّي إِذَا لَجَهُولُ؟
 نَالَكُ الرَّفْدُ مِنْهُمْ وَالْجَمِيلُ
 لَيْسُ فِي نَادِيهِمْ يَقَالُ فَضُولُ
 لَلْ - وَلَا غَرُو، إِذَا كَذَاكُ الأَصْوَلُ
 وَلِسَانُ رَطْبُ، وَخَلْقُ جَمِيلُ
 عَنْهُمْ مَا امْتَرِيتُ فِيمَا أَتُولُ
 إِنْ خَطْبِي لِفَقْدِكُمْ لِجَلِيلُ
 عَنْدَكُمْ، وَالْأَسْى لِدِي بَدِيلُ
 طَفْقُ الْجَفْنُ بِالدَّمْوعِ يَسِيلُ
 يَعْكُسُ الْقَصْدُ، وَالزَّمَانُ بَخِيلُ
 فَالْحَشا بَعْدَكُمْ كَثِيبٌ عَلِيلُ

كَيْفَ أَسْلُو وَدُونَهَا فَلَوْاتُ
 أَقْطَعَ الْبَيْدُ خَلْفَهَا وَحْظُوْظِي
 حَرْ شَمْسُ، وَقَرْ نَحْسُ، وَعَيْسُ
 كَلْمَا دَاسُ خَلْفَهَا رَبِيعُ حَيِّ
 وَالْجَوَى يَغْتَلِي الْحَشِّي، وَجَفُونُ
 وَرَسُومُ مَوَائِلُ وَدِيَارُ
 دَعْ حَدِيثًا مِنْ أَمْ أَوْفَى تَقْضِيَ
 وَإِذْكُرْ الْمَجْدُ وَالسَّمَاحَةُ وَالْحَدُّ
 لِكَرَامَ عَلَتْ بِهِمْ مَكْرَمَاتُ
 لِكَرَامَ غَدَا مَدِي الْدَّهْرِ بِلْقَى
 لِكَرَامَ مَتَى نَزَلتْ بِسَارَ
 فِي سَلَا أَشْرَقَتْ شَمْوَسُ عَلَاهُمْ
 رَبُّ لَيْلٍ وَصَلَتْهُ بِصَبَاحٍ
 وَصَبَاحٍ وَصَلَتْهُ بِمَسَاءٍ
 فَتِيَّةُ عَوْدُونِي الْوَدُ صَرْفَاً
 أَتَرَكَ الْقَوْلَ فِيهِمْ وَأَوَالِيَّ
 أَجْدَرُ النَّاسُ بِالْمَدِيْعِ أَنَّاسٌ
 تَخْذُلُوا الْحَلْمُ وَالْمَرْوَةُ دِينَا
 صَغَرَتْ سَنَهُمْ - وَمَا صَغَرَ الْعَقَّ
 حَسْبُ شَامَخُ، وَمَجْدُ أَتِيلُ،
 لَوْ تَرِي وَجْدَهُمْ غَدَةُ مَسِيرِي
 يَا كَرَامَا فَقَدْتُ قَرْبَ حَمَاهِمْ
 زَلَتْ عَنْكُمْ كَرْهَا وَقَلْبِي مَقِيلُ
 كَلْمَا لَاحَ لِي سَنَا مِنْ حَمَاكِمْ،
 أَبْتَغَيِ نَحْوَكُمْ نَهْوَضَا وَحْظِي
 لَيْسَ سَيِّئُ يَرْوِي عَيْنِي سَوَاكِمْ،

إذا ما قضى الإله تجمعي بكم، فالذي لقيت قليل
وفي سنة 1282 ورد على سلا العلامة الأديب محمد الطاهر بوحدو
المكناسي وأقام بها أياماً ثم عبر إلى رباط الفتح وأقام عند الشيخ العلامة
الفاضل العربي ابن السائح الشرقاوي وكتب أبياتاً خاطب بها بعض علماء سلا
وألم بذكر المترجم له فأجابه على بحثه وفافيته ورويه:

يا أديباً غداً بحسن اتفاق بنيت السحر في المعاني الرفاق
جددت أرسماً لعهد التلافي وعلمنا منها بأنك لا زلت
بت بما ذا صابة واشتياق لست أدرى أهي قلائد در
أم نجوم محت دياجي الفراق توجت مفرق الزمان على فت
سرة شعر من الورى والمحاق ولقد ساعني الذي قللت من جهه
تل، وأنت الفتى الكريم الوفاق أنت تحكي النسم في الخلق، والصها
رم في العزم، والطلال في المذاق وبينما من فرائك الصعب ما لو
كان بالبدر لاكتسى بالمحاق فتأزل ما بالقلب من وحشة البيه
غير يسر أنى على إسلام ما محياك حين تغدو علينا
زال من فرط وجدهم في احتراق فعليك السلام من هائم لا
على خذنك الإمام الذي حسبي الأعربي من أغربت عن
فخره ألسن الورى، باتفاق ما شدأ في محافل الأنس شاد
وحدا بالحسان حادي النياق وكان العلامة أبو العباس أحمد يمل السوسي من أهل تارودانت قد كتب
إلى صديقه العلامة القاضي أبي محمد عبد الله بن خضراء بأبيات يتشوق فيها
إليه وألم فيها بذكر المترجم له والسلام عليه فأجابه على بحثها ورويها وذلك
عام 1300هـ.

هواي مدان والحببيب منائي
روشوفي يناجي من ورائي وراء
يرق لدائني أو يبيع فدائني
فليل الهوى كان الحبيب وليته

وهيئات يسلو من بارض سلا انتأى
ولكنني أنهي السلام مطيبة
إلى الماجد الأرضي الذي بولاته
وأسأل ربي أن يديم لنا به
ويجزيه من خير ما قد جزى به
ويملأ من نور المعارف صدره
بجاه النبي الهاشمي والله
عليه التحايا الغر ثم عليهم
واستعار من صديقه العلامة المرحوم أبي العباس أحمد بن الحاج محمد
والعلو «شرح ابن بدرؤن على قصيدة ابن عبدون» فوعده وماطل، فكتب إليه
رحمه الله وذلك سنة ١٢٨٥هـ:

يا فقيهاً في حلبة المجد جلا
هل تفي منكم الوعود بشرح
لست أرضي لمجادكم أن أرى مما
وغدا العلم من تقاه محلًا
لابن بدرؤن أم تقولون كلام؟
نوعاً أو عن ندى يديكم محلًا

مؤلفاته

وخلف صاحب الترجمة مؤلفات شتى في فنون مختلفة ما بين مطول
ومختصر نسردها على حسب تاريخ كتابتها حسب الإمكان:

١ - تعليق على ديوان أبي الطيب المتنبي :

وهو تعليق لطيف تكلم فيه على غريب اللغة وشرح الآيات المحتاجة
للشرح مع الإشارة للنكات البلاغية والتلميحات البديعية، فرغ من كتابته سنة
١862 (1279).

٢ - تعليق على رقم الحل في أخبار الدول لابن الخطيب السلماني :

هو تعليق مفيد جداً مليء بالفوائد التاريخية النفيسة، وزاد فيه ما تركه
صاحب ابن الخطيب المذكور من أخبار ملوك مصر والشام في القرون

الوسطى . فرغ من كتابته سنة 1285 (1869).

٣ - تعليق على بداية القدماء وهداية الحكماء :

وهو تأليف في التاريخ والتمدن القديم ترجمة من الأصول الفرنسية معاصره الشيخ رفاعة بك الطهطاوي المصري رئيس قلم الترجمة بإدارة العلوم والمعارف بالقاهرة زمن الخديوي محمد علي باشا . فرغ من كتابته سنة 1285 (1869).

٤ - تعليق على شرح ابن بدرورن لقصيدة ابن عبدون :

هذا الشرح للأديب عبد المالك بن بدرورن الحضرمي الأندلسي على قصيدة أبي محمد عبد المجيد بن عبدون الشهيرة التي رثى بها بنى سلمة المعروفة ببني الأفطس من ملوك الطوائف بالأندلس .

وهذا تعليق كله غرر وأدبيات رائقة فرغ من كتابته سنة 1285 (1869).

٥ - الفوائد المحققة في إبطال دعوى أن الناء طاء مرقة :

وسبب تأليفه لهذا الكتاب أنه وقع خلاف بين بعض الطلبة المعاصرين له في الفرق بين هذين الحرفين واتسعت مادة الخلاف بينهم في ذلك ، فزعم بعضهم أن الناء طاء مرقة وزعم البعض الآخر أن كلاً من الحرفين مستقل بمخرجه . فتصدى لهذه المسألة وحققها في هذا التأليف .

وفيه أبحاث نفيسة تتعلق بكيفية الأخذ في القراءة وتجويدها وحصر مخارج الحروف وصفاتها وغير ذلك من استدلالات أصولية . فرغ من جمعه سنة 1291 (1874).

٦ - رسالة في تحقيق أمر سبعة رجال دفناه مراكش :

هذه الرسالة ألفها لما كان مستخدماً بهذه المدينة في حدود سنة 1294 (1877) جواباً عن الأسئلة التي قدمها إليه صديقه العلامة الأديب محمد الأمين بن عبد الله الحجاجي المعروف بالصحراوي الشنكيطي المراكشي ،

وقد بني عليها مؤلفه الكبير المسمى «المجد الطارف والتالد»، من أسلة أبي العباس أحمد بن خالد» في مجلدين وتوجد نسخة منه محفوظة بالخزانة الناصرية.

٧ - كشف العرين عن ليوثبني مرين:

وهو تاريخ مختصر في أخبار الدولة المرinية بالمغرب فقط. كتبه سنة ١٢٩٥ (1878).

٨ - رسالة في الرد على الطبيعين:

ألف هذه الرسالة إثر مذكرة جرت له مع أحد الأوروبيين المتكلسين لما كان مستخدماً بالجديدة، وبعد مذكرة طويلة بينه وبين هذا الأوروبي أذعن لمقاله وسلم ما كان يقرره له. وهي رسالة احتوت على حجج عقلية في الرد على من ينكر وجود الصانع ويكتذب بالشرع، وفيها أبحاث نفيسة عالية. ألفها سنة ١٢٩٧ (1880).

٩ - تأليف في مسألة إعطاء الرسوم:

وبسبب جمعه لهذا التأليف وقوع المذكرة بينه وبين مفتى فاس الشهير المهدى الوزانى، وكان لا يقول بما يقوله صاحب الترجمة في هذا الموضوع، فألف هذا التأليف وذكر فيه ما تحصل لديه من نصوص الفقهاء في جواز إعطاء الرسوم وتعيين ذلك في بعض الأحوال، واستدل على ذلك بنصوص من الكتاب والسنّة وأقوال الفقهاء المجتهدين وسلك فيه مسلكاً عالياً فرغ منه بمدينة فاس سنة ١٣٠٦ (1888).

١٠ - تقيد مختصر في حصر جمهرة آل ناصر:

كان جمع هذا التقيد أولاً قبل تصديه لتأريخ تأليفه الكبير المسمى: «طلعة المشتري، في نسب الجعفري» وبين فيه تفرق آل ناصر بالمغرب وتبعد

فروعهم، وألحقها بأصولها. كتبه سنة 1308 (1890).

11 - طلعة المشتري، في النسب الجعفري:

حقق فيه نسب جده الشيخ ابن ناصر، واتصاله بعد الله بن جعفر بن أبي طالب واستuan في جمعه بعده أصول حصل عليها بمدينة فاس لما كان مستخدماً بها، ومواد أخرى وردت إليه من تامكروت وما تلقفه بنفسه من أفواه الجم الغفير من ذرية الشيخ ابن ناصر الواديين إذ ذاك على السلطان لغرض يتعلق بالزاوية الناصرية فرغ منه سنة 1309 (1891).

12 - شرح مساعدة الإخوان:

وهي قصيدة الشيخ محمد بن ناصر سماها «مساعدة الإخوان من الحشم والأعون على ما يعيين على البر والتقوى ويصرف عن الإثم والعدوان» في العبادات على نمط المرشد المعين على الضروري من علوم الدين للإمام ابن عاشر في هذا الموضوع. وهذا الشرح خلاصة ما ألقاه من الدروس في هذه القصيدة. فرغ منه سنة 1310 (1892).

13 - تعظيم المنة بنصرة السنة:

وهذا التأليف من أهم المؤلفات التي كتبها صاحب الترجمة وهو أوضح دليل على سعة فكره وبرهان على أنه كان فرداً غريباً بين أبناء جنسه ووقته.

والسبب^(١) الحامل له على جمعه هو أنه كان يدرس تفسير القرآن بسلا ويتوخى في تدرسيه التنبية على البدع المحدثة في الدين وردها والتشديد فيها والتنديد بأهلها من أرباب الطوائف، فقرر ذات يوم كلاماً في هذا الموضوع

(١) يراجع المبحث الأول من الفصل الثامن من السماع والرقص عليه من هذا التأليف فقد خصصه المؤلف لشرح السبب الداعي لتأليف هذا الكتاب.

تناوله أرباب البدع والأهواء ومقدمو الطوائف بينهم فمشوا في بعضهم بعضاً وشنعوا عليه وأبدؤوا وأعادوا في ذلك وكتبوا إلى السلطان في شأنه ولكن لم يكن لما كتبوا به نتيجةً أصلاً لمكانته وفضله ولم يشن عزمه عما كان مشغلاً به شيءٌ من ذلك.

وتصدى حينئذ لتأليف هذا الكتاب وبين فيه البدع المحدثة في الدين ومخالفتها لأصول الشرع الإسلامي وانتقد سائر ما ظهر منها في الأقطار الإسلامية على الجملة وفي المغرب بالخصوص وذكر أسباب حدوث الزوايا والطوائف بالمغرب وكيف كان أصلها وما آلت إليه فجاء تأليفاً عجيباً في بابه دستوراً جاماً في منه لم ينسج على مثاله. فرغ منه سنة 1311 (1893).

14 - زهر الأفان، من حديث ابن الونان:

وهو شرح على الأرجوزة المشهورة بالشمقمية استوفى فيه فنون اللسان العربي إلا قليلاً واستوعب شرح ما لمح له الناظم من الأمثال والحكم والأخبار والتواتر. فرغ منه سنة 1313هـ 1895م.

15 - وصية وعظية:

وهي وصيته التي أملأها على ولده الأكبر لما عزم على زيارة المولى عبد السلام بن مشيش وكان إذ ذاك مريضاً مرضه الذي مات فيه وكلها حكم والأخبار والتواتر، فرغ منه سنة 1313هـ 1895م.

16 - تاريخ الاستقصا، لأخبار دول المغرب الأقصى:

وهو هذا الكتاب الذي يمثل للطبع من جديد والذي هو تاريخ للمملكة المغربية من لدن الفتح الإسلامي إلى صدر دولة السلطان المولى عبد العزيز بن الحسن وسيأتي الكلام عليه بالتفصيل في الفصل التالي لهذا الفصل. هذا ما وقفتنا عليه مؤرخاً من تأليفه.

وأما التأليف الغير المؤرخة فيها بيانها:

١٧ - دفتر محررات وأصول تاريخية :

هذا الدفتر مملوء بالمحررات والأصول التاريخية والواقع والمتفرقات المهمة والظواهر والمناشير الملكية التي عثر عليها وجمعها في رحلاته وتجولاته بالمغرب وما كان يترجمه من جرائد ومجلات أوروبا وأمريكا المكتوبة بغير لغته من أخبار العالم مع بعض الرسائل الأدبية التي كانت تجري بينه وبين بعض أدباء عصره و Ashton في جمعه مدة عمره وكان لا يترك شاذة ولا فاذة إلا أدرجها فيه وهو دفتر لا يقدر بثمن .

١٨ - تعليق على سفينة الراغب :

وهو تعليق على التأليف المسمى بهذا الاسم الفيلسوف الشيخ محمد راغب باشا أحد وزراء الدولة العثمانية وكله أبحاث فلسفية عقلية في علوم الطبيعة وما وراء الطبيعة .

١٩ - مجموع فتاويه الفقهية :

وهو مجموع ضخم في الفتاوي الشرعية والنوازل الفقهية التي كان يسأل عنها وتصدر منه أجوبتها .

٢٠ - رسالة الحواريين :

وهي رسالة تكلم فيها على الديانة المسيحية وانتشارها على يد الحواريين أصحاب عيسى عليه السلام وتحقيق أمرهم .

٢١ - رسالتان في فن المؤسيقى :

إحداهما خاطب بها صديقه العلامة الفلكي إدريس بن محمد الجعيدى السلاوى ، والأخرى قيدها في الموضوع نفسه وبحث فيما في النغمات العربية والمقابلة بينها وبين المؤسيقى العجمية .

22 - رسالة في تحديد السلطة للولاة:

وهي رسالة في الفرق بين خطة القائد والقاضي والمحاسب عند المغاربة وتحديد سلطتهم.

23 - قانون في الترتيب الإداري والجبايات المالية بالمغرب^(١):

ألفه لما كان بالجديدة واستشاره السلطان المولى الحسن في ذلك وهو محرر على أصول الشرع.

24 - تعليق على قصيدة عمرو بن مدرك الشيباني:

فسر فيه الألفاظ الدينية التي وردت فيها وتكلم على معانيها.

25 - تقدير في البربر:

هذا التقى يحتوي على أخبار البربر على الجملة قبل الفتح الإسلامي ويعده إلى ولاية بني الأغلب بآفريقيا وبني إدريس بالمغرب الأقصى.

26 - ديوان شعره:

ولم يكن صاحب الترجمة يعتني بتقييد شعره وجمعه فذهب معظمه إذ لم يكن يحفظه إلا في القطع الصغيرة من الورق فاغتناته يد الضياع ولم يبق إلا ما جمعه في آخر عمره وهو نظر يسير بالنسبة لما قاله في شبابه.

27 - الفلك المشحون، بتفاسير تبصرة ابن فرحون:

وهو حاشية على تبصرة أبي إسحاق إبراهيم بن فرحون في أحكام القضاء، في غاية التحرير والتحقيق.

وتوجه بمقدمة عجيبة في تاريخ الفقه والحقوق الإسلامية وتدرجها في

(١) هذا القانون فقد أصله من خزانة المؤلف ولعله بالخزانة الملكية.

الأجيال والأعصار إلى الآن ممزوجاً ذلك بأفكاره الخصوصية الفلسفية، وانتقد في هذه المقدمة التعليم وبين فساده ونبه على وجوب إصلاحه، إلا أن هذا التأليف بقي فيه نحو الربع لم يكمل لأن المؤلف عاقد الموت عن إتمامه.

وقد كان صاحب الترجمة عازماً على كتابة تأليف آخر غير ما سطر وشرع في تهييء أصولها وموادها وما زالت تلك الأصول محفوظة في خزانته إلى الآن، وكلها نفاس وذخائر فمن ذلك: مواد تاريخ عام من بدء الخليقة إلى زمانه.

ومن ذلك تأليف عام في أنساب العرب وتفرق قبائلهم في العالم والحق كل فرع بأصله.

ومن ذلك تفسير القرآن على نسق تهندى به الأمة إلى طريق الرشد وما كان عليه السلف الصالح.

وهذه المؤلفات العديدة الأنوع المختلفة الأوضاع لم يطبع منها الآن إلا ثلاثة فقط، أولها: «تاريخ الاستقصاء» طبع بالقاهرة سنة ١٣١٢هـ ١٨٩٥م، وثانيها: «زهر الأفنان، من حديقة ابن الونان» طبع بفاس سنة ١٣١٤هـ ١٨٩٦م.

وثالثها: «طلاعة المشتري، في النسب الجعفري» طبع بفاس أيضاً سنة ١٣٢٠هـ ١٩٠٢م.

والباقي ما زال محفوظاً مكتوناً. هيأ الله الأسباب لطبعه ونشره، وتعظيم فائدته ونفعه.

كيف جمع المؤلف كتاب الاستقصا

كان صاحب الترجمة في تعاطيه للعلوم سامي الهمة، إذا خاض في فن من الفنون أعطاه كليته وطالع جميع ما يتوصل إليه من كتبه الموضوعة فيه وحررها وانتقدتها وقيد ما ناسب تقييده عليها من فوائد مهمة ونكت غريبة مفيدة، وتلك كانت عادته في سائر العلوم حتى أن كتب خزانته كلها تحمل تصحيحاته وتقديراته عليها.

ولما تشوّفت نفسه للخوض في علم التاريخ ووقف على ما تيسر له العثور عليه من التوارييخ الإسلامية وغيرها في وقته، صرف وجهته لتاريخ المغرب الأقصى الذي هو وطنه ومحل نشأته، فتصفح ما هو موجود فيه من التأليف فألفاها قليلة غير مستوعبة لأخبار من سلف من الدول الإسلامية العظمى التي كانت بالمغرب، ولا مستوفية لشرح أحوال فتوحاتها الكبرى وما تأثرها المهمة التي قامت بها. وغالب من تكلم من كبار المؤرخين على المغرب الأقصى إنما يتعرض لأخباره في عموم الخبر عن الدولة الإسلامية في الأقطار المشرقة والمغاربية الشامل لجميع دول الأندلس وإفريقيا. ولم يخص أحد هذا المغرب الأقصى بتاريخ خاص ينظم عقد جميع دوله في سلك واحد، ويستوعب تفصيل أخباره وجمله لا سيما في الأزمان المتأخرة عن زمن المؤرخ الشهير العلامة ابن خلدون فقد حصل في ذلك اضطراب وغموض لعدم وجود التوارييخ الموفقة بالمقصود، وقد يدعا قيل: إن أهل المغرب لا اعتناء لهم بتاريخ بلادهم وتدوين أخبار ملوكهم وعلمائهم وأعيانهم وذلك يرجع في الحقيقة لأمرین:

أحدهما أن المعتنين بعلم التاريخ والمنقطعين إليه قليلون بالنسبة للمتوفرين على دراسة العلوم الأخرى كاللغة والفقه والأصول مثلاً، غير أن من تصدى منهم لهذا الفن يبرز فيه ويجيد كما هو مشاهد - وليس الخبر كالعيان - إذ المغاربة معروفوون بالإجاداة في التأليف والتحقيق في المسائل التي

يطرقونها ويكتبون فيها وإن كانوا أقل تأليفاً وكتابة من غيرهم من أمم أخرى . وثاني الأمرين : أن ما ألف وكتب في التاريخ المغربي قد اندثر جله وإنعدم فرعه وأصله ، لعدم الاعتناء بالنسخ وحتى ما يؤخذ من التأليف الخطية فجلها لا ينتفع به لكثره التحرير والسقط والبتر وذلك لعدم ظهور المطبعة في الأقطار المغاربية وقصور الهمم عن النسخ بالقلم .

ألا ترى أن البلاد المشرفة لما ظهرت فيها المطابع كمصر والشام أحبت سائر التأليف القديمة والفنون العلمية في الجملة فبقي ذلك محفوظاً سهل التناول ، بخلاف بلاد المغرب - وخصوصاً الأقصى منه - فإن المطابع كانت معدومة فيه بالكلية إلا المطبعة الفاسية وهي لم تحدث بفاس إلا زمن السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن . فيسبب هذا كله كان المتعاطي لفن من الفنون - لا سيما الغربة منها - بتجشم المشاق الكبيرة في الظفر بالكتب المؤلفة في ذلك الفن بقصد الانتساح والمطالعة والتقييد .

ومما زاد الحالة حرجاً وتعذراً عدم وجود المكاتب العامة بهذه المملكة كما هو الشأن في ممالك أخرى بالبلاد المشرفة والأقطار الأوروبيية ، إذ لا يخفى أن المكاتب العمومية تسهل مهمة المؤلفين والكتاب ، وتفتح لهم للتحريض والتحقيق كل باب .

فلاجل ما سطRNAه من الأسباب لم يقنع مؤلف الاستقصا بما تحصل لديه من الكتب المؤلفة في تاريخ المغرب ورأى أن القيام بجمع تاريخ خاص مستقصاً لأخبار دولة محيط بتدوين حوادثه وتبيين عللها متعين على ذوي الهمم العالية من العلماء المغاربة فسمت همته أولاً لوضع تأليف خاص في الدولة المرinية لعدم عنوره على من استكمل أخبارها واستوفى آثارها ولانحرام سلك ملوكها فجمع تأليفه المسمى : «بكشف العرين عن ليوثبني مرin» فجاء تأليفاً ممتعاً غاية الإمتاع تستحليله العيون وتستلذه الأسماع ثم ترقى بنظره إلى وضع التاريخ الكبير المسمى : «بالاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى» فشعر عن ساعد الجد والاجتهاد وجمع ما أمكنه من

التواريخ الإسلامية العامة والخاصة وطالعها كلها مطالعة تحرير وتحقيق، وقيد منها ما هو خاص بموضوعه واستعن على هذا العمل العظيم بمطالعة ما في الخزائن المخزنية المراكشية من المكاتب والتقارير والكتابات السلطانية التي كانت محفوظة هناك حيث كان مستخدماً بتلك الحضرة سنة 1294هـ 1877م وما بعدها وتبع جميع الآثار هناك خصوصاً القصور الملكية وأثار الدولة السعودية كقصر البديع وغيره حسبما أخبر بذلك، وكان ينفق في الوقوف على ذلك المال الكثير زيادة على ما كان يمده به أصدقاؤه وأحبابه وخاصة من الوزراء والكتاب والأعيان والرؤساء والأمناء من الإحصاءات والمكاتب والظهائر الشريفة والتراجم الرسمية وما كان يقيده عن الرجال الطاعنين في السن من أخبار الدولة العلوية الشريفة والحركات السلطانية والأحوال الداخلية والخارجية، فاستوعب جميع ذلك حفظاً وتقيداً ولم يزل جاداً في تحرير ما ألزم نفسه القيام به، مكتاباً لجميع الأعيان في المغرب ملتمساً ما عسى أن يكون لديهم من التأليف والتراجم وسائر المعلومات الراجعة إلى مطلبه حتى توفر لديه من المواد ما اطمأن له نفسه وحصلت له به الثقة في نيل الغاية المقصودة والضالة المنشودة.

ثم قدر الله أن انتقل إلى مأمورية سامية بشغور الجديدة فاجتمع بها مع صديقه الحميم الباشا محمد الجراري فأمدده بجميع ما تحت يده من المكاتب الرسمية والظهائر المولوية المجتمعنة عنده من أسلافه الجراريين من جيش الودايا القائمين بأمر الدولة العلوية المتقلبين من مناصبها العالية.

قال رحمة الله فيما حكاها: إنه ظفر منه بأكياس مملوقة أوراقاً كلها أعاشه على تحرير أخبار الدولة الشريفة من التوقيعات السلطانية والتقريرات الوزيرية في جل القضايا المهمة.

ثم ثاقت نفسه للوقوف على ما لا بد منه من التواريخ الإفرنجية خصوصاً الدولتين اللتين كانتا محظتي شواطئ المغرب الأقصى وهما: البرتغالية والاسبانية.

فطلب من أحد القنصلين الأوروبيين الذين كانت له معهم معاملات رسمية وودادية جلب بعض التواريχ في هذا الموضوع فجلب له منها ما تيسر واتخذ لذلك ترجمانًا خاصًا من التراجمة الموظفين بإحدى السفارات الأوروبية فصار يترجم له تلك التواريχ ويقيّد منها ما دعت الحاجة إليه حتى استوعب ما أمكنه العثور عليه ثم اتّخذ كتابًا خاصًا لتدوين التاريخ المذكور فربته ووضع ترجمته وصار يملّيه على الكاتب إملاءً من غير تقدير - كما أخبر بذلك - إلا بعض المسائل المهمّلة التي تعرض أثناء التأليف حتى أتم إملاءه في مدة^(١) يسيرة وذلك بغير الجديدة في أواخر سنة ١٢٩٧هـ ١٨٨٠م.

ولما أتم تأليفه واطلع عليه السلطان المولى الحسن استحسن وكتب له ظهيرًا شريفيًا بالتنويه به وأهتم بطبعه ولم يتيسر ذلك في العين لما ذكرنا من تغدر المطابع.

ثم إن صاحب الترجمة لما عزم على طبعه على نفقته بمصر وصل الكلام فيه إلى آخر دولة مولاي الحسن وأول دولة مولاي عبد العزيز وذلك في متم ذي الحجة عام ١٣١١هـ ١٨٩٤م فتم طبعه في أواخر رمضان عام ١٣١٢هـ ١٨٩٥م على نسخة صحيحة بنفسه حيث إن نسخته الأصلية التي كان أملاها حفظت بالمكتبة السلطانية الخاصة بمكتبة الزيتون.

فهذا سبب تأليف تاريخ الاستقصا وكيفيته حسبما قرره المؤلف قيد حياته لأكبر أتجاهه.

ومن هذا يعلم أن المؤلف تجشم مشاق عظيمة في جمع هذا التأليف وتدوينه لأنه لم يتيسر له العثور على جميع التواريχ المؤلفة في المغرب فضلاً عن غيره لا سيما التواريχ الأوروبية لعدم معرفته بالألسن الأجنبية وكون

(١) ذكر المؤلف في آخر النصف الأول منه أنه شرع في إملائه متصرف رجب عام ١٢٩٧هـ وفرغ منه في متصرف ذي الحجة من السنة المذكورة، وعليه فتكون المدة التي استغرقها في إملاء النصف الأول خمسة أشهر فقط أهـ صفحة ١٥٥ من الجزء الثاني طبع مصر عام ١٣١٢.

التاليف الخطية جلها محرف مصحف ولا توجد مكاتب عمومية تعين على تحقيق ما يعرض من المسائل الدقيقة حسبما سبق بيان ذلك؛ فلمؤلف العذر فيما لم يمكنه تحريره من تاريخ البربر ودول المغرب قبل الإسلام وربما يظن بعض المؤلفين بعده ممن وقف على تأليفه هذا أنه قصر في سياق بعض الأخبار مع أنه نشر ما في كنانته وأتى بما في وسعه وطاقته وما لم يتعرض له أو ضرب عنه صفحًا إنما ذلك لمقصد سياسي خصوصاً فيما يرجع للأعصر المتأخرة، إذ لم يكن الوقت يساعد على ذكر كل شيء لا سيما والهيئة الاجتماعية التي ألف لها التاليف إذ ذاك ما زالت في حالة لا تقبل أكثر مما ذكر والإنسان ابن وقته وهو ملزم بمسايرة أبناء عصره.

ولو أتيح له الوقوف على بعض ما هو موجود الآن من التاليف والإحصاءات بغير لغته لكان بادر إلى ترجمته واستخراج فوائده ودرره لأنه كان معروفاً باسم الهمة متعطشاً لكل ما يمس بتاريخ هذه الأمة ومن أتى بالمستطاع فوق جهده لا يلام.

هذا وقد ترجم تاريخ الاستقصا إلى اللغة الفرنسية واشترك في ترجمته جماعة من المستشرقين، فقام بترجمة القسم الأول القنصل الفرنسي المسيو كروول^(١)، والقسم الثاني المسيو كولان^(٢) المستشرق الفرنسي، والقسم الثالث الأستاذ إسماعيل حامد الجزائري، والقسم الرابع أحد أنجال المؤلف المحررين لهذه الترجمة وهو الأستاذ محمد، والقسم الخامس المسيو فيمي^(٣) الفرنسي، وطبع الجميع في مجموعة «أرشيف مارو كان»^(٤). كما ترجمت منه قطع وترجم أخرى مختلفة في موضوعات شتى ترجع للسياسة والاجتماع المغربي إلى الأسيانية والبرتغالية والإيطالية والإنجليزية الخ. وبالجملة فهو عمدة المؤرخين ومورد المستشرقين وقد طبقت شهرته الخالقين ولم يظهر إلى حد الآن تاريخ مغربي يوازيه أو يغني عنه ويسد مسده فهو العمدة والمؤرخون عيال عليه.

(1) Graule.

(2) G. S. Colin.

(3) Fumey.

(4) Archives Marocaines.

وفاته:

لما انقطع صاحب الترجمة عن الأشغال المخزنية وتفرغ للكتابة والمطالعة والتاليف وتأديب أكبر أنجاليه وتزويده بالعلوم العربية التي خاض فيها ولا تستفاد من غيره إليه. لزم بيته فكان لا يخرج منه إلا لقاء درس أو أداء فريضة دينية فتسبب عن قلة حركته وتعب فكره بالسهر والمراجعة وحل عویص المشكلات ضعف في قواه البشرية. فبدأ له أن يخرج إلى مزرعته بالبادية قاصداً صلة الرحم مع أخيه الذي كان مقيناً هناك، وبعد ذلك يتوجه لزيارة ضريح الشيخ المولى عبد السلام بن مشيش بجبل العلم ويخرج على تطوان والعرائش ويتفقد أحبابه وأخواله المستوطنين هناك عسى أن يجد راحة مما ألم به من تعب الفكر وضعف القوى البشرية.

ولما أزمع على تنفيذ هذا العزم المهم فاجأه المرض فأظهر التجدد لمن كان يريد مرافقته في هذه الوجهة ثم أعرض عن ذلك ووجه معهم ولده الأكبر محمد العربي واستمر به المرض نحو نصف شهر، وكان يتزايد يوماً في يوماً ولم ينفع فيه علاج الأطباء الماهرين إلى أن توفاه الله في غيبة ولده المذكور طلوع فجر يوم الخميس السادس عشر من جمادى الأولى عام خمسة عشر وثلاثمائة وألف هجرية الموافق للثاني عشر من أكتوبر سنة سبع وستعين وثمانمائة وألف مسيحية.

واحتفل أهل العدويتين (الرباط وسلا) احتفالاً عظيماً بجنازته مع المحافظة على السنة طبق ما أوصى به ليلة وفاته ولم يختلف أحد عن مشهدها من كبير أو صغير. ودفن ضحوة اليوم المذكور بالمقبرة المعروفة بمقدمة باب المعلقة من سلا خارج الباب المعروف بهذا الاسم وقبره معروف مشهور هناك يقصد للزيارة، يبعد عن شاطئ البحر المحيط بنحو المائة وخمسين متراً. وبعد الفراغ من دفنه جاء الغيم والسحب من كل جانب، ثم أرسل الله الغيث فسقى قبره رحمة وأمناً، وتوالت الأمطار تنزل مكررة حتى تلطخت المباني وعصفت الرياح والزوابع وسقطت الحيطان وقلعت الأشجار

من أماكنها وعم ذلك المغرب كله وكان الحادث عظيماً أفزع الناس وأخبر الطاعنون في السن منهم أنهم لم يروا مثله فيما مضى واسترسل ذلك إلى الليل، وما زال الناس يورخون بيوم وفاته لما وقع فيه إلى الآن ويعتقدون اتصالاً بين وفاته وبين هذه الحوادث الجوية لما كان له من التعظيم والواقع في نفوسهم.

ورثاء جماعة من أهل عصره بالقصائد البدعة منهم تلميذه الفقيه المؤرخ محمد بن علي الدكالي السلاوي، وأديب سلا الفقيه الحاج الطيب عواد وغيرهما نظماً ونشرأ (رحمه الله). فاما قصيدة محمد بن علي الدكالي فمطلعها:

ما ذا يكف مدامعي وهيامي
وقد انکوى قلبي بنار حمامي؟
من كان مفترأ بأحلام الدنا
فكانه فيها من النیام
إلى أن قال:

أو ما نرى في كل حين ناعياً
يصمي النهي في الصحب والأعلام؟
ومصيبة في أنجم الإسلام
أعني أبو العباس، خير إمام
إلى أن قال:

في كل قطر عنه ذكر شائع
لكن هذا الدهر يطوي مثله
بينا أبو العباس ينشر فضله
إذ جاءه كأس الحمام كما أتى
كل الحوادث للفناء مصيرها
لا بد من يوم ترد ودائع
مد الحمام يديه نحو علاته
ما راعه هول الحمام وبطشه
لم يخل من ذكر الإله وحبه

ما زال يوصي بالمهم ويخشى
حتى قضى ذاك الهمام مهنتاً
بكت العيون مع القلوب لفقده
غيث أصحاب القبر منه رحمة
وجري بيوم الفقد أمر ما جرى
غضفت رياح الجو حتى زلزلت
واغبر وجه الأفق وانصب الحيا
خطب أقام قيامة وكسا السما
حجبت عن الأ بصار شمس نهارنا
أسفى على تلك المعارف بعده
أسفى على أخلاقه وصفائهاها
أسفى على فلك العويض ومن له
أسفى على علم الحديث وسيرة
أسفى على التفسير بعد غيابه
أسفى على آدابه وعلومنه
أسفى على علم الأوائل سامه
كان المشارك في جميع أصوله
وأعاد ميت العلم حيَا خالداً
من ذا يحقق بعده من أمر ذا
لهفي على تلك المواقف من يقم
لهفي على نصح العباد ووعظهم
يا دهر يمع ما شئت من رتب العلا
عجبأً لعصر صار يخفي مثله
إلى أن قال عند ختمها وهي طويلة:
أرخت عام وفاته فأتى بذا

من بدعة تبدو بذى الأيام
بالعفو، والغفران، والإنعام
حتى السماء بكت بدمع هامي
ويشارة ببلوغ كل مرام
في سالف الأعصار والأيام
راسى البناء ومعظم الأجسام
يحكى دماء الجرح والآلام
ثوب الحداد لفقد بحر طامي
لما اختفى بالرمى بدر تمام
من ذا يقوم بحفظها ويحمى؟
وسنائه الوقاد في الأظلام
بعد ابن ناصر ناصر الإسلام؟
ومناقب الأنصار والأعلام
من يحسن التحقيق في الإبهام؟
فقدت بفقد جلاله المتسامي
فأطاعه العاصي بلا إلزام
والمنتقى المعين كل مرام
بالنشر والتتأليف والاحكام
ما أشكلت معناه للأفهام؟
بقيمته فيها، وحسن كلام
ذهب الكفيل بكل ذا، والحاامي
إن الجدير بها رهين حمام
وبه سما أكرم بخير إمام

وأما قصيدة الأديب الحاج الطيب عواد فقد توجها بشر نصه:

ولكاتب سامحة الله يرثي شيخه إمام المعمقول والمنقول، وقبلة الأيمة
الجهابذة الفحول، من بكت لفقده الخضراء، وزلزلت الغراء، وانقضت
الشماريخ، وذيل بيوم موته التاريخ، العالم العلامة النحير، المخصوص
بكمال التحقيق وأساليب التحرير، صدر الصدور والمدارس وزينة المحافل
وال المجالس، المرقى بهمته لنيل المزايا والسلم، المبهم بالبراهين الساطعة لمن
بهرج بزخارف القول وتكلم، من ارتشف من ثدي الفصاحة والبلاغة ورضع،
وسجد له يراع البراعة في زوايا الطروس وخضع، الروض الهتون، وصاحب
الفلك المشحون، أبو الاستقصا، وراوية المغرب الأقصى، الحاوي من كل
فن الطارف والتالد، أبو الغباس أحمد بن أبي البقاء خالد الناصري، وذلك
بعد انتقاله للدار البقاء، بمدة مديدة، وسنين عديدة، مضت كالسنة، تناهز
الست عشرة سنة، واجهنا الله وإياه بوجوه السرور، الباسمة الثغور.

أهالي الطول بعد الطول ترثى
بما أكسبوه تعصيباً وارثا
لقد كانوا محل الروج منا
كما كانوا تلك الروح جنثا
ومذ أفلت شموسهم وغابت
نجمتهم، بقينا - حوت - يوثا
ولا كالجعفري الطول المكنى:
أبا العباس، من قد كان ليثا
مهيباً، بل هماماً، بل إماماً؛
ومن نشر العلوم بحسن قصد
يبحث على خصال الخير هنا
له فيها اليد الطولى جميعاً
ومن نساجه لا زال غضاً
ومن نفع العباد يرى حريضاً
يجد السير في طلب المعالى
لقد كانوا محل الروج منا
فمنه لا ترى عجزاً وريثا
إذا ما مثله في ذاتوانى
أبو عزم، وجد، وإنقاد
يبحث على خصال الخير جهراً
ويرشد لاتباع الخير جهراً
يود عمومه، ذكرأ وأثنى

إذا استفتى وإياده استبشا
 ترى يوماً له نقضاً ونكشا
 ممحا من رام إفساداً وعيشا
 وممالك وقته أو كان ليثا
 حوى شطر الفخار، وزاد ثلثا
 سقاها من سماء الفهم غيشا
 تطاوع من يشا نسلاً وحرثا
 ولست ترى لقول الحق حنثا
 فقد أمسى رداء المجد رثا
 أبي المولى بدار الحزن لبنا
 يصاحب روحه حشراً وبعثا
 إلى غير ذلك من القضايا والقطع الشعرية والثرية، تغمده الله بغفرانه
 وعامله برضوانه، ومهد له في الفردوس الأعلى من جنانه، وجزاه عما قام به
 من خدمة الدين والوطن بنشر العلم الصحيح والإرشاد إلى طريق الحق
 والمصدح به والذب عن السنة ورفع لوانها خير ما جزى به من آمن بالله ودعا
 إليه وعمل صلحاً وأولئك هم المفلحون.

تقديره:

لما كان المترجم له رحمه الله بالمنزلة التي بوأه الله إياها علماً وفضلاً
 وشهرة وذكاء ونبلاً فقد قصده الجم الغفير من علماء وطلبة وقته وتربدوا إلى
 بيته، ولازموه للأخذ عنه فانتفعوا به، واعترفوا بفضلة، وخصوصه بالثناء العاطر،
 والمدح الفاخر نظماً ونثراً، فمن ذلك ما ترجم له به أحد أعيان تلامذته العلامة
 المؤرخ أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي السلاوي في تاريخه المعونون:
 «بازهار البستان في أخبار العدولتين ومحاسن الأعيان»، ما نصه:

الشيخ العلامة المشارك الأستاذ الفاضل أبو العباس أحمد بن خالد
 الناصري الجعفري رحمه الله. من بيت جلاله ودين، وشرف نسب وحسب

راسخ العمد مكين، يتوارثون المجد طريفاً وتليداً، ويتوشحونه والدأ ووليداً، وهذا السيد في محاسنه أعموجية وحده، ولست أدرى بما أصف كماله ومجده؛ كان آية الله ذكاء ونبلاً، وتحصيلاً وفضلاً، وهمة ناكبت السهى، وتحقيقاً في المعارف بد فيه النهى، أتقن العلوم الآلية فكان فيها إماماً، وحرر المقادص من سواها فملك منها زماماً، فهو إنسان كامل، لم يحلم الدهر بمثله ولا يعثر له على نظير في قاس بشكله، وقدماً قيل: إن النفيس غريب حيثما كانا.

مشارك محصل، مضططلع منصف في علوم شتى، من ذوي المروءات والاحتفاظ بالرسوم الدينية والأخذ بالجذ والنهج الواضح، لا تأخذه في الله لومة لائم، آخر وقار لا تهزه العواصف، ورقة تسق في اللين العواطف، وله تحقيق بجزئيات العلوم وكليتها وأصنافها وأشتاتها، خالط المألوف منها والمتروك، واستصفى من قديمها لباباً ما خالطته الظنون والشكوك، ملأ ذكر أدابه المغارب والمشارق، وحلى ليات الدوليين بطنانات قصائده المسطورة في المهاجر. وله تأليف شتى في أكثر العلوم ما بين مطول مفيد، ومحتصر للمستفيد، ولسانه في المحاضرة والدرس كقلمه في التصنيف والإملاء، طوبل الرابع، رحب الذراع، طلق العنان، بالحججة والبيان، ملآن بالبرهان. عريض الفذلكة للوقوف على المقصود بإيمان فصيح التعبير ذلك اللسان بالحججة، عصامي النفس، صعب المقاد إلا في طريق الحق، فللين من كف عندراء محدرة، له اضطلاع تام بالأصلين وإحاطة كبرى بالعلوم اللسانية، وله في المنطق ملكرة عجيبة، وفي الفقه لا يجارى. أما علوم الأدب فهو ابن بجدتها الهمام، عارف بأحوال الزمان وذويه مشاور في دولة السلطان المقدس مولاي الحسن أمير المؤمنين الحفظ الله رضوانه، وأيام الوزير الكبير أبي العباس أحمد بن موسى بن أحمد رحمهم الله.

وبالجملة فهو الجامع لأنشئات المكرمات، والحاائز قصب السبق في سائر المعلومات، دروسه محاقن للتحقيق، وتأليفه رياض مونفة بالتحرير والتدقيق، وأشعاره السحر الحلال، أو الماء الزلال، وأخلاقه حسنة تأخذ بمجامع

القلوب رقة وظرفأً، ونزاهة ولطفاً، وفكاهة يستنزل بها الهم من صياصيها ويقود الشرود من نواصيها، مجالسه في المحاضرات نزه للأسماع والأرواح، ومسرات للقلوب والأشباح.

أحاديث لو صيفت لألهت بحسنتها عن الدر، أو شمت لأنفت عن المسك

وله مع هذه الحالة دلوب على المعارف وعكوف، أخبرني رحمة الله بمدينته فاس سنة ست وثلاثمائة وألف أنه أقام في مطالعة مقدمة تاريخ العبر لولي الدين ابن خلدون خمسة أعوام يفك معناها، ويتفهم مغزاها، حتى لاح له من حميتها يوح، وامتزجت علومها الجمة بفكرة فسرت في تاموره مسرى الروح. وكان يستظهر ديوان أبي الطيب المتنبي ويعجب بمحاسنه وخصوصاً بما فيه من الحماسة ويطرب لسماع إنشاده.

وكان علماء تلك الحضرة الفاسية يعرفون قدره و يجعلونه غاية الإجلال ويتعجبون من وجود ذلك الفرد على تلك الحال حائزأً لصفات الكمال، ولا بدع فإنه انفرد بالمعارف في وقته، وعز أن يلحق في نعنه. كانشيخ الحرمين الشريفينشيخ شيوخنا العلامة الصالح أحمد بن زين دحلان رحمة الله وجه للمغرب الأقصى على تاريخ جامع استوعب أخبار ملوك المغرب من لدن الفتح إلى عصرنا، فلم يلف على هذه الصفة إلا تأليف شيخنا صاحب الترجمة المعنون بالاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى فوجه للسيد دحلان منه نسخة فأكبر شأنها وطار بها سروراً وعجب من وجود مثل ذلك التاريخ العجيب في زمانه وأثنى عليه، ودعا لمؤلفه، حدثني بذلك الثقة عن حدته عن السيد دحلان المذكور.

وأعجب من ذلك ما حدثني بهشيخنا صاحب الترجمة رحمة الله بمدينته فاس أيضاً أنه لم يتكلف في جمعه لذلك التاريخ العجيب مشقة ولا أطالت فيه مدة، بل أملأ جله إملاء بالجديدة صانها الله لعما كان مستخدماً بها محرراً بدون تسويد ولا إعادة تحرير، ومثل ذلك غريب في صناعة التأليف عند من يعانيها ولكن مثلشيخنا المتسع العارضة الصحيح الأفكار السالم الذهن لا

يحتاج إلى تسويد أو إعادة تحرير، فتبارك الله أحسن الخالقين. وقد ألم بعض محاسن هذا الإمام الفاضل خاتمة الشعراء المجيدين بسلا حاطها الله أبو عبد الله محمد بن ناصر حركات رحمة الله حيث يقول في قصيدة الباية التي مدحه بها ومطلعها:

بأمسي أنسنتم وأبى برغم مكابر وأبى^(١)
وترجمة هذا الفاضل أوسع من أن يحاط بها وفي هذه الصيابة كفاية للعجلان، وبلغة تسد رمق اللهفان، وإن فمزاياه ومحاسنه وما جرياته تخص بديوان، انتهى.

ومرض صاحب الترجمة مرة مرضًا شديداً حتى خيف عليه منه ثم تداركه الله بالراحة والعافية ففرح بذلك أهله وذووه ورفقاوه وتلامذته، وهناء بالعافية تلميذه أبو عبد الله محمد بن علي المذكور بالقطعة الآتية:

حق الهناء وجاءت السراء والآياك قد غشت بها ورقاء من زهرة الحمراء والصفراء كالدر، لكن أرضه خضراء ضاءت بنور جبينها الأنجاء حبر العلوم، سرت بهذا الأنباء من وصفه التأليف، والإفتاء والذكر والتقييد والإملاء علمت جلاله قدره الزوراء أخلاقه، يحكى صفاتها الماء آثاره المحمودة الغراء ما عطرت من ذكره الأرجاء	وانزاح عنا الهم والأسواء وتوللت الأفراح في تنسيقها والروض فاح عبيره، وتناثرت ونشار طل في اختبار غصونه وبشير يمن مسفر عن غرة لما بدا وصف الشفأ لإمامنا علامة الدنيا، وفرد زمانه والدرس والنصح الذي عم الورى العالِم العلامة الطود الذي شيخي أبو العباس أحمد من صفت وتكمّلت أوصافه وتعددت دامست سعادته ودام شفاؤه
--	--

(١) سناتي بهذه القصيدة بتمامها في هذا الفصل.

وقد ذكره أيضاً أبو عبد الله ابن علي المذكور في تأليفه المسمى «إتحاف أشراف الملا، بعض أخبار الرباط وسلا» قال:

أحمد صدر الجلة الأكياس
وهو ابن خالد بن ناصر، العلم
الأوحد الفرد النزيه المحترم
وخبرة جلت. وجازت السهى
فهمامة دراكه مدقق
محاضر مخالفات الأكثار
عنه لكل عرفان نزوع
وللذي بعد الطبيعة نمى
أخادراية، وذا تدقيق
من المعارف جديداً فغدا
بجلها، ولخفها حريراً
وكثير الخير وطاب الخبر
ولا مقارب له يشاكله
على مقالنا، فراجع واستدل
والفقه والرسم وفي الأنساب
 مما ينيل الفيد، كالإمتناع
بما أفاده بوجه نافع
وأسهل الطرق ببرهان جليل
بغير ريان، ولا مجاري
فاظهر الدهري لهذا اختلالاً!
فإنما الكون كما قبل وصفاً
ومن يدير جمعها وفردها؟
 وإنما بقدرة تتصرف!
هو مدبر الخفاء والشهود!
فإنما الجهل محيط بستاك!

ومنهم الشيخ أبو العباس
 وهو ابن خالد بن ناصر، العلم
آخر أهل الفضل علمًاً ودهاً
مشارك محصل محقق
مؤرخ نسابة إخباري
محدث أخوه أصول وفروع
وشارك الأعلام في التعامل
وكان في الرياضي والمسيقى
واضطاعت أنفكاه لما بدا
مستشرفًا لهما وصار دريا
فعظم الفيد وجل الخطير
فلم يكن في عصره مماثله
وفي الذي ألف أعظم دليل
ألف في التاريخ والأدب
وغيرها من فائد الأوضاع
حاور منكراً وجود الصانع
وعاد للحق بأوضح دليل
وهو مسیر سفن البحار
بل وحدها تسافر استقلالاً
قال له الشيخ: كفاك فأعترف
سفينة ليست تسير وحدها!
قال: يقال قوة لا تعرف!
قال له الشيخ: بل، رب الوجود!
وما زعمتم قوة ليس كذلك!

فاعترف الدهري بأن الصانعا
والنرم التقبيل للسنان
وكان في الدرس فصيحاً ممتعا
وفي الخطابة تحالف قسا
وكان كشكولاً لكل فضل
وهو إمامي ومفيدي الأكبر
لazمت درسه لدى التفسير
وفي سواه لم أزل مرددا
سحت عليه سحب الرضوان
قضى بأرضة سلا حميدا
وفقدت بفقده المعارف
على ثراه عندما فرغنا
وأرسل الجو بريح عاصف!
وممن مدحه أيضاً أديب سلا في وقته أبو عبد الله محمد بن ناصر
حركات السلاوي قال:

بأمي أنتم وأبى
أخلائي وإن خنتم
محاسنكم وحاسدكم
سبت عقلي - ولا عجب -
أحبكم وكم حب
وسرا الحب في قلبي
نصبت لرفعكم أملبي
صلوا عبداً لكم أضحى

(١) أي عام خمسة عشر.

يحن إلى الذهاب إلى
 تقريره إليكم بالـ
 ومطلوبني لأن أحظى
 لعل الله يغفر لي
 وراجيكم وأمل لكم
 ألا يا أحمد المجلبي
 جمعت من المعالي كـ
 زها بك كل ديوان
 وقد عرفتك أنواعـ الـ
 وقد نشبتـ بهيـتكـ الـ
 وقد ألقـتـ أزمـتهاـ
 سـلاـ عـمـاـ ذـكـرـتـ سـلاـ
 بـهـ زـانـتـ مـحـاسـنـهاـ
 بـهـ تـاهـتـ عـلـىـ الأـمـصـاـ
 بـهـ اـفـخـرـتـ عـلـىـ الـأـحـبـاـ
 لقد فـاقـ الـورـىـ طـراـ
 ونـادـيهـ الـبـاهـيـ العـارـيـ
 تمـهـرـ فيـ العـلـاـ طـفـلاـ
 مـقـرـ الـعـلـمـ مـقـرـ بـهـ
 رـمـىـ أـغـرـاضـ معـنـاهـ
 فـلـمـ تـعبـ الذـيـ قـدـ حـيـاـ
 حـيـيـتـ بـنـصـرـةـ يـاـ يـاـ
 وـخـلـدـ فـضـلـكـ يـاـ خـاـ
 ظـفـرـتـ بـكـلـ مـخـشارـ
 وـحـسـبـكـ يـاـ أـبـاـ الـعـبـاـ
 بـنـفـسـكـ أـنتـ سـدـتـ فـلـمـ
 رـضـاـكـمـ لـاـ إـلـىـ الذـهـبـ
 خـصـصـ لـكـمـ لـمـ الـقـرـبـ
 مـنـ الرـضـوانـ بـالـأـربـ
 بـفـضـلـكـمـ وـيـلـطـفـ بـيـ
 وـاـيمـ اللهـ لـمـ يـخـبـ
 مـحـيـاهـ دـجـنـ الـكـرـبـ
 لـلـمـجـتمـعـ،ـ وـمـنـشـعـبـ
 مـنـ الـأشـعـارـ وـالـخـطـبـ
 عـلـومـ بـدـونـ مـاـ رـبـ
 مـعـانـيـ كـلـ مـنـتـشـبـ
 إـلـيـكـ تـقـولـ:ـ هـاـ سـلـبـيـ
 بـتـصـدـيقـيـ إـذـ تـجـبـ
 كـزـينـ الـلـحـظـ بـالـهـدـبـ
 رـتـسـحـبـ حـلـةـ الـعـجـبـ
 رـفـخـرـ الـأـفـقـ بـالـشـهـبـ
 بـحـسـنـ الـخـلـقـ وـالـأـدـبـ
 مـنـ الـأـفـحـاشـ وـالـصـخـبـ
 وـنـالـ فـخـرـ وـهـوـ صـبـيـ
 قـرـيرـ الـجـفـنـ بـالـكـتـبـ
 بـأـسـهـمـ فـهـمـهـ الصـيـبـ
 زـمـنـ شـيـمـ وـلـمـ تـعـبـ
 صـرـىـ عـلـىـ ذـوـيـ الـحـربـ
 لـدـيـ لـرـفـعـ مـكـتـبـ
 لـذـيـ أـمـلـ وـمـنـتـخـبـ
 سـمـاـ قـدـ نـلتـ مـنـ حـسـبـ
 تـقـلـ لـلـفـخـرـ:ـ كـانـ أـبـيـ

ويالعدل الرضي الـ
حرامي ذي الإنصاف والهذب
ومشكلة جلوت عنـ
غواصها دجى الريب
بتتحقق وتدقيقـ
وتوضيح وكشف خبيـ
مسيبة على السببـ
توقفها عليك كماـ
وكم علم حدائقهـ
بدون حجاك لم تطبـ
وأغراض لمعناهـ
فيما قاموس قد أريـ
على الأيام بالعجبـ
بلج العلم والأدبـ
فلا تنفك زخاراـ
لتبعت لي سميك منـ
بوبي أخرى طلبيـ

وقد مدحه أيضاً الشيخ العلامة القاضي الأديب الحاج أحمد سكيرج

بقصيدة التي قرض فيها تاريخ الاستقسا وهي :

عليك بتأليف يسمى بالاستقساـ
إذا رمت تاريخاً لمغربينا الأقصىـ
كتاب تجلت فيه صورة من مضىـ
لدى كل ذي عينين يفحصها فحصاـ
كتبت مراتيها بمرآته التيـ
صفت وانجل في القريب مع الأقصىـ
تجلت مرائتها بمرآته التيـ
لعن صار عنهم، مخبراً بالذى أحصىـ
كأنك إن تقرأه كنت معاصرأـ
لعن صار عنهم، مخبراً بالذى أحصىـ
فراجع إذا ما شئت كل مؤرخـ
ترى من الاستقسا ما فيه قد دخساـ
يعبر فيه بالحقائق كائفاـ
خفايا أمور قد مضت طبق مانصاـ
فراجعاً أوج الكمال قصورهـ
وقد شاد في أوج الكمال قصورهـ
خلفه تشهد بالذى قد شهدتهـ
لدى كل ذي عينين يفحصها فحصاـ
وكم من حسود رام ينكر فضلـ
ولكنه في الناس في ريقه غضاـ
فطالعه تشهد بالذى قد شهدتهـ
فكم شاهد يتلوه منه نفى الخرصـ
مؤلفه الحبر المبرز أحمدـ
محامده لم يفحصها الناس باستقساـ
وقد جد في تحريره في «جديدة»ـ
فجاءه جد في تحريره في «جديدة»ـ
فجاءه تأليفاً بأسلوبه سبيـ
فأكرم بهذا الناصري الجعفري الذيـ
أفاد وأعطاه مكارم لا تحصىـ
وطلعتها للمشتري تتبع الرقصـ
جنى زهر أفنان الفنون لطالبـ
فجازاه خيراً ربه في الذي بهـ

وبارك في أنسجاليه وأنالهم كمال الرضى فيما به عم أو خصا
وأثنى عليه أيضاً في القصيدة التي خطط بها أنسجاليه بقوله:
فأبوهم محبي مأثر من مضى
وهو المبجل أحمد ذو المنصب الـ
المتقن التأليف حقاً للعلو
فانظر للاستقصاء فهو به أثى
ولديه في الآداب والأنساب ما
ومن ترجم له في فهرسة أشيائمه وأثنى عليه الفقيه العلامة القاضي
عبد القادر المراكشي داراً، الدكالي أصلاً رحمة الله قال:

ومنهم علامة زمانه، ونادرة قطره وأعجوبة أوانه، العالم العلامة الحبر
الفهامة، رئيس العلوم وجبل التقوى، وشيخ من أئمدة وروى، أبو العباس
أحمد بن خالد الناصري، إذا شملتك أندية دروسه ترى حبراً بحراً، وعالماً
هو بجميع أوضاع العلوم أعلم وأدرى، يوضح من كلام الفحول كل ما
أشكل، ويحل من مغفلات المسائل ما تعاصى عن الأفهام وأعضل.

فلله من حبر يفيد جليسه بما يملأ الأوطاب زيداً ومن عسل
قرآننا عليه بمراکش في حدود سنة 1295 مقدمة تلخيص القزويني كلها
بمحضر السعد ومطالعة المطول والأطول، كان يجلس بعد صلاة العصر إلى
أن يتدارى الغروب، ومجالس من الصحيح وشمائل الترمذى بقصد الأخذ
ومذاكرات وتحقيقات وإفادات الخ.

هذا وقد أطبق أهل عصره ومن بعدهم على الثناء عليه، والشهادة له
بطول الباع وسعة الاطلاع، والاستقلال التام في الفكر والرأي والمجاهرة
بنصرة السنة والتحذير من البدع والصراحة في القول بالحق ولو كان مزاً، مع
الإخلاص في محبة وطنه المغرب الأقصى، والتفاني في سبيل الدفاع عن
كيانه الديني والسياسي والاقتصادي والاجتماعي والأدبي بقلمه ولسانه،
ومحضر النصح لذوي الأمر والرياسة في وقته وتحذيرهم مغبة التوانى

والتفريط والأخذ بالحبيطة وسلوك السياسة الناجعة في تدبير شؤون البلاد وتسيير دفة إداراتها في الخارج والداخل.

وقد ترجم له الجم الغفير من الكتاب والمولفين المسلمين والأوروبيين ونقلوا عنه واعتمدوه في أبحاثهم الاجتماعية والتاريخية والدينية بحيث لا تكاد تجد موسوعة أو فهرساً إلا وله فيه ذكر.

ولو تبعنا من كتب فيه من المسلمين والفرنسيين والاسبانيين والبرتغاليين والإنجليز وغيرهم لطال بنا الكلام فيما أصبح معلوماً عند أرباب الصحف والأفلام.

خاتمة:

لقد تحصل من سرد سيرة وأخبار حياة هذا الرجل المنقوله عما كتبه عن نفسه وما هو مقرر معروف من أحواله في عائلته وقومه وما يستخرج من مطالعه مجتمع مؤلفاته ونتف أفكاره أنه كان نسيج وحده، وفريد دهره، كأنما كان ينظر إلى المستقبل من وراء حجاب، ويكشف عن أحوال الدهر بتور أفكاره الصائبة النقاب، ولو نشأ في عصر غير الذي نشا فيه، وأمة أرقى من التي أوجده الله فيها لظهر منه العجب العجاب.

وهذا مع كونه لم يفارق هذه الأقطار المغاربية، ولم يطلع على لسان من الألسن الأجنبية، ومع ذلك فقد طرق مواضيع شتى في فنون مختلفة برهن فيها على كمال مقدرته وسعة مداركه في عصر لم يكن أحد من أبناء جلدته يهتم بشيء مما كان يرمي إليه أو يقدر قدر العلوم التي خاض فيها، أو تصدى إليها ويعرف أهمية المنازع الاجتماعية والأخلاقية التي كان يهتم بها فجزاه الله خيراً على ذلك. وقد بسطنا ترجمته في محل غير هذا وشرحنا جل هذه النقط التي أمعنا بها في هذه العجاله. وفي هذا القدر كفاية ومقنع.

18 ربيع الأول 1340

19 ديسمبر 1921

جعفر الناصري - محمد الناصري

كتاب

**الاستقصا
لأخبار دول المغرب الأقصى**

تأليف:

الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري

الجزء الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الملك المعبود^(١)، الرؤوف الرحيم الودود، المخرج للخلق من ظلمة العدم إلى نور الوجود، الفاتح عليهم بمعرفته، والتحقق بوحدانيته، كل باب مسدود، الدال لهم على باهر حكمته، وعظيم قدرته، بالمعنى المعقول والحسن المشهود، فلا يرتاب في أنه الواحد القدير، العليم الخير، إلا الكفور الكنود، خلق العباد وقدر آجالهم، وأحصى أنفاسهم وأعمالهم، وأوقفهم من شرعه على نهج سوي وحد محدود، فمن وقف عنده وأطاع، فقد فاز من ثمرة الإيجاد بالمقصود، ومن حاد عنه واستكبر، فقد أورد نفسه الردى وبثس الورد المورود، نحمده تعالى على ما أسبغ من النعم البيض وكسا من البرود، وأزاح من العلل ووقي من التوب السود، (ونشهد) أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نتبأ بها من الجنان السدر المخصوص،

(١) الحمد لله، يقول مؤلف هذا الكتاب أحمد الناصري عفا الله عنه. إنني ألتمن من يقف عليه من ساداتنا العلماء - وفرهم الله - أن ينظر فيه بعين الإنصاف حسب الإمكاني، بل ويعين الإغضباء عما لا يكاد يسلم منه إنسان، وأن يعاملنا فيه بمقتضى قول القائل:

ومن ذا الذي ترضى سنجاباه كلها كفى المرء نبلأ أن تعد معايبه

وقد قال الإمام مالك رضي الله عنه: كل كلام منه مقبول ومردود، إلا كلام صاحب هذا القبر عليه السلام. وإذا كان الشيخ خليل رضي الله عنه على علو قدره في العلم أو التحقيق، وطول باعه في التحرير والتدقيق يقول: وأسأل بلسان التضرع والخشوع وخطاب التذلل والخضوع أن ينظر بعين الرضا والصواب.. الخ فماذا عسى نقول نحن حالة الحشالة في هذا الزمان الذي انمحى فيه من العلم حقيقته ورسمه، ولم يبق منه إلا اسمه. اللهم استر عوراتنا، وامن رواعتنا، واغفر زلاتنا، وارحمنا بفضلك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين أمين. وكتب في أواسط رجب الفرد الحرام عام 1306.

والطلع المنضود، والظل الممدود، (ونشهد) أن سيدنا ونبينا ومولانا محمدًا عبده ورسوله أكرم مبعوث وأشرف مولود، صاحب المقام المحمود، واللواء المعقود، والحوض المورود، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين هم في محافل السلم بدور وفي جحافل الحرب أسود، ولهم في اتباعه ونصرته اليد البيضاء والباع الممدود، والدعاء لأمير المؤمنين مولانا الحسن ابن أمير المؤمنين مولانا محمد ابن أمير المؤمنين مولانا عبد الرحمن كوكب السعودية، ومنبع الكرم والجود، والمنير بطلعته الغراء، وإمامته البيضاء، الأغوار والنجود، لا زالت به ملة الإسلام بحول الله في صعود، تردي الكفر وتغليبي البغي وتذود، وتصول على الضلال وتسود، أمين (وبعد) فيقول مؤلفه أحمد بن خالد الناصري السلاوي عفا الله عنه: هذا - بعون الله - كتاب الاستقصا، لأخبار دول المغرب الأقصى، كتاب جمعته لنفسي، ولمن شاء الله من أبناء جنسى، ذكرت فيه دول هذا القطر المغربي من لدن الفتح الإسلامي إلى وقتنا هذا الذي هو آخر القرن الثالث عشر، سالكًا فيما أنقله من ذلك سبيل الاختصار، آتياً منه بما تسمى إليه النقوس من حوادث الأعصار، ملماً بما لا بد منه من وفيات بعض الأئمة المقتدى بهم في الدين، متبركاً أولاً بذكر رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين، منحرجاً من القول أصححها، ومن العبارات أفصحها، والله تعالى المسؤول، في بلوغ المسؤول، فمنه سبحانه المنة والطول، وبيده تعالى القوة والحول.

مقدمة في فضل علم التاريخ^(١)

اعلم أن علم التاريخ من أجل العلوم قدرأ، وأرفعها منزلة وذكرأ، وأنفعها عائدة وذخرا، وكفاه شرفاً أن الله تعالى شحن كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، من أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية، بما أفحى به أكابر أهل الكتاب، وأتى من ذلك بما لم يكن لهم في ظن ولا حساب، ثم لم يكتفى تعالى بذلك حتى امتن به على نبيه الكريم . وجعله من جملة ما أسداه إليه من الخير العميم ، فقال جل وعلا : «يَأَلَّقُ الْقَرْئَنْ قُصْلَعَتِكَ مِنْ أَنْبَابِهَا» [الأعراف: ١٠١]. وقال : «وَكَلَّا نَقْصُلْعَتِكَ مِنْ أَنْبَابِهِ الرَّسُولُ مَا تُثِيتُ بِهِ فَوَادِكَ» [هود: ١٢٠]. وقال : «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبَرٌ لِّأُولَئِكَ الْأَتْبَتِ» [يوسف: ١١١]. وقد كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحدث أصحابه بأخبار الأمم الذين قبلهم، ويحكي من ذلك ما يشرح به صدورهم ، ويقوى إيمانهم ، ويؤكد فضلهم ، وكتاب بدء الخلق من صحيح البخاري رحمه الله كفيل بهذا الشأن ، وآت من القدر المهم منه ما يبرد غلة العطشان . (قال بعضهم) : احتاج الله تعالى في القرآن على أهل الكتابين بالتاريخ فقال تعالى : «يَأَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تُحَاجُجُوكُنْ فِي إِنَّهُمْ وَمَا أُنزَلَتِ التَّوْرِيدُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِ وَقْدَرَةٍ أَفَلَا تَعْقِلُوكُنْ» [آل عمران: ٦٥]. (وحكى بدر الدين القرافي رحمه الله) إن الإمام الشافعي رضي الله عنه كان يقول ما معناه دأبت في قراءة علم التاريخ كذا وكذا سنة وما قرأت إلا لاستعين به على الفقه .

(١) قال مؤلفه عفا الله عنه الذي لابن حزم في صدر الجمهرة وكذا لابن عبد البر في صدر كتاب النسب: هو علم النسب لا علم التاريخ كما هنا، وأنكر ابن حزم أن يكون ذلك أعني أن علم النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر مرويأ عن رسول الله ﷺ، ورده ببرهانين فانتظره ولكن علم النسب وعلم التاريخ متلازمان . والله أعلم.

قلت: معنى كلام الشافعي هذا أن علم التاريخ لما كان مطلعاً على أحوال الأمم والأجيال ومفصحاً عن عوائد الملوك والأقيال ومبيناً من أعراف الناس وأزيائهم ونحلهم وأديانهم ما فيه عبرة لمن اعتبر وحكمة بالغة لمن تدبر وافتكر، كان مبيناً على الفقه ولا بد بذلك أن جل الأحكام الشرعية مبني على العرف وما كان مبيناً على العرف لا بد أن يطرد باطراوه وينعكس باتعكاسه، ولهذا ترى فتاوى الفقهاء تختلف باختلاف الأعصار والأقطار بل والأشخاص والأحوال، وهذا السبب بعينه هو السر في اختلاف شرائع الرسل عليهم الصلاة والسلام وتبانيها حتى جاء موسى بشرع وعيسى بآخر ومحمد بسوى ذلك صلى الله على جميعهم وسلم، تم فائدة التاريخ ليست محصورة فيما ذكرناه بل له فوائد أخرى جليلة لو قيل بعدم حصرها ما بعد، قال الجلال السيوطي رحمة الله: من فوائد التاريخ واقعة رئيس الرؤساء^(١) المشهورة مع اليهود ببغداد وحاصلها أنهم أظهروا رسماً قدি�ماً يتضمن أن رسول الله ﷺ أمر بإسقاط الجزية عن يهود خير وفيه شهادة جماعة من الصحابة منهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فرفع الرسم إلى رئيس الرؤساء وعظمت حيرة الناس في شأنه، ثم عرض على الحافظ أبي بكر الخطيب البغدادي^(٢) فتأمله وقال: هذا مزور. فقيل له: بم عرفته؟ قال: فيه شهادة معاوية وهو إنما أسلم عام الفتح سنة ثمان من الهجرة وخبير فتحت سنة سبع. وفيه شهادة سعد بن معاذ وهو مات يومبني قريطة وذلك قبل فتح خير. فسر الناس بذلك وزالت حيرتهم اهـ. قال العلامة القادري في الأزهار الندية: وفي حدود صدر هذه المائة - أعني المائة الحادية عشرة - ظهر نحو هذا الكتاب المزور بمعناه والرفع على خطوطه بتاريخ سبع وعشرين وسبعيناً

(١) وزير القائم بأمر الله العباسى علي بن الحسين المعروف بابن المسلمة.

(٢) أحمد بن علي بن ثابت المتوفى سنة 463 انظر ترجمته بطبقات السبكي وغيرها
صفحة 12 جزء 2.

بالموحدة ثم ظهر أيضاً بتاريخ ست وثمانمائة ثم تعدد ظهوره ماراً آخرها سنة اثنين وأربعين وألف مسمى فيه جماعة من شهرتهم بالدين والعلم قاطعة بالقول عليهم في ذلك - انظر بقية كلامه ..

قلت: وقد وقفت في بعض التفاصيد المظنون بها الصحة على كلام للأديب أبي عبد الله اليفرنى المعروف بالصغير في هذا المعنى، قال: جرى بمجلس شيخنا قاضي الجماعة فلان الفلانى^(١) ذكر علم التاريخ فقال: إن علم التاريخ يضر جهله، وتتفنع معرفته، لا كما قيل: إنه علم لا ينفع وجهالة لا تضر. قال: وانظر ما وقع في هذا الوقت في حدود عشر ومائة ألف: من أن نقرأ من يهود فاس الجديد امتنعوا من أداء الجزية وأخرجوا ظهيراً قد يضم منه أن النبي ﷺ عقد لموسى بن حبي بن أخطب أخي صفيه رضي الله عنها، ولأهل بيت صفيه الأمان: لا يطأ أرضهم جيش، ولا عليهم نزل، ولهم ربط العمام، فعلى من أحب الله ورسوله أن يؤمنهم. وكتب علي بن أبي طالب، وشهد عتيق بن أبي قحافة، وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان. وتاريخ شهادتهم في ذي القعدة سنة تسع من الهجرة. قال شيخنا: فظهر لي ولعلماء العصر، أن ذلك زور وافتراه، لا شك فيه ولا أمراء، لأن التاريخ بالهجرة إنما حدث زمن عمر، سنة سبع عشرة لأسباب

(١) هو العلامة أحمد بن ناجي، قال أبو العباس الحافى في فهرسته في حقه: ومنهم شيخنا القىقى العلامة سيدى أحمد بن محمد بن ناجي السجلماسي، تولى القضاء بسلا والرباط ونواحيهما، وبقي متولياً بهما نحو العشرين سنة ثم تولى القضاء بفاس ثم بمقناسة الريتون، حضرنا عليه في تفسير القرآن العظيم، وفي رسالة ابن أبي زيد، وذلك كلها بمحروسة سلا، وصحىخ البخاري وصحىخ مسلم بن الحجاج. وقرأت عليه شمائل الترمذى، وكان رحمة الله معظماً لجميع من ينتسب للطلب، وقوراً ذات تؤدة وهمة عالية، وكلمة نافية عند السلطان وغيره. توفي رحمة الله بمحروسة مكناسة يوم الجمعة ٢٤ من رجب عام ١١٢٢. ودفن داخل المدينة المذكورة بروضة السيدة عائشة العذوية اهـ.

افتضلت ذلك كما في ابن حجر، ولأن أهل التاريخ لم يذكروا لصفية أخاً اسمه موسى، وإنما المروي في الأحاديث أنه عليه الصلة والسلام قتل أباً صفيه وزوجها، وأن الظهير الذي استظهروا به نسخة من الأصل الذي فيه خطوط الصحابة، وقد أرخوا الاستنساخ من الأصل بستة ثلاثة وعشرين وسبعمائة، فقد تأخر خط الصحابة بزعمهم إلى المائة الثامنة وكيف يتوصل في المائة الثامنة إلى أن ذلك خط الصحابة؟ هذا خلاصة ما كتبه أهل فاس في إبطال الظهير. ولما رفع ذلك إلى السلطان المولى إسماعيل رحمة الله عاقب اليهود عقاباً شديداً أهـ.

وبالجملة: ففضيلة علم التاريخ شهيرة، وفائدة جليلة خطيرة، ومادحه محمود غير ملوم، والحديث بفضله حديث بمعلوم، والله در ابن الخطيب إذ يقول:

فيه لنفس العاقل اعتبار كيف أتى القوم وكيف صاروا فيثبت الحق بسمهم صائب ويترك الجهل لأهل الجهل	وبعد فال تاريخ والإخبار وفيه للمستبصر استبصر يجري على الحاضر حكم الغائب وينظر الدنيا بعين النبل وقال الآخر:
---	---

من لا يعي التاريخ في صدره أضاف أعماراً إلى عمره	ليس بإنسان ولا عاقل ومن روى أخبار من قد مضى
--	--

ذكر رسول الله ﷺ وخلفائه الأربعة رضي الله عنهم

أما رسول الله ﷺ فهو: أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعبه بن لوي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أدد بن أدد بن اليسع بن الهيميسع بن سلامان بن ثابت بن حمل بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ابن تارح وهو آزر بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام ابن لامك بن متولشخ بن حنوخ بن يرد بن مهلايل بن قينان بن أنوش بن شيت بن آدم عليهما السلام. فاما ما بين رسول الله ﷺ وبين عدنان فمتفق عليه عند علماء الإسلام؛ وأما ما بين عدنان وإسماعيل، فمختلف فيه اختلافاً كثيراً، ما بين سبعة آباء إلى نحو الأربعين^(١) والمختار ما ذكرناه تبعاً لأبي الفداء. وأما ما بين إسماعيل وآدم عليهما السلام فمتفق عليه عند أهل الكتاب وهي أسماء أعمجية يكثر تغييرها لصعوبة النطق بحروفها، والله أعلم.

قال ابن خلدون: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل، لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربیع الأول، لأربعين سنة من ملك كسرى أنسو شروان، وقيل لشمان وأربعين ولشمانمائة واثنتين وثمانين سنة لذی القرنین^(٢)، ومات أبوه عبد الله وأمه حامل به، وكفله جده عبد المطلب، واسترضع له امرأة من بني

(١) وقد عدها صاحب الأغاني أربعين آباء، وهو الأقرب إلى الصواب. إذ بين معد وإسماعيل نحو من ست عشرة مائة سنة على التحقيق، ويستحيل في العادة أن يكون في هذه المدة ثمانية آباء.

(٢) ولحدى وسبعين وخمسمائة سنة من ولادة المسيح عليه السلام.

سعد بن بكر، اسمها حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية، فكان عندها نحو أربع سنين، وشق صدره ﷺ وهو عندها في السنة الرابعة من مولده فخافت عليه وردهه إلى أمه، ثم ماتت أمه عقب ذلك، واستمر في كفالة جده عبد المطلب إلى أن توفي أيضاً لمرضه ثمان سنين من مولده ﷺ فأوصى به عبد المطلب إلى ابنه أبي طالب، فكفله أبو طالب أحس كفالة، وقام بشأنه أتم قيامه، ونشأ ﷺ نشأة طيبة، يحفظه ربه ويكلوه لما ي يريد به من كرامته، وبهيء له من نبوته ورسالته. وتزوج خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وشهد بناء الكعبة وهو ابن خمس وثلاثين سنة، ووضع الحجر الأسود بيده الشريفة في موضعه بعد أن تراضت قبائل قريش عليه، ثم آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة على رأسأربعين سنة من عمره ﷺ.

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: أول ما بدأ به رسول الله ﷺ من الرؤيا الصالحة. ولمسلم الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه، والتحنث التعبد الليلي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ويترزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الوحي وفي رواية حتى فجئه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ. فقال: «ما أنا بقاريء» قال: «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني قلت: ما أنا بقاريء، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد. ثم أرسلني فقال: ما أنا بقاريء، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: «اقرأ إني أرسلتك الذي حلّك ① حلّك الإنسان من على ② أقرأ ورثك ③ الأكم ④ الذي علّك بالقبر ⑤ علّك الإنسان ما ترتب ⑥» [العلق: ١-٥]، فرجع بها رسول الله ﷺ ترجم بوادره حتى دخل على خديجة فقال: «زملوني زملوني»، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، ثم قال لخديجة: «أبي خديجة مالي» وأخبرها الخبر، وقال «لقد خشيت على نفسي»، قالت له خديجة: كلا أبشر

فوالله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكتسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وهو ابن عم خديجة، وكان امرأً تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيئاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بخبر ما رأى فقال له ورقة: هذا التاموس الذي أنزل الله على موسى يا ليتني فيها جذعاً ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أو مخرجـي هـم؟» قال: نعم لم يأتـ رـجلـ قـطـ بمـثـلـ ماـ جـشـتـ بـهـ إـلاـ عـودـيـ، وإنـ يـدـرـكـنـيـ يـوـمـكـ أـنـصـرـكـ نـصـراـ مـؤـزـراـ، ثمـ لـمـ يـلـبـثـ وـرـقـةـ أـنـ تـوـفـيـ وـفـتـ الـوـحـيـ فـتـرـةـ حـتـىـ حـزـنـ النـبـيـ ﷺـ فـيـماـ بـلـغـنـاـ حـزـنـاـ غـداـ مـنـهـ مـرـارـاـ كـيـ يـتـرـدـيـ مـنـ رـؤـوسـ شـواـهـنـ الـجـبـالـ، فـكـلـمـاـ أـوـفـيـ بـذـرـوـةـ جـبـلـ لـكـيـ يـلـقـيـ نـفـسـهـ مـنـهـ تـبـدـيـ لـهـ جـبـرـيـلـ فـقـالـ: ياـ مـحـمـدـ إـنـكـ رـسـولـ اللهـ حـقـاـ، فـيـسـكـنـ لـذـلـكـ جـاـشـهـ وـتـقـرـ عـيـنـهـ فـيـرـجـعـ. فـإـذـ طـالـتـ عـلـيـهـ فـتـرـةـ الـوـحـيـ غـداـ لـمـثـلـ ذـلـكـ فـيـتـبـدـيـ لـهـ جـبـرـيـلـ فـيـقـولـ لـهـ مـثـلـ ذـلـكـ. ثـمـ نـزـلـ عـلـيـهـ بـعـدـ نـزـولـ الـوـحـيـ فـتـرـةـ الـوـحـيـ سـوـرـةـ الـمـدـثـرـ. قـالـ الـعـلـمـاءـ: كـانـ رـسـولـ اللهـ ﷺـ بـعـدـ نـزـولـ الـوـحـيـ عـلـيـهـ نـبـيـاـ فـقـطـ ثـلـاثـ سـنـينـ لـمـ يـؤـمـرـ فـيـهاـ بـإـنـذـارـ، ثـمـ أـتـاهـ جـبـرـيـلـ عـلـيـهـ السـلـامـ بـرـسـالـةـ مـنـ رـبـهـ عـزـ وـجـلـ، فـكـانـ فـيـمـاـ أـنـزـلـ عـلـيـهـ فـيـ ذـلـكـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبَيْنَ﴾ [الشعراء: 214].

روى محمد بن إسحاق بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ قال: «يا علي إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين فضقت بذلك ذرعاً وعرفت أنني متى أباديهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره، فصمت عليها حتى جاءني جبريل فقال يا محمد إن لا تفعل ما تؤمر بعذبك ربك، فاصنع لنا طعاماً واجعل لنا عليه رجال شاة وأملاً لنا حساً من لين ثم اجمع لي بني عبد المطلب حتى أبلغهم ما أمرت به» ففعلت

ما أمرني به ثم دعوتهم له وكانتوا يومئذ نحو أربعين رجلاً يزيدون رجالاً أو ينقصونه فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب، فلما اجتمعوا دعاني بالطعام الذي صنعت فجئت به فتناول رسول الله ﷺ جذبة من اللحم فشقها بأسنانه ثم ألقاها في نواحي الصحفة ثم قال: «كلوا باسم الله» فأكل القوم حتى ما لهم بشيء من حاجة، وایم الله إن كان الرجل الواحد ليأكل مثل ما قدمت لجميعهم، ثم قال «اسق القوم» فجئتهم بذلك العس فشربوا حتى رروا جميعاً، وایم الله إن كان الرجل الواحد ليشرب مثله، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم بدره أبو لهب فقال: سحركم أصحابكم، فتفرق القوم ولم يكلمهم رسول الله ﷺ: «فقال الغد يا علي إن هذا الرجل قد سبقني إلى ما سمعت من القول فتفرق القوم قبل أن أكلمهم فاعدد لنا من الطعام مثل ما صنعت ثم اجمعهم» ففعلت ثم جمعتهم ثم دعاني بالطعام فقربته ففعل كما فعل بالأمس فأكلوا وشربوا، ثم تكلم رسول الله ﷺ فقال: «يا بني عبد المطلب إني قد جئتكم بخيري الدنيا والآخرة وقد أمرني الله عز وجل أن أدعوكم إليه، فلأيكم يوازنني على أمري هذا ويكون أخي ووصيي وخليفي فيكم» فأحجم القوم عنها جميعاً، - وأنا أحدهم سنًا - فقلت يا رسول الله: أنا أكون وزيراً عليك، فأخذ برقبتي ثم قال: «هذا أخي ووصيي وخليفي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا». فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لعلي وتطيع.

وأخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: لما نزلت **﴿وَأَنِذْرْ عَشِيرَتَكُمْ الْأَقْرَبِينَ﴾** صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي» لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو؛ ف جاء أبو لهب وقريش فقال: «أرأيتمكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تزيد أن تغير عليكم أكتتم مصدقتي؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذباً، قال: «فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت **﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّتْ**

﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَا لَمْ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: 1 - 2]. ثم مضى رسول الله ﷺ على أمر ربه صابراً محتسباً فيما يناله من المحن وضروب الأذى معلناً بالذكير والإنذار، داعياً إلى الله آباء الليل وأطراف النهار، وأسلم معه جماعة من السابقين إلى الإسلام كخديجة وعلي وأبي بكر وزيد بن حارثة وعثمان وسائر العشرة سوى عمر بن الخطاب فإن إسلامه كان قد تأخر قليلاً، ونصبت قريش العداوة لرسول الله ﷺ وافتقرت كلمتهم عليه، وانحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب، وتعاهدت قريش على أن لا ينكحون ولا يبايعون ولا ينفعون بشيء. ونال أصحاب رسول الله ﷺ الذين آمنوا معه من الأذى فوق ما يوصف؛ وهاجر جماعة منهم إلى النجاشي بالحبشة فراراً بدينهم من الفتنة؛ وحدب على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب وقام دونه وذب عنه سفهاء قريش ومنعه منهم ما استطاع؛ وكانت خديجة رضي الله عنها توازره على أمره وتسليه وتهون عليه ما يلقاه من قومه فكان ﷺ يرتاب لذلك ويخف عليه بعض ما يجد. ثم توفي أبو طالب في شوال سنة عشر من النبوة، وتوفيت خديجة بعد ذلك بيسير؛ وكانت وفاتهما قبل الهجرة بثلاث سنين، فعظمت على رسول الله ﷺ المصيبة وتتابعت عليه المحن حتى كان يسمى ذلك العام عام الحزن. ونالت قريش منه ما لم تكن تطمع في نيله قبل ذلك، فكان رسول الله ﷺ في تلك الثلاث سنين إذا حضر الموسم خرج إلى قبائل العرب بمنى. وطاف عليهم قبيلة قبيلة، يدعوهם إلى الله تعالى ويعرض عليهم نفسه ويسألهم النصرة له والقيام معه حتى يبلغ رسالة ربه، فإن قريشاً قد عنت على الله وكذبت رسوله وردت عليه كرامته، ويقول فيما يقول: «يا بني فلان إني رسول الله إليكم يا مرركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد وأن تؤمنوا بي وتصدقوني».

ولقي ﷺ في هذه المدة من الشدائـد ما رفع الله به في عليين درجته، وأجزل به كرامته، وشرف منزلته؛ وحاز به في جوار الله تعالى أكرم نزل؛

وصار إمام أولى العزم من الرسل صلى الله على جميعهم وسلم . ولما أراد الله إظهار دينه وإعزاز نبيه خرج ﷺ في بعض المواسم يعرض نفسه على القبائل كما كان يصنع ، فيبينما هو عند العقبة بمنى إذ لقي ستة نفر من الخزرج من أهل مدينة يثرب ، وأهلها يومئذ قيلتان : الأوس والخزرج ، ويجمعهم أب واحد ، وهم من عرب اليمن والنفر الستة هم : أبو أمامة أسعد بن زرار ، وعوف بن الحارث وهو ابن عفرا ، ورافع بن مالك بن العجلان وقطبة بن عامر بن حديدة ، وعقبة بن عامر بن نابي ، وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « من أنتم؟ » قالوا : نفر من الخزرج ، قال : « أمن موالي يهود؟ » - وكانوا يحالرون قريظة والنضير - قالوا : نعم ، قال : « أفلأ تجلسون حتى أكلمكم » قالوا : بل ، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن . قال وما كان صنع الله لهم في الإسلام ، أن اليهود كانوا معهم ببلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم وهم أهل أوثان وشرك وكانت إذا كان بينهم شيء قالوا : إن نبينا الآن مبعوث قد أظل زمانه ستبنيه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله عز وجل ، قال بعضهم لبعض : يا قوم تعلموا والله إنه النبي الذي توعدكم به يهود ، فلا يسبقناكم إليه . فأجابوه وصدقوا وأسلموا معه وقالوا : إننا قد تركنا قومنا وبينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى الله أن يجمعهم بك ، وستقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك فإن يجمعهم الله عليك فلا أحد أعز منك ، ثم انصروا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم . فلما قدموا المدينة ذكروا لهم رسول الله ﷺ ، ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر لرسول الله ﷺ ، حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً منهم خمسة من الستة الذين ذكرناهم آنفاً - عدى جابر بن عبد الله فإنه لم يحضرها - وبسبعة من غيرهم وهم : معاذ بن الحارث أخو عوف بن الحارث المذكور ، وذكوان بن عبد القيس ، ويزيد بن ثعلبة البلوي ، وعبادة بن

المخرج

الصامت، والعباس بن عبادة بن نضلة، وهؤلاء العشرة من الخوارج . ومن الأوس: أبو الهيثم مالك بن التيهان، وعويم بن ساعدة، فللقوا رسول الله ﷺ بالعقبة فبايعوه بيعة النساء: أن لا يشركوا بالله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم إلى آخر الآية . فقال ﷺ: «فَإِنْ وَفَيْتُمْ فَلَكُمُ الْجَنَّةُ؛ وَإِنْ غَشَيْتُمْ شَيْئاً مِّنْ ذَلِكَ فَأَخْذُتُمْ بِهِدْنَاهُ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كُفَّارَةٌ لَّكُمْ، وَإِنْ سَرَّتْهُمْ كَمْ فَأَمْرَكُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِنْ شَاءَ عَذَّبْتُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرْتُ لَكُمْ» . قال: وذلك قبل أن تفرض الحرب . فلما انصرف القوم بعث معهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير بن هاشم بن مناف بن عبد الدار بن قصي، ومعه عمرو بن أم مكتوم الأعمى ليعلمهم القرآن وشرائع الإسلام، ويفقههم في الدين؛ فكان مصعب بالمدينة يسمى: المقرئ؛ وكان منزله على أسعد بن زراة فأسلم على يده كثير من الأوس والخزرج، منهم: أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ - سيدا الأوس - وسعد هذا هو الذي يقول فيه حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وَمَا اهْتَزَ عَرْشَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ هَالِكِ
سَمِعْنَا بِهِ إِلَّا لِسَعْدٍ: أَبِي عُمَرِ
وَلَمْ تَبْقِ دَارٌ مِّنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ مُسْلِمُونَ إِلَّا مَا كَانَ
مِنْ دَارٍ بْنَيْ أُمَيَّةَ بْنَ زَيْدَ وَخَطْمَةَ وَوَائِلَ، وَوَاقَفَ بَطْوَنُهُ مِنَ الْأَوْسِ وَكَانُوا فِي
عُوَالَىِ الْمَدِينَةِ، وَكَانَ فِيهِمْ أَبُو قَيْسَ بْنَ الْأَسْلَتِ الشَّاعِرِ سِيداً مَطَاعَأً فَوَقَفَ
بِهِمْ عَنِ الْإِسْلَامِ حَتَّىْ هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَىِ الْمَدِينَةِ . وَمَضَىْ بَدْرُ،
وَاحِدُ، وَالْخَنْدَقُ . فَأَسْلَمُوا كُلَّهُمْ، ثُمَّ إِنْ مَصْبَعَ بْنَ عَمِيرَ رَجَعَ إِلَىِ مَكَّةَ مِنْ
الْعَامِ الْمُقْبِلِ وَذَلِكَ سَنَةُ ثَلَاثَ عَشَرَةَ مِنَ الْمُبَعِثِ، وَخَرَجَ مَعَهُ مِنَ الْأَنْصَارِ
الَّذِينَ أَسْلَمُوا . ثَلَاثَةُ وَسِعْنَوْنَ رِجَالًاً وَأَمْرَاتَانِ؛ بَعْضُهُمْ مِّنَ الْأَوْسِ وَبَعْضُهُمْ
مِّنَ الْخَزْرَاجِ مَعَ حَجَاجَ قَوْمِهِمْ مِّنْ أَهْلِ الشَّرْكَ، فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَىِ مَكَّةَ، وَاعْدُوا
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَجْتَمِعُوا بِهِ لَيْلًا فِي أَوْسِطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ بِالْعَقْبَةِ مِنْ مِنْيَ،
وَجَاءُهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَعَهُ عَمِهِ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَلَّبِ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ عَلَىِ
دِينِ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَوَثَّنَ لَابْنِ أَخِيهِ فَقَالَ: يَا مَعْشِرَ الْخَزْرَاجِ إِنَّ مُحَمَّدًا

منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا وهو في عز ومنعة من قومه وبيلده، وأنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافقون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه فمن الآن فدعوه. فقالوا: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله وخذ لنفسك ولربك ما شئت، فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله عز وجل ورغم في الإسلام، ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم ونساءكم وأبناءكم»، قال: فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: والذي بعثك بالحق نبياً لمنعك مما نمنع منه أزرتنا فباعتنا يا رسول الله فتحن أهل الحرب وأهل الحلقة، ورثاهمما كابرًا عن كابر، فاعتراض القول - والبراء يكلم رسول الله ﷺ - أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الناس حبلاً يعني: عهوداً، وإنما قاطعوها فهل عسيت أن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنت مني وأنا منكم، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم»، وقال رسول الله ﷺ: «أخرجوا إلى منكم التي عشر تقريباً يكونون كفلاً على قومهم بما فيهم كفالة الحواريين ليعيسى ابن مريم، فآخر جوا له التي عشر تقريباً». وتسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

قال عاصم بن عمر بن قتادة: إن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبدة بن نضلة: يا معاشر الخزرج هل تدرؤن على ما تباعون هذا الرجل؟ إنكم تباعونه على حرب الأحمر والأسود، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلاً أسلتموه فمن الآن فهو والله خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون إنكم وافقون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإذا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفيينا؟ قال: «الجنة». قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فباعوه، وأول من

ضرب على يده البراء بن معرور ثم تابع القوم، ثم قال رسول الله ﷺ: «انفضوا إلى رحالكم». فقال: العباس بن عبادة بن نضلة: والذي بعثك بالحق لئن شئت لنميلن غداً على أهل مني بأسيافنا، فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم»، ثم انصرف القوم راجعين إلى المدينة، وأمر النبي ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة فخرجوا أرسلاً. وأقام رسول الله ﷺ بمكة يتضرر الإذن من ربه في الهجرة، وبقي معه أبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب إلى أن أذن الله لنبيه في الهجرة، فهاجر كما هو معلوم في كتب الحديث والسير. ولما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة أظهر الإسلام، وشرع الأحكام، وبين الحلال والحرام، ونزل عليه من القرآن السبع الطول سوى سورة الأنعام فإنها نزلت بمكة. ونزل عليه قوله تعالى: «أَذْنَ اللَّهِيْنِ يَفْتَلُوْنَ إِذْنَهُمْ ظَلِيمُوْنَ وَلَدَ اللَّهِ عَلَى تَعْرِيهِ لَقَدِيرُوْنَ الَّذِيْنَ أَخْرِجُوْنَ مِنْ بَيْرِهِمْ يَغْتَرِرُ حَقَّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوْا رَبُّنَا اللَّهُ» [الحج: 39 - 40] فكانت هذه أول آية نزلت بالإذن في القتال، فجاهد رسول الله ﷺ في الله حق جهاده، ونال من نصرة الدين وإعلاء كلمة الله غاية مراده، واثالت عليه وفود العرب من كل ناحية، ولبت دعوته من أماكنها الدانية والقادية وضرب الإسلام بجرانه في جزيرة العرب كلها، وأجمع على التمسك بدينه أهل عقدها وحلتها. قال القاضي عياض رحمة الله في كتاب الشفا: فتح على رسول الله ﷺ في حياته بلاد - الحجاز واليمن، وجميع جزيرة العرب وما دانى ذلك من الشام والعراق وجبى إليه من أخemasها وجزيتها وصدقاتها ما لا يجيء للملوك إلا بعضه، وهادته جماعة من ملوك الأقاليم، فما استأثر بشيء منه ولا أمسك منه درهماً بل صرفه مصارفه وأغنى به غيره، وقوى به المسلمين ﷺ ولما حصل المقصود من بعثته ﷺ، وأظهر دينه على الدين كله، أنزل الله تعالى عليه: «أَلَيْوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَنْتُمْ عَلَيْكُمْ يُمْكِنُ وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْأَيْمَانَ دِيْنًا» [المائدة: 3] قال المفسرون: نزلت هذه الآية يوم الجمعة بعد العصر يوم عرفة والنبي ﷺ واقف بعرفات على

نافته العضباء، فكادت عضد الناقة تندق، وبركت لثقل الوحي، وذلك في حجة الوداع سنة عشر من الهجرة. روي أنه لما نزلت هذه الآية بكى عمر، فقال له النبي ﷺ: «ما يبكيك يا عمر؟» فقال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا فإذا كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نفسي. قال: صدق، فكانت هذه الآية نعي رسول الله ﷺ، عاش بعدها إحدى وثمانين يوماً ومات ﷺ يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول، وقيل: لاثنتي عشرة ليلة. قال الخازن في تفسيره وهو الأصح: سنة إحدى عشرة من الهجرة^(١). فمجموع عمره ﷺ: ثلات وستون سنة على الصحيح.

أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: أنزل على رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين سنة فمكث ثلث عشرة سنة يوحى إليه ثم أمر بالهجرة فهاجر إلى المدينة فمكث بها عشر سنين، ثم توفي ﷺ وهو ابن ثلث وستين سنة. قال الشيخ محبي الدين التنوبي: ورد في عمره ﷺ ثلث روايات إحداها: أنه ﷺ توفي وهو ابن ستين سنة، الثانية: خمس وستون سنة، والثالثة: ثلث وستون سنة وهي أصحها وأشهرها أهـ. وفضل رسول الله ﷺ أشهر من أن يشرح وبين، فهو حجة الله في الأرض، وشهيده علىخلق، ومصطفاه من البشر، والمخصوص بمزية النبوة وأدم بين الماء والطين، والله در ابن الخطيب إذ يقول:

يا مصطفى من قبل نشأة آدم والكون لم تفتح له أغلاق
أيروم مخلوق ثناءك بعد ما أنتى على أخلاقك الخلاق؟

(١) الموافق لسنة 571 من الميلاد.

خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

هو أبو بكر - واسمه عبد الله - وقيل: عتيق - بن أبي قحافة - واسمه عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة بن كعب التيمي المعروف بالصديق، يجتمع مع رسول الله ﷺ في مرة بن كعب، ولبي الخلافة بعد رسول الله ﷺ ياجماع من الصحابة، ومن تأخر عنها أولاً رجع إليها ثانياً، إلا ما كان من سعد بن عبادة الأنصاري، فإنه توقف عن بيعته، وذلك أنه لما توفي رسول الله ﷺ اجتمع الأنصار في سقيفةبني ساعدة، وهما بمبایعة سعد بن عبادة سيد الخزرج، لأنهم كانوا يرون أنهم أحق بالأمر، لأنهم الذين آتوا ونصروا، وتبوأوا الدار والإيمان من قبل المهاجرين، ولما انتهى الخبر إلى أبي بكر وعمر أفزعهما ذلك، وياذرا إلى السقيفة ومعهما أبو عبيدة بن الجراح، فوجدوا الأنصار بها على ما بلغهم من العزم على بيعة سعد، فجاجهم أبو بكر رضي الله عنه وقال: نحن أولياء رسول الله ﷺ وعشيرته، وأحق الناس بالأمر بعده فتحن الأمراء وأتم الوزراء فقال العباب بن المتن: لا، والله لا نفعل مما أمير ومنكم أمير، وإن شئتم أعدناها جذعة، أنا جذيلها المحكك وعديقها المرجب، فقام بشير بن سعد الأنصاري فقال: ألا إن محمداً ﷺ من قريش، وإن قومه أحق وأولى بالأمر بعده، ونحن وإن كنا أولي فضل في الجهاد وسابقة في الدين، فما أردنا بذلك إلا رضي الله وطاعة نبيه، فلا نبتغي به من الدنيا عوضاً ولا نستطيل به على الناس، ثم أشار أبو بكر بأن بياعوا أحد الرجلين إما عمر بن الخطاب وإما أبو عبيدة بن الجراح فكرها ذلك وبايعاً أبو بكر، وسبقهما إليه بشير بن سعد، ثم تناجي الأوس فيما بينهم وكان فيهم أسيد بن حبيب أحد النقباء - فكرهوا إمارة الخزرج عليهم، ومالوا إلى بيعة أبي بكر فبايعوه، وأقبل الناس من كل جانب بياعون أبو بكر حتى كادوا يظلون سعد بن عبادة وهو مضطجع بينهم يوعك، فقال رجل من أصحابه: قتلتم سعد بن عبادة، فقال

عمر: قتله الله. فقال أبو بكر: مهلاً يا عمر، الرفق هنا أبلغ. ثم لحق سعد بالشام فلم يزل هناك حتى توفي أيام عمر رحم الله جميعهم. وكانت بيعة أبي بكر يوم الثلاثاء الثاني من وفاة رسول الله ﷺ قبل دفنه، ولما توفي رسول الله ﷺ ارتدت عامة العرب، لأن كلمة الإسلام لم تكن رسخت في قلوبهم على ما ينبغي، ومنع آخرون منهم الزكاة وقالوا: نصلى ولا نؤدي الزكاة ظناً منهم أن ذلك كان واجباً عليهم في حياة النبي ﷺ فقط، واضطرب أمر المسلمين عند وفاته ﷺ لقتلهم وكثرة عدوهم. قالت عائشة رضي الله عنها: لما توفي رسول الله ﷺ ارتدت العرب، ونجم النفاق، واشرأبت اليهودية والنصرانية ونزل بأبي بكر ما لو نزل بالجبار الرايسية لهاضها، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم. وقال أبو بكر بن عياش: سمعت أبي حصين^(١) يقول: ما ولد بعد النبيين أفضل من أبي بكر الصديق، لقد قام مقام نبي من الأنبياء في قتال أهل الردة.

وفي الصحيح: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما توفي رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر: يا أبي بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله؟» قال أبو بكر: والله لأقاتل من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عن نافع كانوا يؤذونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق.

وحكى ابن خلدون: أن أبي بكر رضي الله عنه لما عزم على قتال أهل الردة استخلف أسامة بن زيد بعد رجوعه من بعثة الذي كان بعثه رسول الله ﷺ فيه قبل وفاته، فبقي في المدينة حتى أسفته أبو بكر بعد

(١) عثمان بن عاصم الكوفي توفي سنة 128.

وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فخرج أبو بكر في جماعة من المسلمين إلى ذي حسى وإلى ذي القصة - موضعين قرب المدينة - ثم سار حتى نزل على أهل الربدة بالإبريق وبها عبس وذبيان وبنو بكر بن عبد مناة بن كنانة وثعلبة بن سعد وغيرهم - فقاتلهم أبو بكر وهزمهم ورجع إلى المدينة، ثم خرج إلى ذي القصة ثانيةً فعقد فيه أحد عشر لواء على أحد عشر جندًا لقتال أهل الردة، وأمر كل واحد باستئثار من يليه من المسلمين من كل قبيلة، وعقد للأمراء على تلك الأجناد: منهم خالد بن الوليد، وخالد بن سعيد بن العاص، وعمرو بن العاص وغيرهم، وكتب لهم عهودهم بمنص واحد: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لغلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام، وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله - سره وجهه - وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان، بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بدعاية الإسلام، فإن أجابوه أمسك عنهم وإن لم يحيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له، ثم ينبعهم بالذى عليهم والذي لهم، فإذا خذل ما عليهم ويعطى لهم الذي لهم، لا ينظرونهم ولا يردد المسلمين عن قتال عدوهم، فإن أجاب إلى أمر الله تعالى وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف. وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله، فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل كان الله حسيبه بعد فيما استسر به. ومن لم يجتب إلى داعية الله قوتل وقتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة، لا يقبل الله من أحد شيئاً مما أعطا إلا الإسلام، فمن أجابه وأقر به قبل منه وأعانه، ومن أبى قاتله، فإن أظهره الله عليه قتلهم فيه كل قتلة بالسلاح والنيران، ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه، ويمنع أصحابه العجلة والفساد. وأن لا يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم لثلا يكونوا عيوناً ولثلا يؤتى المسلمين من قبليهم. وأن يقتصد بال المسلمين ويرفق بهم في السير والمتنزل، ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض، ويستوصي بال المسلمين في حسن الصحبة ولين القول أهـ.

وكتب إلى كل من بعث إليه الجنود من المرتدين كتاباً واحداً أيضاً وجعله في نسخ متعددة بيد رسل تقدموا أمام الأمراء يأمرهم فيه بالتمسك بكلمة الإسلام وبنهائهم عن الارتداد ويحذرهم عاقبته وسوء أثره - تركنا ذكره اختصاراً - وكان أول ما بدأ به خالد بن الوليد رحمة الله من القتال: قتال طليحة بن خويلد الأسدى: أسد خزيمة؛ وكان كاهناً وادعى النبوة في حياة رسول الله ﷺ وتبعه أفاريق من قومهبني أسد ومن غيرهم؛ فوجه إليه رسول الله ﷺ ضرار بن الأزرور ليقاتلته؛ وبينما ضرار يريد مناجزته إذ ورد عليه الخبر بوفاة رسول الله ﷺ ففت ذلك في عضد ضرار وانكفاً راجعاً بمن معه من المسلمين إلى المدينة، وعظم أمر طليحة حينئذ، واستطار شره، وانضم إله غطفان وبعض طيء وأخلاقط من العرب على ماء من مياهبني أسد يقال له: بزاحة؛ فسار إليهم خالد رحمة الله فأوقع بهم وقعة شناء، فل بها جمعهم وقتل من قتل منهم ونجا طليحة إلى الشام برأس طمرة ولجام؛ وبقي هناك إلى أن أسلم وحسن إسلامه؛ وكانت له في قتال فارس والروم زمان الفتح اليد البيضاء؛ ثم تتبع خالد رحمة الله أهل الردة قبيلة قبيلة وجماً جمماً؛ فقتل وحرق ورصف بالحجارة ورمى من رؤوس العجائب وأبلغ في النكبة بكل وجه فخشعت نفوس المرتدين وخامر قلوبهم الرعب وقوم اعواججهم الطعن والضرب حتى راجعوا الإسلام كرهاً. وكان من أعظمهم شوكة وأشدتهم قوة بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب وكان موطنهم باليمامة وهي: بلاد واسعة ذات نخل وزرع على أربعة أيام من مكة. وكان مسيلمة هذا قد قدم على النبي ﷺ في وفدبني حنيفة فأسلم ثم ارتد وادعى النبوة استقلالاً ثم مشاركة مع النبي ﷺ. وشهد له بذلك الرجال بن عنفوة أحد أشرافبني حنيفة وكان قد هاجر إلى النبي ﷺ وأقام عنده وقرأ القرآن وتلقه في الدين - فلما ارتد مسيلمة بعثه النبي ﷺ معلماً لأهل اليمامة ومشغلاً عن مسيلمة فكان من أعظم الفتنة علىبني حنيفة فإنه شهد لمسيلمة بالنبوة واتبعه على شأنه وصار مؤذناً له يشهد له بالرسالة بعد رسول الله ﷺ فعظم شأنه

فيهم . وكان مسيلةمة ينتهي إليه رأيه وكان يأتي بأسجاع كثيرة يزعم أنها قرآن ينزل عليه ويأتي بمفارق من الشعيبة ويقول إنها معجزاته ، فتفعل على خلاف المقصود إهانة من الله له . فنهض خالد رحمة الله بعد الفراغ من طليحة وغيره من أهل الرادة إلى بنى حنيفة - وهم يومئذ كثير - يقال كانوا أربعين ألف مقاتل ولما سمعوا بدنو خالد منهم خرجوا وعسكروا في منتهى ريف اليمامة واستنفروا الناس فنفروا معهم ، وأقبل خالد وعلى مقدمته شرحبيل بن حسنة ؛ ونازل بنى حنيفة - وكان الرجال بن عنفوة على مقدمة مسيلةمة فالتفوا واقتتلوا واشتدت الحرب وانكشف المسلمون حتى دخل بنو حنيفة خباء خالد ثم تراجع المسلمون وكرروا على بنى حنيفة وقاتل ثابت بن قيس بن شماس حتى قتل ثم زيد بن الخطاب أخو عمر كذلك ثم أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ثم مولاه سالم ثم البراء أخو أنس بن مالك وكان تأخذة عند الحرب رعدة حتى يتفضض ويقعده عليه الرحال حتى يبول ثم يثور كالأسد فقاتل ذلك اليوم وفعل الأفعال واستحر القتل في المسلمين خصوصاً قراء القرآن وأهل السابقة .

قال ابن خلدون : قتل يوم اليمامة من الأنصار ما ينفي على الثلاثمائة وستين ومن المهاجرين مثلها ومن التابعين لهم مثلها أو يزيدون وفشت الجراحات فيما بقي ثم هزم الله العدو وألجمهم المسلمون إلى حديقة كانت هناك وفيها مسيلةمة ، فقال البراء بن مالك : القوني عليهم من أعلى الجدار فاقتضم وقاتلهم على باب الحديقة حتى دخل بعض المسلمين عليهم ، واقتضم الباقيون من أعلى الحيطان فقتل من بنى حنيفة يومئذ سبعة عشر ألف مقاتل . فسميت الحديقة حديقة الموت . وأما مسيلةمة فقتله وحشى بالحرابة التي قتل بها حمزة بن عبد المطلب يوم أحد وشاركه في قتله رجل من الأنصار ثم صالح خالد بنى حنيفة في خبر طويل . وهذه الواقعة من أعظم الوقعات التي كانت في زمن أبي بكر رضي الله عنه وهي كانت السبب الداعي إلى جمع القرآن في المصحف ، واستمر كذلك إلى أن جمعه عثمان بن عفان رضي الله عنه الجمجم الثاني في المصحف .

ففي الصحيح: عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أثاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن وإنني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن، وإنني أرى أن تأمر بجمع القرآن قال أبو بكر: قلت لعمر: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري ورأيت الذي رأى عمر. قال زيد بن ثابت - وعمر عنده جالس لا يتكلم - فقال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهكمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجتمعه فواهله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن؛ قلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال أبو بكر: هو والله خير. فلم أزل أراجعهم حتى شرح الله صدري للذى شرح له صدر أبي بكر وعمر. فقمت فتتبع القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعنف واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبية مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره: «لَفَدَ جَاهَ كُمْ رَسُولُكُمْ إِنَّ أَشْيَاصَكُمْ عَزِيزُ عَلَيْهِمَا مَا عَنِتُّمْ» [التوبية: 128]. حتى خاتمة براءة. فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر اهـ.

ولما فرغ خالد من أمر اليمامة بعث إليه أبو بكر في المحرم سنةاثنتي عشرة يأمره بالسير إلى العراق وذلك عندما أجمعت العرب على الإسلام واتفقوا على التمسك بكلمته وأخلصوا الطاعة لله ول الخليفة رسول الله ﷺ فسمت لأبي بكر رضي الله عنه همة في قتال فارس والروم أهل الدولتين العظيمتين في العالم يومئذ فتوجه خالد رحمه الله نحو فارس وكان عذاباً من عذاب الله أرسله على أهل الكفر والضلال وما مثله إلا قول المتنبي:

وما كان إلا النار في كل موضع يشير غباراً في مكان دخان

فتوجه خالد رحمه الله وفتح الحيرة وما وراءها من أعمال العراق وفتح الأبار وعين التمر وأوقع الواقع العظيمة بمسالح أهل فارس وجيوشهم. حتى أخافهم في بلادهم وهم بالاقتحام عليهم ومقاتلتهم في عقر دارهم وكتب إليهم بكتابين يتوعدهم ويتهذبهم ثم صرفة أبو بكر رضي الله عنه إلى الشام فشهد اليرموك مع جيوش المسلمين الذين كانوا هناك. ففي الأكتفاء عن عبد الله بن أبي أوفى الخزاعي - وكانت له صحبة - قال: لما أراد أبو بكر أن يجهز الجنود إلى الشام دعا عمر وعثمان وعلي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم فدخلوا عليه - وأنا فيهم - فقال: إن الله لا تختص نعمه ولا تبلغ جزاءها الأعمال فله الحمد كثيراً على ما اصطنع عندكم ثم جمع كلمتكم وأصلاح ذات بينكم وهداكם إلى الإسلام ونفي عنكم الشيطان فليس يطمع أن تشركوا بالله ولا أن تتخذوا إليها غيره فالعرب اليوم بنو أم وأب وقد رأيت أن تستفرهم إلى الروم بالشام فمن هلك منهم هلك شهيداً وما عند الله خير للأبرار ومن عاش منهم عاش مدافعاً عن الدين مستوجبًا على الله ثواب المجاهدين. هذا رأيي الذي رأيت فليشر عليّ أمره بمبلغ رأيه. فأجاب كل من الحاضرين باستصواب رأيه وتقوية عزمه. فجهز أبو بكر رضي الله عنه جيوشاً وأمر عليهم أمراء: كخالد بن سعيد بن العاص وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل والوليد بن عقبة ويزيد بن أبي سفيان وأمر أبا عبيدة بن الجراح على جميعهم وعيّن له حمص وأوصى كل واحد منهم بما تنبغي الوصية به فكان بسبب تلك الجموع وقعة اليرموك بين المسلمين والروم في رجب سنة ثلاثة عشرة من الهجرة بعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه ب نحو شهر، لأن وفاته رضي الله عنه كانت مساء ليلة الثلاثاء بين العشاءين لشمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاثة عشرة من الهجرة فكانت خلافته ستين وثلاثة أشهر وعشرين ليل وعمره ثلاثة وسبعين سنة رضي الله عنه ونفعنا به.

خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه

هو أول من دعي أمير المؤمنين - وكان أبو بكر قبله يدعى: خليفة رسول الله - وهو أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيل مصغراً بن عبد العزى بن رياح بكسر الراء وفتح المثناة التحتية بن عبد الله بن قرط بضم القاف ابن رزاح بفتح الراء بن عدي بن كعب بن لؤي - يجتمع مع رسول الله ﷺ في كعب بن لؤي - ولي الخلافة بعد أبي بكر رضي الله عنه بعهد منه إليه . قال ابن خلدون: لما احتضر أبو بكر عهد إلى عمر رضي الله عنهما بالأمر من بعده بعد أن شاور عليه طلحة وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم وأخبرهم بما يريده فيه ، فأنروا على رأيه فأشرف على الناس وقال: «إنني قد استخلفت عمر ولم آل لكم نصحاً فاسمعوا له وأطيعوا» ودعا عثمان فأمره فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله ﷺ عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالأخرة في الحال التي يؤمن فيها الكافر وينصب فيها الفاجر . إنني استعملت عليكم عمر بن الخطاب ولم أكلمكم خيراً فإن صبر وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه ، وإن جار وبدل فلا علم لي بالغريب ، والخير أردت ولكل أمرٍ ما اكتسب ﴿وَسَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلِبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: 227] . فكان أول ما أنفذه من الأمور عزل خالد بن الوليد عن إماراة الجيوش بالشام وتولية أبي عبيدة وجاء الخبر بذلك والمسلمون موافقون عدوهم باليرموك ، فكتم أبو عبيدة الأمر كله حتى انقضى أمر اليرموك . وكان فتح دمشق بعدها فحيثئذ أظهر أبو عبيدة إمارته وعزل خالد . فسمع خالد وأطاع - وقيل في هذا الخبر غير هذا مما هو مبسط في كتب الفتح - ثم إن عمر رضي الله عنه سدد عزمه وأرهف حده لغزو فارس والروم فتابع عليهم الجنود وعين لكل أمير عمله ، وعقد لأبي عبيدة بن مسعود الثقفي على جيش من المسلمين وبعثه نحو العراق فاستشهد أبو عبيدة بموضع يقال له: قس الناطف على الفرات فولى مكانه المثنى بن حارثة

الشيباني وكان بطلاً من الأبطال نظير خالد بن الوليد في يمن النقبية والجراءة على الأعداء، فأوقع بأهل فارس عدة وقعت منها وقعة البويب قتل فيها من الفرس مائة ألف أو يزيدون ثم إن عمر رضي الله عنه استأنف الجد لجهاد فارس وقال: والله لأضرن ملوك العجم بملوك العرب، فلم يدع رئيساً ولا ذا رأي ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رماهم به، فرماهم بوجوه الناس وكتب إلى المثنى يأمره أن يخرج بالمسلمين من بين العجم ويفرق بهم على المياه بعيالهم، وأن يدعو الفرسان وأهل النجدات من ربيعة ومصر ويحضرهم طوعاً وكرهاً.

ثم حج عمر سنة ثلاثة عشرة ورجع إلى المدينة فوافقه أداد العرب بها. فقد عليهم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وولاه حرب العراق وأوصاه وقال: «يا سعد بن أم سعد لا يغرنك من الله أن يقال: خال رسول الله ﷺ فإن الله لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته فالناس في دين الله سواء الله ربهم وهم عباده يتفضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله ﷺ يلزمك فالزمه وعليك بالصبر» ثم سرحة في أربعة آلاف من المسلمين والفرس أربعة أيام بلياليها وقتل فيها رستم زعيم الفرس وصاحب حربها واستلحمت جنوده وكان الفتح الذي لم يكن له في الإسلام نظير وذلك في المحرم سنة أربع عشرة - وقيل خمس عشرة - ثم كان بعدها فتح المدائن^(١) وجلواء وسائر بلاد العراق وغيرها من بلاد فارس الجبل وأرمينية وأذربيجان وسجستان وكرمان ومكران وخراسان وغير ذلك مما يطول ذكره وكذا استولى جيوش المسلمين الذين بالشام على بلاد الشام والجزيرة وأنطاكية

(١) المدائن يعني بها أقطيزيون وسيلانسيا على شاطئ نهر الدجلة جنوب بغداد ويعتبرها الآن هو المعروف بالمدائن. ولله الحمد أقطيزيون فارسي.

وغيرها من بلاد الروم ومصر والإسكندرية وبرقة وطرابلس الغرب وغير ذلك.

وفي سنة أربع عشرة: أمر عمر رضي الله عنه باختطاط البصرة والكوفة بعراقي العرب لما بلغه من وخامة البلاد وأن العرب قد تغيرت ألوانهم بالعراق فاذن لهم في اختطاط المصريين وأن لا يتتجاوزوا في بنائهم السنة. ويقال إن اختطاط الكوفة كان في سنة سبع عشرة.

وفي سنة خمس عشرة: وضع عمر الديوان وفرض العطاء للMuslimين ولم يكن قبل ذلك. وروى الزهري عن ابن المسيب: أن ذلك كان في المحرم سنة عشرين.

قال ابن خلدون: يقال وضع عمر الديوان لسبب مال أتى به أبو هريرة من البحرين فاستكثروه وتبعوا في قسمه فسموا إلى إحصاء الأموال وضبط العطاء والحقوق فأشار خالد بن الوليد بالديوان وقال: رأيت ملوك الشام يدونون فقبل منه عمر. وقيل: بل أشار عليه به الهرمزان لما رأه يبعث البعوث بغير ديوان فقال له: ومن يعلم بغيبة من يغيب منهم فإن من تخلف أخل بمكانه وإنما يضبط ذلك الكتاب فأثبت لهم ديواناً. فأمر عمر رضي الله عنه عقيل بن أبي طالب ومحزمه بن نوفل وجبيير بن مطعم - وكانوا من كتاب قريش - فكتبا ديوان العساكر الإسلامية مرتبًا على الأساباب مبتدأ فيه بقراية رسول الله ﷺ الأقرب فالأقرب بعد أن قال علي وعبد الرحمن بن عوف لعمر: أبدأ بنفسك فقال: لا بل بعد رسول الله ﷺ فبدأ بالعباس ثم بالأقرب فالأقرب من رسول الله ﷺ وفرض لأهل بدر خمسة آلاف خمسة آلاف وفرض لمن بعدهم إلى الحديبية أربعة آلاف أربعة آلاف ثم لمن بعدهم ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ثم ألفين وخمسمائة؛ ثم لأهل القادسية وأهل الشام ألفين ألفين، وفرض لمن بعد القادسية واليرموك ألفاً ألفاً ولو رادفهم خمسمائة ثم ثلاثة مائة ثم مائتين وخمسين ثم مائتين، وأعطى نساء النبي ﷺ لكل واحدة عشرة آلاف وفضل عائشة بألفين، وجعل النساء على مراتب: فألاهل بدر خمسمائة ثم أربعين مائة ثم ثلاثة مائة ثم مائتين، والصبيان مائة

والمساكين جريجين في الشهر . ولم يترك في بيت المال شيئاً . وسئل في ذلك فأبي وقال : هي فتنة لمن بعدي . ثم سأله رضي الله عنه الصحابة في قوته هو من بيت المال فأذنوا له ، وسألوه في الزبادة على لسان ابنته حفصة - متكتمين عنه - فغضب وامتنع .

وفي سنة ست عشرة : قدم جبلة بن الأبيهم ملك غسان على عمر رضي الله عنه في جماعة من أصحابه المسلمين ، فلقاء المسلمين ودخل في زي حسن وبين يديه جنائب مقادة وعلى أصحابه الديباج حتى تطاول النساء من خدورهن لرؤيته ؛ وأكرم عمر وفادته وأحسن نزله وأجله بأرفع رتب المهاجرين ، ثم خرج عمر للحج في هذه السنة فجح معه جبلة في بينما جبلة يطوف بالبيت إذا وطئه رجل من فزارة فضل إزاره فلطمه جبلة فهشم أنفه ، فأقبل الفزارى إلى عمر وشكاه ؛ فأحضره عمر وقال له : افتدى نفسك وإلا أمرته بططمك . فقال جبلة : كيف ذلك وأنا ملك وهو سوق ؟ فقال عمر : إن الإسلام جمعكما وسوى بين الملك والسوقة في الحد . فقال جبلة : كنت أظن أنني بالإسلام أعز مني في الجاهلية ! فقال عمر : دع عنك هذا . فقال جبلة : إني أنتصر ! فقال عمر : إن تنصرت ضربت عنقك ! فقال له : أنظرني ليلتي هذه ؛ فأنظره فلما جاء الليل سار جبلة بخيله ورجله إلى الشام ثم منها إلى القسطنطينية ، وتبعه خمسة وعشرون رجلاً من قومه فنتصروا عن آخرهم . وفرح هرقل به وأكرمه ثم ندم جبلة على فعلته تلك وقال :

تنصرت الأشراف من عار لطمة وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
تكتنفي فيها لجاج ونخوة وبعث لها العين الصحيحة بالعور
فيما ليت أمي لم تلدني وليتني رجعت إلى القول الذي قاله عمر
وابا ليتني أرعن المخاض يقفرا وكنت أسيراً في ربيعة أو مصر
وابا ليت لي بالشام أدنى معيشة أجالس قومي ذاهب السمع والبصر
لدين بما ذاتوا به من شريعة وقد يحبس العير الدجرون على الدبر
وكان قد مضى رسول عمر إلى هرقل وشاهد ما هو فيه جبلة من النعمة

فأرسل جبة بخمسمائة دينار إلى حسان بن ثابت وأمضها له عمر، فمدحه حسان بن ثابت بآيات منها:

إن ابن جفنة من بقية عشر
لم يغذهم آباؤهم باللؤم
لم ينسني بالشام إذ هو ربيها
كلا، ولا متنصرًا بالروم
يعطى الجزيل ولا يراه عنده
إلا ببعض عطية المذموم

وفي سنة سبع عشرة: جيء إلى عمر بالهرمزان ملك الأهواز أسيراً ومعه وفد فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس، فلما وصلوا به إلى المدينة ألبسوه كسوته من الدياج المذهب ووضعوا على رأسه تاجه - وهو مكلل بالياقوت - ليراه عمر وال المسلمين على هيئة التي يكون عليها في ملوكه: فطلبوه عمر فلم يجدوه فسألوا عنه فقيل: هو في المسجد. فأتوه فإذا هو نائم فجلسوا دونه فقال الهرمزان: أين هو عمر؟ قالوا: هو ذا. قال: فلما حرسه وحجا به؟ قالوا: ليس له حارس ولا حاجب! فنظر الهرمزان إلى عمر وقال: عدلت فأمنت فنمت، واستيقظ عمر لجلبة الناس فقال: الهرمزان؟ قالوا: نعم يا أمير المؤمنين. فقال: الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأشباءه؛ وأمر بذبح ما عليه فنزعوه وألبسوه ثوباً ضيقاً. فقال عمر: كيف رأيت عاقبة أمر الله فيك؟ فقال الهرمزان: لما خلى الله بيتنا وبينكم في الجاهلية غلبناكم ولما كان الله الآن معكم غلبتمونا.

وفي سنة ثمان عشرة: كانت مجاعة الرمادة وطاعون عمواس؛ وحلف عمر لا يذوق السمن واللبن حتى يحيى الناس واستسقى عمر بالعباس عم النبي ﷺ فسقوه. وهلك بالطاعون أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ويزيد ابن أبي سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وابنه عتبة في آخرين أمثالهم، وتفاني الناس بالشام وبالبصرة أيضاً؛ ولما فحش أمر الطاعون بالشام أجمع عمر المسير إليه ليقسم مواريث المسلمين ويتطوف على الشغور ففعل ورجع وكانت له خرجة أخرى قبل هذا لفتح بيت المقدس.

وفي سنة عشرين: فتح عمرو بن العاص مصر والإسكندرية وشهد الفتح

معه الزبير بن العوام وجماعة من كبار الصحابة.

وفي سنة اثنين وعشرين: سار عمرو بن العاص إلى برقة فصالحة أهلها على الجزية. ثم سار إلى طرابلس الغرب فحاصرها وفتحها عنوة.

وفي سنة ثلاثة وثلاثين وعشرين: كانت وفاة عمر رضي الله عنه على ما سيأتي. وفي الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ما زلنا أعزه منذ أسلم عمر. وعنده أيضاً قال: لما أسلم عمر كان الإسلام كالرجل المقابل لا يزداد إلا قوة ولما مات عمر كان الإسلام كالرجل المدبر لا يزداد إلا ضعفاً. وعند ابن أبي شيبة رضي الله عنه قال: كان إسلام عمر عزّاً وهجرته نصراً وإمارته رحمة. وفي الصحيح أيضاً عن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم: أن رسول الله ﷺ قال: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي عَلَى قَلْبِي وَعَلَيْهَا دَلْوٌ فَنَزَعَتْ مِنْهَا مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَخْذَهَا أَبْنَى أَبِي قَحَافَةَ فَنَزَعَ مِنْهَا ذُنُوبًا أَوْ ذُنُوبَيْنَ وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ ثُمَّ اسْتَحْالَتْ غَرِيَّاً فَأَخْذَهَا عَمَرٌ بْنُ الْخَطَّابِ فَلَمْ أَرْ عَبْرَيَاً مِنَ النَّاسِ يَنْزَعْ نَزْعَ عَمَرٍ». وفي رواية: فلم أر عبرياً من الناس يفرى فريه حتى ضرب الناس بعطن» قال التنووي رحمه الله: قالوا: هذا المثال مثال لما جرى للخلفيين من ظهور آثارهما الصالحة وانتفاع الناس بهما، وكل ذلك مأخوذ من النبي ﷺ لأنَّه صاحب الأمر فقام به أكمل قيام وقرر قواعد الدين ثم خلفه أبو بكر فقاتل أهل الردة وقطع دابرهم. ثم خلفه عمر فطالت مدة خلافته عشر سنين وزيادة، واتسع الإسلام في زمانه فشبه أمر المسلمين بقليل فيه الماء الذي فيه حياتهم وصلاحهم وأميرهم بالمستقى لهم منها وسعته هي قيامه بمصالحهم أهـ.

قلت: من تأمل أمر عمر رضي الله عنه علم أنه كان عجباً من العجب فإنه عمد إلى ثلاث دول هي أعظم دول العالم في ذلك الوقت: دولة الفرس ودولة الروم ودولة القبط فحاربهم في نفس واحد وفرق جيوشه عليهم مع قلة المسلمين إذ ذاك وشظف عيشهم فغلبهم على ممالكهم وأزال عزهم، وكسر كراسيمهم، وأمات نخوتهم! بحيث ضرب الجزية على رقبتهم طول أحقابهم!

فلم يطالبوا بعدها بثار ولا عادوا إلى جماح ونفار بل أعطوا القادة وأسلموا أنفسهم للصغار. ثم لم يكتف بذلك حتى أغزى خيل المسلمين أطراف المعمور من خراسان والترك وبلاد النوبة وبلاد البربر، ولعمري ما أمر الإسكندر الذي تضرب الأمم به المثل في الغلبة والتمكّن في الأرض إلا دون أمر عمر بكثير. فإن الإسكندر كان غازياً بجميع جيشه متولياً ذلك بنفسه! جواؤاً في الأرض غير مقيد ووجهته في حروبه وجهة واحدة كلما فرغ من مملكة انتقل إلى غيرها تاركاً للتي خلف ورائه غير ملتفت إليها، وكأنه كان لا عرض له إلا في إظهار القوة والبطش والغلبة على الأمم دون ما سوى ذلك من تصريف الممالك طوع الأمر والنهي. ولذا قال حمزة الأصبهاني في كتابه *تاریخ الأمم*: وما رواه الفصاص من إن الإسكندر بنى بأرض إیران عدة مدن منها أصبهان، ومرؤ، وهراء، وسمرقند، ف الحديث لا أصل له. لأن الرجل كان مخرياً لا عامراً له. فاما عمر رضي الله عنه فإنه لما استولت جيوشه على أكثر المعمور، صرف ممالكتها طوع أمره حتى جبي إليه خراجها، وثبتت استقامتها وزال اعوجاجها، أقوى ما كانوا شوكة وأشد قوة، وأكثر حامية، ولم يتم رحمه الله حتى انتهت خيله في جهة الشرق إلى نهر بلخ، وفي جهة الشمال إلى البيضاء على مائتي فرسخ من بلنجر، وفي جهة المغرب إلى تخوم الروم وبلاد برقة وطرابلس الغرب. كل ذلك في مدة يسيرة لم يجاوز معظمها الثلاث سنين، وهو مع ذلك في جوف بيته متعدد فيما بين منزله ومسجده، لم يستعمل لذلك كثير أسباب، ولا أجلب بنفسه بخيل ولا ركاب، إنما هو الرأي الميمون، والنصر المضمون، والأمر الجاري بين الكاف والنون، والوعد المنجز بقوله تعالى: ﴿يُظْهِرُ عَلَى الَّذِينَ كَثُلُوا وَلَوْ كَرَّةَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النوبة: 33] فاما وفاة عمر رضي الله عنه فروى ابن سعد بإسناد صحيح: أن عمر كان لا يأذن لمن احتلم من أولاد العجم في دخول المدينة، حتى كتب إليه المغيرة بن شعبة - وهو على الكوفة - فذكر له أن عنده غلاماً صنعاً، وهو يستأذنه أن يدخله المدينة، ويقول: إن له أعمالاً تتفع

الناس، إنه حداد، نقاش، نجار، فأذن له عمر، وضرب عليه مولاه كل شهر مائة فشكى إلى عمر شدة الخراج فقال له: ما خرا جك بكثير في جنب ما تعلم، فانصرف ساخطاً، فلما ث عمر ليالي فمر به العبد فقال عمر: ألم أحدث أنك تقول لو شئت لصنعت رحى تطحن بالرياح؟ فالتفت إليه عابساً فقال: لأصنعن لك رحى يتحدد الناس بها فأقبل عمر على من معه فقال: توعدني العبد، فلما ث ليالي ثم اشتمل على خنجر ذي رأسين نصا به في وسطه فكمن في زاوية من زوايا المسجد في الغلس، حتى خرج عمر يواظب الناس للصلوة - وكان عمر يفعل ذلك - فلما دنا عمر وثب عليه فطعنه ثلاث طعنات إحداهن تحت السرة قد خرقت الصفا وهي التي قتله.

وفي صحيح البخاري عن عمرو بن ميمون قال: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل أن يصاب بأيام بالمدينة وقف على حديفة بن اليمان وعثمان بن حنيف قال كيف فعلتما؟ - في أرض السواد - أتخافأن أن تكونا قد حملتما الأرض ما لا تطيق؟ - يعني من الخراج - قالا: حملناها أمراً هي له مطية ما فيها كبير فضل قال: انظروا أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيق؟ قالا: لا. فقال عمر: لشن سلمني الله تعالى لأدعن أرامل أهل العراق لا يحتاجن إلى رجل بعدي أبداً. قال: فما أنت عليه رابعة حتى أصيب. قال عمرو بن ميمون: إني لقائم ما بيني وبينه إلا عبد الله بن عباس غداة أصيب وكان إذا مر بين الصفين قال: استووا حتى إذا لم ير فيهن خلاً تقدم فكبّر، وربماقرأ سورة يوسف أو التحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول: قتلني أو أكلني الكلب حين طعنه أبو لؤلؤة واسمه فيروز فطار العلج بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد يميناً ولا شماليًّا إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً مات منهم سبعة. فلما رأى ذلك رجل من المسلمين واسمه خطاب التميمي اليزيوعي طرح عليه برنوساً فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه. وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدمه، فمن يلي عمر فقد رأى الذي أرى، وأما نواحي المسجد فإنهم لا

يدرون، غير أنهم قد فقدوا صوت عمر وهم يقولون سبحان الله سبحان الله، فصلى بهم عبد الرحمن بن عوف صلاة خفيفة. فلما انصرفا قال: يا ابن عباس انظر من قتلتني فجال ساعة ثم جاء فقال: غلام المغيرة قال: الصنع؟ قال: نعم. قال قاتله الله لقد أمرت به معروفا الحمد لله الذي لم يجعل ميتتي بيد رجل يدعى الإسلام قد كنت أنت وأبوبك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة - وكان العباس أكثرهم رقيقة - قال: إن شئت فعلنا: أي إن شئت قتلنا. قال: كذبت! بعدما تكلموا بسانكم: وصلوا إلى قبلتكم! وحجوا حجكم! فاحتمل إلى بيته فانطلقا معه وكان الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ. فقائل يقول: لا بأس، وقائل يقول: أخاف عليه فأتأتي بنبيذ فشربه فخرج من جرحه، ثم أتي بلبن فشربه فخرج من جرحه، فعلموا أنه ميت، فدخلنا عليه وجاء الناس يشترون عليه، وجاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين بشري الله لك بصحة رسول الله ﷺ، وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت ثم شهادة. قال: وددت أن ذلك كفاف لا علي ولا لي. فلما أذبر الشاب إذا إزاره يمس الأرض، قال ردوا علي الغلام، قال: يا ابن أخي ارفع ثوبك فإنه أنقى لثوبك! وأنقى لربك! يا عبد الله بن عمر، انظر ماذا علي من الدين، فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوه، قال: إن وفي له مال آل عمر فاده من أموالهم، وإن فاسأل فيبني عدي بن كعب، فإن لم تف أموالهم فاسأل في قريش ولا تعدهم إلى غيرهم، فأدعني هذا المال، انطلق إلى عائشة أم المؤمنين، فقل: يقرأ عليك عمر السلام - ولا تقل أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً - وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه، فسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي، فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريدك لنفسي ولأوثره به اليوم على نفسي. فلما أقبل قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء قال: ارفعوني فأسنده رجل إليه، فقال: ما لديك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين. أذنت. قال: الحمد لله! ما كان من شيء

أهم على من ذلك، فإذا أنا قضيت فاحملوني، ثم سلم فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لي فادخلوني، وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين وجاءت أم المؤمنين حفصة - والنساء تسير معها - فلما رأيناها قمنا، فولجت عليه فبكت عنده ساعة، واستأذن الرجال فولجت داخلاً لهم، فسمعنا بكاءها من الداخل، فقالوا أوص يا أمير المؤمنين: استخلف، قال: ما أجد أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أو الرهط الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، فسمى: علياً، وعثمان، والزبير، وطلحة؛ وسعداً؛ وعبد الرحمن وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء كهينة التعزية له فإن أصابت الإمارة سعداً فهو ذاك، وإلا فليست عن به أيكم ما أمر فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة، وقال: أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم، ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار الذين تبوعوا الدار والإيمان من قبلهم: أن يقبل من محسنهم، وأن يعفي عن مسيئهم؛ وأوصيه بالأنصار خيراً، فإنهم رداء الإسلام، وجباة المال، وغيظ العدو. وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم. وأوصيه بالأعراب خيراً، فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام أن يؤخذ من حواشى أموالهم وترد على فقرائهم. وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله: أن يوفى لهم بعدهم؛ وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفو إلا طاقتهم. فلما قبض خرجنا به فانطلقتنا نمشي فسلم عبد الله بن عمر وقال: يستأذن عمر بن الخطاب قالت: أدخلوه فأدخل فوضع هنالك مع صاحبيه؛ فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط؛ فقال عبد الرحمن: أجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم فقال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي، فقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان؛ وقال سعد: قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف؛ فقال عبد الرحمن: أيكمما يتبرأ من هذا الأمر ف يجعله إليه؛ والله عليه والإسلام لينظرن أفضليهم في نفسه فأسكت الشیخان! فقال عبد الرحمن: أفتحعلونه إلى والله على أن لا آلو عن: أفضلكم؟ قالا: نعم فأخذ يد أحدهما فقال: لك

من قرابة رسول الله ﷺ والقدم ما قد علمت، فالله عليك لئن أمرتك لتعذلن ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن، ثم خلا بالأخر فقال له مثل ذلك، فلما أخذ الميثاق قال: ارفع يدك يا عثمان، فبأيه وبأيه له علي وولج أهل الدار فبأيعوه اه.

وكانت وفاة عمر رضي الله عنه يوم السبت منسلخ ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، ودفن يوم الأحد هلال المحرم سنة أربع وعشرين، وكانت مدة خلافته عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام - كذا لأبي الفداء -. وفي حديث عائشة مما أخرجه أبو عمر بن عبد البر، ناحت الجن على عمر رضي الله عنه - قبل أن يموت بثلاث - فقالت:

له الأرض تهتز العصا بهأسوق	أبعد قتيل بالمدينة أظلمت
يد الله في ذاك الأديم الممزق	جزى الله خيراً من إمام وبارك
ليدرك ما قدمت بالأمس يسبق	فمن يسع أو يركب جناح نعامة
بوائق من أكمامها لم تفتق	قضيت أموراً ثم غادرت بعدها

خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه

هو أبو عمرو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي يجتمع مع رسول الله ﷺ في عبد مناف، ولي الخلافة بعد عمر رضي الله عنه باختيار أهل الشورى له وقد تقدم خبر ذلك مستوفى. ولما بُويع رقى المنبر وقام خطيباً فحمد الله وتشهد ثم ارتفع عليه فقال: إن أول كل أمر صعب وإن أعيش فستأنيكم الخطيب على وجهها إن شاء الله. ثم نزل. وأقر عمال عمر كلهم إلا ما كان من المغيرة بن شعبة أمير الكوفة فإنه عزله واستبدل به سعد بن أبي وقاص لوصية عمر بذلك، ثم بعد مدة نحو سنة عزل من عزل من عمال عمر واستبدل بهم آخرين كان فيهم من هو من قرابته، فعزل سعد بن أبي وقاص عن الكوفة وولى عليها الوليد بن عقبة، وكان أخا عثمان من أمه، وعزل عمرو بن العاص عن مصر وولى عليها

عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري، وكان أخاه من الرضاعة، ثم عزل بعد ذلك أباً موسى الأشعري عن البصرة، وولى عليها عبد الله بن عامر بن كريز، وهو ابن خاله، واستكتب مروان بن الحكم بن أبي العاص وهو ابن عميه، كل ذلك كان لمصلحة اقتضاها الحال، وضم حمص وقنسرين وفلسطين وغيرها من بلاد الشام إلى معاوية بن أبي سفيان: أمير دمشق ومصي رضي الله عنه على سنن عمر في الجهاد، وتجهيز الجيوش وتكليب الكتاب، حتى اتسعت خطة الإسلام اتساعاً أعظم منه في خلافة عمر رضي الله عنه، وكان لأول خلافة عثمان قد انتقض بعض الثغور والجهات، مثل الإسكندرية وبعض بلاد العجم وفارس ونحو ذلك، فتلاقاها بالغزو والبعث، حتى عادت إلى الطاعة، وأدت ما كانت تؤديه أيام عمر أو أكثر، وفتح عليه بلاد أرمينية، مثل نقليس، وقاليقلا؛ وخلط، والسيرجان، وعدة حصون. وانتهى الفتح إلى مدينة الباب - وكان ذلك على يد سليمان بن ربيعة البايلي سنة أربع وعشرين - وغزا معاوية صاحب الشام أيضاً بلاد الروم حتى بلغ عمورية، ووُجِدَ ما بين إنطاكية وطرطوس من حصون الروم حالياً، فجمع فيها العساكر حتى رجع وخربها وكذا استتم المسلمين في خلافة عثمان رضي الله عنه فتح مدن خراسان والجوزجان والطالقان وطخارستان وما وراء النهر إلى فرغانة في الشرق، وانتهى الفتح أيضاً إلى كابل وزابلستان وهي بلاد غزنة من ثغور الهند في الجنوب.

فتح إفريقيا

وفتح في خلافة عثمان رضي الله عنه إفريقيا - أيضاً - من بلاد المغرب، وكان من خبرها أنه لما كانت سنة ست وعشرين من الهجرة، عزل عثمان رضي الله عنه عمرو بن العاص رضي الله عنه عن خراج مصر، واستعمل مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح رضي الله عنه، فلما قدم ابن أبي سرح مصر كان على خراجها، وعمرو بن العاص على حربها، فكتب ابن أبي سرح إلى عثمان يشكوا عمراً فاستقدمه عثمان! واستقل ابن أبي سرح بالخارج وال الحرب معاً. ثم أمره عثمان بغزو إفريقيا بعد أن كان عمرو بن العاص استشار عمر رضي الله عنه في غزوها فمنعه من ذلك، وقال له: تلك المفرقة وليس بإفريقيا أو كلاماً هذا معناه. ولما^(١) أمر عثمان بن أبي سرح بغزوها قال له: إن فتح الله عليك ذلك خمس الخامس من الغنائم، ثم عقد عثمان عبد الله بن نافع بن عبد القيس على جند، ولعبد الله بن نافع بن العارث^(٢) على آخر وسرحهما، فخرجا إلى إفريقيا في عشرة آلاف، وصالحهم أهلها على مال يؤدونه، ولم يقدروا على التوغل فيها لكترة أهلها. ثم إن ابن أبي سرح استأذن عثمان في ذلك واستمده، فاستشار عثمان الصحابة رضي الله عنهم فأشاروا به، فجهز العساكر من المدينة وفيهم جماعة من الصحابة منهم ابن عباس وابن عمر وابن عمرو بن العاص وأبن جعفر والحسن والحسين رضي الله عنهم. وساروا مع ابن أبي سرح سنة ست وعشرين، ولقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة^(٣)، ثم ساروا إلى طرابلس، فنهبوا

(١) هذا كان في غزوة قبل هذه ستة خمس وعشرين. (مؤلف).

(٢) وفي رواية: الحصين، بدل العارث كما في الطبرى والاكتفاء وهو الأصح.

(٣) وكانوا بها منذ فتحوا زويلة في ولاية عمرو بن العاص على مصر زمان عمر رضي الله عنه.

الروم عندها ثم ساروا إلى إفريقيا، وبثوا السرايا في كل ناحية. وكان ملكهم جرجير يملك ما بين طرابلس وطنجة تحت ولاية هرقل، ويحمل إليه الخراج. فلما بلغ الخبر جمع مائة وعشرين ألفاً من العساكر ولقيهم على يوم وليلة من سبيطة: دار ملكهم، وأقاموا يقتتلون، ودعوه إلى الإسلام أو الجزية فاستكبر، ولحقهم عبد الله بن الزبير مددأً بعثه عثمان لما أبطأت أخبارهم، وسمع جرجير بوصول المدد فقتلت في عضده، وشهد ابن الزبير معهم القتال وقد غاب ابن أبي سرح، فسأل عنه فقيل: إنه سمع منادي جرجير يقول من قتل ابن أبي سرح فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتي فخاف وتأخر عن شهود القتال، فقال له ابن الزبير: تنادي أنت بأن من قتل جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده، فخاف جرجير أشد منه. ثم قال عبد الله بن الزبير لابن أبي سرح: الرأي أن تترك جماعة من أبطال المسلمين المشاهير متأهبين للحرب وتقاتل الروم بباقي العسكر إلى أن يضجروا فتركبهم بالأخرين على غرة لعل الله ينصرنا عليهم، ووافق على ذلك أعيان الصحابة، ففعلوا ذلك وركبوا من الغد إلى الزوال وألحوا عليهم حتى أتعيوبهم ثم افترقوا، وأركب عبد الله الفريق الذين كانوا مستريحين فكروا وحملوا حملة رجل واحد حتى غشوا الروم في خيامهم فانهزموا وقتل كثير منهم، وقتل ابن الزبير جرجير، وأخذت ابنته سبية فنفلها ابن أبي سرح ابن الزبير، ثم حاصر ابن أبي سرح سبيطة حتى فتحها. وكان سهم الفارس فيها ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألفاً، وبث جيوشه في البلاد إلى فقصة، فسبوا وغنموا، وبعث عسكراً إلى حصن الأجم - وقد اجتمع به أهل البلاد - فحاصره وفتحه على الأمان، ثم صالحه أهل إفريقيا على ألفي ألف وخمسين ألف دينار، وأرسل عبد الله بن أبي سرح عبد الله بن الزبير بخبر الفتح وبالخمس إلى عثمان رضي الله عنه، فاشترأه مروان بن الحكم بخمسين ألف دينار، ثم وضعها عنه عثمان وأعطى ابن أبي سرح خمس الخامس من الغزوة الأولى، ثم بعد تمام الصلح رجع عبد الله بن أبي سرح

إلى مصر بعد مقامه بإفريقيا سنة وثلاثة أشهر . ويقال: إنه لما فتح إفريقيا أمر عثمان رضي الله عنه عبد الله بن نافع^(١) أن يسير إلى جهة الأندلس فغزا تلك الجهة وعاد إلى إفريقيا فأقام بها والياً من قبل عثمان ورجع ابن أبي سرح إلى مصر والله أعلم .

وفي سنة ثمان وعشرين : استأذن معاوية عثمان في غزو البحر فأذن له ، وقد كان معاوية وهو بحمص أيام عمر رضي الله عنه كتب إليه في شأن جزيرة قبرص يقول: إن قرية من قرى حمص يسمع أهلها نباح كلاب قبرص وصياح ديوشكهم ، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص يقول: صف لي البحر وراكبه ! فكتب إليه عمرو يقول: هو خلق كبير يركبه خلق صغير ليس إلا السماء والماء ، إن ركد ألق القلوب وإن تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ، وراكبه دود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا فرق . فكتب عمر إلى معاوية: والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً وقد بلغني أن بحر الشام يشرف على أطول جبل بالأرض فيستأذن الله كل يوم وليلة في أن يغرق الأرض فكيف أحمل الجنود على هذا البحر الكافر؟ وبالله لمسلم واحد أحب إلى مما حوت الروم ، فإذاك أن تعرض لي في ذلك فقد علمت ما لقي العلاء مني . ثم لما كانت خلافة عثمان ألح معاوية عليه في غزو البحر فأجابه على خيار الناس وطوعهم فاختار الغزو جماعة من الصحابة؛ فيهم أبو ذر ، وأبو الدرداء ، وشداد بن أوس ، وعبادة بن الصامت وزوجه أم حرام بنت ملحان ، واستعمل عليهم عبد الله بن قيس حليفبني فزاروا إلى قبرص وجاء عبد الله بن أبي سرح من مصر فاجتمعوا عليها وصالحهم أهلها على سبعة آلاف دينار لكل سنة ويؤدون مثلها للروم ولا منعة لهم على المسلمين من أرادهم من سواهم ، وعلى أن يكونوا عيناً لل المسلمين على عدوهم ، ويكون طريق الغزو لل المسلمين عليهم . وكانت هذه

(١) هو ابن عبد القيس كما عند الطبرى .

الغزاة سنة ثمان وعشرين كما قدمنا - وقيل غير ذلك - وفيها توفيت أم حرام بنت ملحان سقطت عن دابتها حين خرجت من البحر وكان النبي ﷺ أخبرها بذلك وهو نائم عندها كما في الصحيح؛ وأقام عبد الله بن قيس على البحر فغزا خمسين غزوة لم ينكب فيها أحد إلى أن تزل في بعض الأيام في ساحل المرفا من أرض الروم فثاروا إليه فقتلوا ونجا الملاح، وكان استخلف سفيان بن عوف الأزدي على السفن فجاء إلى أهل المرفا وقاتلهم حتى قتل، وقتل معه جماعة من المسلمين.

وفي سنة ثلاثين: جمع عثمان القرآن الجامع الثاني في المصاحف وفيها هلك يزدجرد كسرى فازأً من جيوش المسلمين بمدينة مرو من خراسان وهو آخر الأكاسرة، ويموته انقرضت دولة آل ساسان. وكان من خبر جمع القرآن ما أخرجه البخاري عن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازى أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إليها بالصحف نسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا؛ حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق. قال ابن شهاب: وأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت أنه سمع أباه زيد بن ثابت قال فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري **﴿إِنَّ الْمُؤْمِنَينَ يَكُلُّونَ مَا**

عَنْهُدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴿الاحزاب: 23﴾ فألحقناها في سورتها في المصحف.

وفي سنة ثلاثة وثلاثين: تكلم جماعة من أهل الكوفة في عثمان بأنه ولى جماعة من أهل بيته لا يصلحون للولاية ونقموا عليه أموراً آخر لا حاجة بنا إلى ذكرها مع أنه كان فيها مجتهداً. وذلك أن عثمان رضي الله عنه كان فيه مزيد حباء ورأفة وبرور بأقاربه وكان عمر رضي الله عنه مرهوب الجانب عند الخاصة والعامة، له عين كالثة على الرعية بصيراً بما يأتون ويدرون. محدثاً في ذلك كما أخبر عنه رضي الله عنه; وكان من الحزم والضبط على ما وصفته به عائشة رضي الله عنها إذ قالت: رحم الله عمر كان أحوج به نسيج وحده قد أعد للأمور أقرانها فكان عثمان ألين جانبأً من عمر فتوسع الناس في زمانه في أمور الدنيا أكثر مما كانوا عليه في زمان عمر، واستعملوا النفيس من الملبس والمسكن والمطعم، واقتروا الضياع والآثار.

قال المسعودي في مروج الذهب: وفي أيام عثمان اقترب الصحابة الضياع والمال فكان له يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار، وألف ألف درهم، وقيمة ضياعه ببادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار، وخلف إيلاء وخيلاً كثيرة، ويبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلف ألف فرس، وألف أمة، وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم، ومن ناحية السراة أكثر من ذلك، وكان على مربيط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس، وله ألف بعير، وعشرة آلاف من الغنم، ويبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانون ألفاً، وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفؤوس، غير ما خلف من الأموال والضياع بمائة ألف دينار، وبيني الزبير داره بالبصرة، وكذلك بنى بمصر والإسكندرية والكوفة، وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبينها بالجص والأجر والساج. وبيني سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع سماكتها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات. وبيني المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن. وخلف يعلى بن منية خمسين ألف دينار وغير

ذلك مما قيمته ثلاثة ألاف درهم . اهـ كلام المسعودي فاستحالات الأحوال في زمان عثمان كما ترى ، ولما رأى ذلك بعض الناس من لم يكن له رسوخ في الفقه والدين ولا هو من أهل السابقة من فضلاء الصحابة وال المسلمين ، صاروا ينقمون على عثمان بأنه أهمل أمر الرعية وخالف سيرة العمررين مع ما أنضاف إلى ذلك من تولية أقاربه ، وحاشاه من ذلك رضي الله عنه فإن الرجل كان مجتهداً - وهو أهل للاجتهداد - وما تخيلوه من إهماله أمر الرعية حتى استحال أمرها إلى ما ذكر تخيل باطل ، إذ ليس ذلك في طوفه ولا بسيبه ، وإنما طبيعة العمران البشري تقتضي ذلك بسبب ما فتح على المسلمين من الأقاليم والممالك والأقطار والتواحي والأمسكار وترادف الجبابيات الفاقحة الحصر وانشال كنوز كسرى وقيصر وغيرهم من ملوك الأرض عليهم ، فإني يبقى الأمر على حاله مع هذا الفتح العجيب والنصر الغريب ، وقد قبل دوام الحال من المحال والناس ليسوا على قدم واحد في الرهد في الدنيا ، فالحق الذي لا عوج فيه ولا أمت أن عثمان رضي الله عنه كان على الحق حتى لقي ربه ، وما يعتدون به عليه من مخالفة الشيفيين رضي الله عنهمـ إن صحـ فمحله الاجتهداد كما قلنا ، ومعلوم أن أحكام الشرع تدور مع المصالح والمحاسد وتحتفل باختلاف الأزمان والأحوال كما لا يخفى على من له أدنى مسيس بالفقه .

قال ابن خلدون : اختلاف الصحابة والتابعين إنما يقع في الأمور الدينية ، وينشا عن الاجتهداد في الأدلة الصحيحة والمدارك المعتبرة والمجتهدون إذا اختلفوا ، فإن قلنا : إن الحق في المسائل الاجتهادية في واحد من الطرفين ومن لم يصادفه فهو مخطيء ، فإن جهته لا تتعين بإجماع فيبقى الكل على احتمال الإصابة ، والتأييم مدفوع عن الكل إجماعاً ، وإن قلنا إن الكل حق وإن كل مجتهد مصيب ، فأحرى بنفي الخطأ والتأييم . ثم استمر أولئك الناقمون على عثمان رضي الله عنه وتمادوا في طعنهم وتشغيبهم حتى تفاقم الأمر وشرى الداء ، وأعزوا الدواء ، واحتلط المرعى بالهمم .

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر
 وأخر الأمر أنه لما كانت سنة خمس وثلاثين قدم من مصر جمع قبل
 ألف، وقيل سبعمائة، وقدم من الكوفة جمع آخر ومن البصرة كذلك
 وحاصروا عثمان رضي الله عنه في داره، وكانت خطوب، وقطعوا عنه الماء
 واستمر الحصار نحو أربعين يوماً، ثم تصور عليه جماعة من أهل مصر داره
 فقتلوه وسال دمه على المصحف. يقال إن الذي تولى قتله كنانة بن بشر
 التجيبي؛ وطعنه عمرو بن الحمق طعنات وجاء عمير بن ضابيء البرجمي
 - وكان أبوه قد مات في سجن عثمان - فوثب عليه حتى كسر ضلعاً من
 أضلاعه. وكان قتله لثمان عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين
 وكانت مدة خلافته اثنى عشرة سنة إلا اثنى عشر يوماً، وقيل: إنه قتل
 صبيحة عيد الأضحى من السنة المذكورة وهو الذي عند ابن الخطيب في رقم
 الحلول؛ وابن بدرورون في شرح العبدونية؛ وبيؤيده قول حسان بن ثابت بريثيه:
 ضحروا بأشلط عنوان السجود به يقطع الليل تسبحاً وقرآنًا
 لتسمعن وشيكًا في ديارهم الله أكبر، يا شارات عثمانا
 وقول الفرزدق بعده:

عثمان إذ قتلوا وانتهكوا دمه صبيحة لليلة النحر
 رحمه الله تعالى ورضي عنه وفعنا به.

خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه

هو أبو الحسن علي بن أبي طالب - واسمه عبد مناف - بن عبد المطلب جد النبي ﷺ - واسمه شيبة - وفيه يجتمع مع النبي ﷺ، بويع بعد مقتل عثمان رضي الله عنه باتفاق من يعتبر أهل الحل والعقد بعد امتناعه من ذلك.

قال ابن خلدون: لما قتل عثمان اجتمع طلحة والزبير والمهاجرون والأنصار وأتوا علينا يبايعونه فأبى وقال: أكون وزيراً لكم خيراً من أن أكون أميراً، ومن اخترتم رضيته فالحوا عليه وقالوا: لا نعلم أحداً منك ولا نختار غيرك حتى غلبوه في ذلك فخرج إلى المسجد وبايده، وأول من بايده طلحة ثم الزبير بعد أن خيرهما، ويقال: إنهم ادعيا الإكراه بعد ذلك بأربعة أشهر وتختلف عن بيضة علي رضي الله عنه ناس من الصحابة وغيرهم فلم يبغضهم وقال: أولئك قوم قعدوا عن الحق ولم يقوموا مع الباطل! ولما ولت الخليفة رضي الله عنه أحبابي السنة وأمات البدعة وأوضحت منار الحق وأحمد نار الباطل ولم تأخذه في الله لومة لائم.

ولما دخلت سنة ست وثلاثين فرق عماله على النواحي فبعث إلى الكوفة عمارة بن شهاب وكان من المهاجرين وولي على البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري وعلى اليمن عبيد الله بن عباس - وكان من الأجواد - وعلى مصر قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري وكان من أهل الجود والشجاعة والرأي وعلى الشام سهل بن حنيف الأنصاري، فلما وصل سهل إلى تبوك لقيته خيل فقالوا من أنت؟ قال: أمير على الشام فقالوا: إن كان بعثك غير عثمان فارجع. فرجع إلى علي. ومضى قيس بن سعد إلى مصر فولىها واعتزلت عنه فرقة كانوا عثمانية وأبوا أن يدخلوا في طاعة علي حتى يقتل قتلة عثمان ومضى عثمان بن حنيف إلى البصرة فدخلها واتبعته فرقة وخالفته أخرى. ومضى عمارة بن شهاب إلى الكوفة فلقيه طلحة بن خوبيل الأسدي الذي

كان ادعى التبوة زمان الردة فقال له: إن أهل الكوفة لا يستبدلون بأميرهم أحداً - وكان عليها أبو موسى الأشعري من قبل عثمان رحمه الله تعالى - فرجع عمارة إلى علي ومضى عبيد الله بن عباس إلى اليمن فولوها وكان العامل بها من قبل عثمان يعلى بن منية، فأخذ ما كان بها من المال ولحق بمكة ومعه ستمائة بعير وصار مع عائشة رضي الله عنها وذلك أن عائشة كانت خرجت إلى مكة زمان حصار عثمان فقضت نسكها وانقلبت تريد المدينة فلقيها الخبر بمقتل عثمان فأعظمت ذلك ودعت إلى الطلب بدمه، ولحق بها طلحة والزبير وعبد الله بن عمر، وجماعة منبني أمية، واتفق رأيهم على المضي إلى البصرة للاستيلاء عليها. وكان عبد الله بن عمر قد قدم مكة من المدينة فدعوه إلى المسير معهم فأبى. وأعطي يعلى بن منية عائشة الجمل المسمى بعسكر وكان اشتراه بمائة دينار فركبته وساروا، فمروا في طريقهم بماء يقال له: الحواب فبحتهم كلابه فقالت عائشة: أي ماء هذا؟ فقيل ماء الحواب فصرخت بأعلى صوتها وقالت: إنا لله وإننا إليه راجعون، سمعت رسول الله ﷺ يقول وعنده نساؤه: ليت شعري أيتكن تبحثها كلاب الحواب، ثم ضربت عضد الجمل فأناخته وقالت: ردوني، أنا والله صاحبة ماء الحواب، وقامت بهم يوماً وليلة إلى أن قيل: النجاء فقد أدرككم علي بن أبي طالب، وغلبوا على رأيها فارتحلوا نحو البصرة فاستولوا عليها بعد قتال مع أميرها عثمان بن حنيف. ولما بلغ علياً رضي الله عنه مسيرة عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة سار نحوهم في أربعة آلاف من أهل المدينة فيهم أربعمائة من بايع تحت الشجرة وثمانمائة من الأنصار. وكانت رايته مع ابنه محمد بن الحنفية، وعلى ميمنته الحسن، وعلى ميسره الحسين، وعلى الخيل عمار بن ياسر، وعلى الرجال محمد بن أبي يكر الصديق وعلى مقدمته عبد الله بن العباس. وكان مسيره في ربيع الآخر سنة ست وثلاثين.

ولما وصل علي إلى ذي قار لقيه أمير البصرة عثمان بن حنيف، وأخبره الخبر. فقال علي: إن الناس ولهم قبل رجلان فعمل بالكتاب والسنة ثم

وليهم ثالث فقالوا في حقه وفعلوا ثم بايعوني وبايعني طلحة والزبير ثم نكثا. ومن العجب انقيادهما لأبي بكر وعمر وعثمان وخلافهما على ، والله إنهم ليعلمان إني لست بدون رجل ممن تقدم. ثم سار علي يوم البصرة فيمن معه من أهل المدينة وأهل الكوفة، وانضم إلى عائشة وطلحة والزبير جمع آخر. والتقوا بمكان يقال له : الخربة عند موضع قصر عبيد الله بن زياد يوم الخميس النصف من جمادى الآخرة من السنة المذكورة. ولما تراءى الجماعان خرج طلحة والزبير، وجاءهم علي حتى اختلفت أعناق دوابهم فقال علي : لقد أعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالاً إن كنتما أعددتما عند الله عذراً. ألم أكن أخاكما في دينكم تحرمان دمي وأحرم دمكم. فهل من حدث أحل لكم دمي؟ قال طلحة : ألبت على عثمان. قال علي : ﴿يُوَمَّيْدَرْ يُوقَهِمْ اللَّهُ وَيَهُمْ الْحَقُّ﴾ [النور: ٢٥]. فلعن الله قتلة عثمان. يا طلحة أما بايعتنى؟ قال والسيف على عنقي. ثم قال الزبير : أتذكرة يوم قال لك رسول الله ﷺ : ﴿لَتَقْاتِلَنِي أَنْتَ وَأَنْتَ لَهُ ظَالِمٌ﴾ قال : اللهم نعم ولو ذكرت ذلك قبل مسيري ما سرت ووالله لا أقاتلنك أبداً. وافترقا. وكان علي رضي الله عنه قد بعث إليهم قبل اللقاء القعقاع بن عمرو التميمي وأمره أن يشير بالصلح ما استطاع. فقدم القعقاع على عائشة أولاً وقال : أي أماه ما أشخاصك؟ قالت : أريد الإصلاح بين الناس قال : فابعثي إلى طلحة والزبير فاسمعي مني ومنهما فبعثت إليهما فجاءا فقال لهما القعقاع إني سألت أم المؤمنين ما أقدمها فقالت الإصلاح فقال طلحة والزبير كذلك هو. قال القعقاع : فأخبراني ما هو؟ قالا : قتلة عثمان فإن تركهم ترك للقرآن. قال : فقد قتلتم منهم عدداً من أهل البصرة - يعني حين قتلوا أميراً لها عثمان بن حنيف - قال : وغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وطلبتكم حرقوص بن زهير فمنعه ستة آلاف. فإن قاتلتم هؤلاء كلهم اجتمع ربيعة ومضر على حربكم فأين الإصلاح؟ قالت عائشة : فماذا تقول أنت؟ قال : هذا الأمر دواوه التسكين، فإذا سكن الأمر اختلفوا: أي أخذوا على غرة. فقالوا قد أصبحت وأحسنت! فارجع إلى عليٍّ فإن كان على مثل رأيك

صلح الأمر فرجع القعقاع إلى علي فأعجبه وأشرف القوم على الصلح. وعلم بذلك جماعة من كان سعي في قتل عثمان أو رضي به. فقالوا: إن يصطلح هؤلاء فعلى دمائنا يصطلحون، ثم تعاقدوا على أنهم إذا التقوا بجيش عائشة وطلحة والزبير أنشبوا القتال حتى يستغل الناس عما عزمو عليه من الصلح، فكان كذلك، فإنه لما كانت صبيحة الليلة التي اجتمع فيها علي بطلحة والزبير غلس أولئك المتعاهدون على إنشاب الحرب - وما يشعر بهم أحد - وصمدت منهم مضر إلى مصر وربيعة إلى ربيعة واليمن إلى اليمن فرضعوا فيهم السلاح على حين غفلة فثار الناس وتساقوا إلى خيولهم وزحف البعض إلى البعض واشتبت الحرب، فكانت الوقعة العظمى المعروفة بوقعة الجمل يوم الخميس لعشر بقين من الشهر المذكور أعني جمادى الأخيرة سنة ست وثلاثين، وقتل طلحة في المعركة، والزبير وهو راجع إلى المدينة، وعقر الجمل الذي كانت عليه عائشة. وأمر علي رضي الله عنه بنقل هودجها إلى دار عبد الله بن خلف الخزاعي، ونادي منادي علي يوم الجمل وكذا يوم صفين الآتي: أن لا يتبعوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تدخلوا الدور. ثم صلى على القتلى من الجانبين، وأمر بالأطراف فدفنت في قبر عظيم، وجمع ما كان في العسكر من الأثاث وبعث به إلى مسجد البصرة وقال: من عرف شيئاً فليأخذه إلا سلاحاً عليه ميسن السلطان. وأحصى القتلى من الجانبين فكانوا عشرة آلاف - منهم من ضبة ألف رجل - وبلغ علينا أن بعض الغوغاء عرض لعائشة رضي الله عنها بالقول السيء فأحضر البعض منهم وأوجعهم ضرباً، ثم جهزها إلى المدينة بما احتاجت إليه وبعث معها أخاهما محمد بن أبي بكر في أربعين امرأة من نساء البصرة اختارهن لمراقبتها، وجاء يوم ارتحالها فودعها واستعتبر لها واستعنت له ومشى معها أمياً وشييعها بنوه مسافة يوم. وذلك غرة رجب. فذهبت إلى مكة وأقامت بها حتى حجت تلك السنة ثم رجعت إلى المدينة. واستعمل علي رضي الله عنه على البصرة عبد الله بن عباس وسار إلى الكوفة فنزل بها وانتظم له الأمر بالعراق ومصر

واليمن والحرمين وفارس وخراسان ولم يبق خارجاً عن طاعته إلا أهل الشام وأميرهم معاوية بن أبي سفيان، فبعث إليه علي رضي الله عنه جرير بن عبد الله البجلي يأمره بالدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار، فلما قدم جرير على معاوية ماطله حتى قدم عليه عمرو بن العاص من فلسطين فاستشاره فأشار عليه بترك البيعة والطلب بدم عثمان وأن يقاتل معه على أنه إذا ظفر ولاه مصر: فأجابه معاوية إلى ذلك. ورجع جرير إلى علي رضي الله عنه بالخبر. فسار علي من الكوفة قاصداً معاوية ومن معه بالشام، وقدم عليه عبد الله بن عباس ومن معه من أهل البصرة فقال علي رضي الله عنه:

لأصبحن العاص وابن العاص سبعين ألفاً عاقدى النواصي
 مجنبين الخيل بالقلاص مستحقين حلق الدلاص
 وسار معاوية ومعه عمرو بن العاص وأهل الشام من دمشق ي يريد عليناً
 وتأنى معاوية في مسيره.

حرب صفين

وخرجت سنة ست وثلاثين ودخلت سنة سبع بعدها فاجتمع الجيشان بصفين وتراسوا وتداعوا إلى الصلح فلم يقض الله بذلك، وكانت حرب يسيرة بالنسبة لما بعدها ولما دخل صفر وقع بينهما القتال فكانت وقفات كثيرة بصفين يقال: إنها تسعون وقعة وكانت مدة مقامهم على الحرب مائة يوم وعشرة أيام، وعدد القتلى بصفين من أهل الشام خمسة وأربعون ألفاً ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفاً، منهم ستة وعشرون من أهل بدر. وكان علي رضي الله عنه قد تقدم إلى أصحابه أن لا يقاتلوهم حتى يبدؤوه بالقتال، وأن لا يقتلوا مدبراً ولا يكشفوا عورة ولا يأخذوا من أموالهم شيئاً. وقاتل عمار بن ياسر رضي الله عنه مع علي قتالاً عظيماً وكان عمره قد نيف على تسعين سنة وكانت الحرية في يده ويده ترتعد فقال: هذه رأية قاتلت بها مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات وهذه الرابعة، ودعا بقدح من لبن فشرب منه ثم قال: صدق الله ورسوله اليوم ألقى الأحبة: محمداً وحزبه. قال لي رسول الله ﷺ: إن آخر رزقي من الدنيا ضيحة لبني. وروي أنه كان يرتجز^(١).

نحن قتلناكم على تأويله كما قتلناكم على تنزيله
ضربياً يزيل الهام عن مقبيله وينهض الخليل عن خليله

ولم يزل عمار يقاتل ذلك اليوم حتى استشهد رضي الله عنه.

وفي الصحيح المتفق عليه: إن رسول الله ﷺ قال: «ويح عمار تقتله الفتة الباغية»، وبعد قتل عمار رضي الله عنه انتخب عليّي الشّي عشر ألفاً - بعد أن روى لهم حديث عمار - وحمل بهم على عسكر معاوية فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض ثم نادى يا معاوية على ما نقتل الناس بيننا؟ هل

(١) يعني ممثلاً لأن البيتين روايا عبد الله بن رواحة رضي الله عنه.

أحاكمك إلى الله فأينا قتل صاحبه استقام له الأمر! فقال له عمرو بن العاص: أنصفك. فقال معاوية: لكنك ما أنصفت، ثم تقاتلوا ليلة الهرير شهت بليلة القادسية - وكانت ليلة الجمعة - واستمر القتال إلى الصباح، وكان علي يسير بين الصفوف ويحرض كل كتيبة على التقدم حتى أصبح المعركة كلها خلف ظهره.

وروى أنه كبر تلك الليلة سبعمائة تكبيرة وكانت عادته: أنه كلما قتل قتيلاً كبر ودام القتال إلى ضحى يوم الجمعة، وقاتل الأشتر النخعي قتالاً عظيماً حتى انتهى إلى معسكرهم. وقتل صاحب رايته، وأمده عليه بالرجال. فلما رأى عمرو شدة الأمر قال لمعاوية: مر الناس يرفرعون المصاحف على الرماح ويقولون: كتاب الله بيننا وبينكم، فإن قبلوا ذلك ارتفع عننا القتال وإن أبي بعضهم وجدنا في افترائهم راحة، ففعلوا ذلك. فقال الناس: نجيب إلى كتاب الله، فقال علي: «يا عباد الله امضوا على حكم في قتال عدوكم فإن عمراً ومعاوية وابن أبي معيط وابن أبي سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وأنا أعرف بهم منكم، وبحكم والله ما رفعوها إلا خديعة ومكيدة» فقالوا: لا يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله فلا نقبل. فقال علي: «إنما قاتلناهم ليدينوا بكتاب الله فإنهم نبذوه» فقال جماعة من القراء الذين صاروا خوارج: يا علي أجب إلى كتاب الله وإلا دفعناك برمتك إلى القوم أو فعلنا بك ما فعلنا بابن عفان. فقال علي رضي الله عنه: «إن تطيعوني فقاتلوا وإن تعصوني فافعلوا ما بدا لكم» وأخر الأمر إنهم اتفقوا على أن يحكموا رجلين من العاجين وما حكما به عليهم صاروا إليه. فاختار أهل الشام عمرو بن العاص داهية العرب واختار أهل العراق أبو موسى الأشعري بعد مراجعات وقعت بين علي وبينهم واجتمع الحكمان عند علي لتكتب القضية بحضوره، فكتبا: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فقال عمرو بن العاص إنما هو أميركم وليس هو بأميرنا. فقال الأحنف: لا تمحوا اسم أمير المؤمنين. وقال

الأشعث: أمحها. فقال علي: الله أكبر سنة بسنة! والله إني لكاتب القضية يوم الحديبية، فككتب محمداً رسول الله ﷺ فقالت قريش: لست برسول الله ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فأمرني رسول الله ﷺ بمحوه فقلت: لا أستطيع قال: فأرنيه، فأرته إيه فمحاه بيده، فقال لي: إنك ستدعى إلى مثلها فتجيب! ثم كتب الكتاب: هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان قاضى على على أهل الكوفة ومن معهم؛ وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم إنا ننزل عند حكم الله وكتابه وأن لا يجمع بيننا غيره وإن كتاب الله بيننا من فاتحته إلى خاتمه نحيي ما أحياي ونميت ما أمات، فما وجد الحكمان في كتاب الله وهما: أبو موسى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عملاً به؛ وما لم يجدا في كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة. وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين العهود والمواثيق إنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما والأمة لهما أنصار على الذي يتقااضيان عليه، وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكموا بين هذه الأمة ولا يورداها في حرب ولا فرق، وأجلأوا القضاء إلى رمضان من السنة، وإن أحبوا أن يؤخرها ذلك أخراء، وإن مكان قضيتهما مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام. وشهد رجال من أهل العراق ورجال من أهل الشام، ووضعوا خطوطهم في الصحيفة ودعى الأشتر النخعي ليشهد فقال: لا صحبتني يميني ولا نفعني بعدها شمالي إن وضع لي فيها اسم. وكتب الكتاب في يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين وعينوا موضع الحكم بدومة الجندل فوق الاجتماع للأجل المذكور.

وحصل ما كان من ذلك أن الحكمين اتفقا على خلع علي ومعاوية ويكون الأمر شوري بين الناس حتى يختاروا من يقدمونه للأمر. وقدم عمرو بن العاص أبا موسى على نفسه في الكلام فتكلم أبو موسى على رؤوس الناس بما اتفقا عليه من خلع علي ومعاوية حتى ينظر الناس لأنفسهم. فلما سكت أبو موسى قام عمرو فقال: «أيها الناس إن هذا قد خلع

صاحبه وقد خلعته كما خلعة، وأثبتت معاوية فهو ولد ابن عفان وأحق الناس بمقامه». فكذبه أبو موسى وتنازعا وتشاتما ومرج أمر الناس ولم يحصلوا على طائل. وانسل أبو موسى الأشعري إلى مكة فأقام بها ولم يرجع إلى علي حياء منه. ومضى عمرو بن العاص في أهل الشام فسلموا على معاوية بالخلافة ولام علي أصحابه فيما كان منهم من عصيانه أولاً وانخداعهم لأهل الشام آخرأ وقال فيما قال: «كأني وإياكم كما قال أخو جشم^(١):

أمرتهم أمري بمنعرج اللوا فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الندا

وقال: «إن هذين الحكمين اللذين اخترتموهما تركا حكم الله وحكموا بهوى النفس واختلفا في حكمهما فلم يرشدهما الله، فتأهبا للجهاد واستعدوا للسير». وأصبح علي رضي الله عنه غادياً يريد الشام في ثمانية وسبعين ألفاً.

وكانت الخوارج قد خرجن عليه واعتزلوه وقالوا: حكمت الرجال في دين الله! ولا حكم إلا لله! وبلغه أن الخوارج قد اجتمعوا بالنهروان وتعاهدوا على حرب المسلمين ثم بلغه أن الخوارج البصرة لقوا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ قريباً من النهروان فعرفهم بنفسه فسألوه عن أبي بكر وعمر فأثني خيراً، ثم عن عثمان في أول خلافته وآخرها، فقال: كان محقاً في الأول والآخر، فسألوه عن علي قبل التحكيم وبعده، فقال: هو أعلم بالله وأشد توقياً على دينه. فقالوا: إنك توالي الرجال على أسمائهم ثم ذبحوه وبقرعوا بطن امرأته. قتلوا معهما ثلاثة نسوة من طيء، ومن عجيب أمرهم أنهم لقوا مسلماً ونصرانياً فقتلوا المسلم وقالوا: احفظوا ذمة نبيكم في النصرياني، فسار إليهم علي رضي الله عنه وأرسل إليهم أن ادفعوا قتلة إخواننا منكم فنكف عنكم حتى نلقى أهل المغرب^(٢) فلعل الله يرددكم إلى خير، فأرسلوا إليه كلنا قد قتلهم وكلنا يستحل دماءكم، فأثأتم علي رضي الله عنه

(1) هو دريد بن الصمة.

(2) يعني بذلك أهل الشام.

فقال: «أيتها العصبة التي أخرجها المراء من الحق إلى الباطل، وأصبحت في اللبس والخطب العظيم، إني نذير لكم أن تصبحوا تلقاكم الأمة غداً صرعاً بائناه هذا النهر بغير بينة منكم ولا برهان، ألم تعلموا أنني قد نهيتكم عن الحكومة إلي وأخبرتكم أن القوم إنما طلبواها خديعة فعصيتموني وحملتموني على أن حكمت، ولما حكمت شرطت وأخذت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ويحيي ما أمات فانقلبا وحكموا بغير حكم الكتاب، فنبذنا أمراً هما ونحن على أمرنا الأول، بما الذي أصابكم؟ ومن أين أتيتكم؟». قالوا: «حكمنا وكنا بذلك كافرين وقد تبنا، فإن تبت كما تبنا فنحن قومك، وإنما فاعتزلنا ونحن نتابذل على سواء إن الله لا يحب الخائبين» فقال علي رضي الله عنه: «صبعحكم حاصلب، ولا بقي منكم واحد، أبعد إيماني برسول الله ﷺ وجهادي في سبيل الله وهجرتي مع رسول اللهأشهد على نفسي بالكفر؟» **﴿فَنَّدَ مَنْلَثُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾** [الأنعام: ٥٦]. وروي أنه لما كلمهم واحتج عليهم تنادوا: «لا تخاطبواهم ولا تكلموهم، وتهيؤوا للقاء رب الرواح الرواح إلى الجنة» فخرج علي رضي الله عنه فعبأ الناس ميمنته وميسرة ووقف هو القلب في مصر وجعل على الخيل أباً أيوب الأنباري وعلى أهل المدينة - وكانوا سبعمائة - قيس بن سعد بن عبادة . وعبات الخوراج على نحو هذه التعبية ورفع علي رضي الله عنه مع أبي أيوب الأنباري راية الأمان. فنادى أبو أيوب من أتى هذه الراية ولم يقاتل ولم يستعرض فهو آمن، ومن انصرف إلى الكوفة أو المدائن فهو آمن، ومن انصرف عن هذه الجماعة فهو آمن، فاعتزل فروة بن نوفل الأشعجي في خمسمائة وقال: «اعتزل حتى يتضح لي الأمر في قتال علي» فنزل الدسكرة وخرج آخرون إلى الكوفة ورجع آخرون إلى علي رضي الله عنه وكانت أربعة آلاف فيهم ألف وثمانمائة فحمل عليهم علي والناس وذحفوا هم إلى علي رضي الله عنه ينادون: الرواح الرواح إلى الجنة فاستقبلتهم الرماة واعطفت عليهم الخيل من المجنبين، ونهض إليهم الرجال بالسلاح فهلكوا

كلهم في ساعة واحدة كأنما قيل لهم موتوا فماتوا . وكان جملة من قتل من أصحاب علي رضي الله عنه سبعة نفر ؛ فطلب علي رضي الله عنه المحاج في القتلى فلم يوجد ، فقام رضي الله عنه وعليه أثر الحزن لفقده فانتهى إلى قتلى بعضهم فوق بعض فقال : «أفرجوا» ففرجوا يميناً وشمالاً فاستخرجوه فقال : «الله أكبر والله ما كذبت على رسول الله ﷺ وإنه لناقص اليد ما فيها عظم طرفها مثل ثدي المرأة عليها خمس شعرات أو سبع رؤوسها معقة» ثم قال : «اثتوني به» فنظر إلى منكبه فإذا اللحم مجتمع على منكبه كثدي المرأة عليها شعرات سود إذا مدت اللحمة امتدت حتى تحاذى بطن يده الأخرى ثم ترك فتعود إلى منكبه فقال أصحاب علي رضي الله عنه : «لقد قطع الله دابرهم آخر الدهر» فقال علي : «والذي نفسي بيده إنهم لفي أصلاب الرجال وأرحام النساء لا تخرج خارجة إلا خرجت بعدها مثلها حتى تخرج خارجة بين الفرات ودجلة يقال لهم الشوط فيخرج إليهم رجل من أهل البيت فيقتلهم فلا تخرج لهم بعدها خارجة إلى يوم القيمة».

وفي الصحيح عن سعيد بن غفلة قال : قال علي رضي الله عنه : «إذا حدثكم عن رسول الله ﷺ حديثاً فواهه لأن آخر من السماء أحب إلي من أن أكذب عليه وإذا حدثكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خدعة وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : سيخرج قوم في آخر الزمان أحذات الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البرية لا يجاوز إيمانهم حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأينما لقيتهم هم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرأ لمن قتلهم» .

ثم إن علينا رضي الله عنه ندب أصحابه إلى غزو الشام فتناقلوا عليه ولما وصلوا إلى الكوفة تسللوا إلى بيوتهم وتركوا المعسكر خالياً . ولما رأى علي ذلك دخل الكوفة ثم ندبهم ثانية فلم ينفروا ثم ثالثاً فلم ينشط منهم إلا القليل ، فخطبهم وأغلوظ في عتابهم وأعلمهم بما له عليهم من الطاعة في الحق والتصح فتناقلوا وسكتوا واستمر الحال إلى أن استأثر به ربه وأراحه من

شغبهم وقبضه إليه ونقله إلى كرامته وجنته، سابق مضمار الإيمان والهجرة والنصرة والنجدة والصهر والقربى والقناعة والجهاد والعلم والزهد رضي الله عنه.

وكان من خبر وفاته أن ثلاثة من الخوارج ممن نجا من وقعة النهروان وهم عبد الرحمن بن ملجم المرادي وعمرو بن بكر التميمي السعدي والحجاج بن عبد الله التميمي الصرمي - ويلقب بالبرك - اجتمعوا بمكة فذكروا إخوانهم الذين قتلوا بالنهروان وقالوا: ما نصنع بالبقاء بعدهم فلو شرينا أنفسنا وقتلنا أئمة الضلال وأرحنَا منهم الناس فقال ابن ملجم - وكان من مصر - «أنا أكفيكم علياً» وقال البرك: «أنا أكفيكم معاوية» وقال عمرو بن بكر: «أنا أكفيكم عمرو بن العاص» وتعاهدوا أن لا يرجع أحد منهم عن صاحبه حتى يقتله أو يموت دونه وتوعادوا سبع عشرة ليلة تمضي من رمضان من هذه السنة - أعني ستة أربعين - وانطلقوا فلقي ابن ملجم أصحابه بالكوفة فطوى خبره عنهم إلا أنه جاء إلى شبيب بن شجرة الأشعري ودعاه إلى الموافقة على شأنه فقال شبيب: ثكلتك أمك فكيف تقدر على قتله؟ فقال أكمن له في المسجد عند صلاة الغداة فإن قتلناه وإلا فهي الشهادة! قال وبمحك لا أجدني أشرح لقتله مع سابقته وفضله، قال ألم يقتل العباد الصالحين أصحاب النهروان؟ قال: بلى. قال: فنقتله بمن قتله منهم فأجابه ثم لقي امرأة من تيم الرباب فائقة الجمال اسمها قطام قتل أبوها وأخوها يوم النهروان فخطبها ابن ملجم فشرطت عليه ثلاثة آلاف درهم وعبداؤ وقنية وأن يقتل علياً وقالت: «فإن قتلتني شفيت النفوس وإنلا فهي الشهادة» قال: «والله ما جئت إلا لذلك ولك ما سألت» وفي ذلك قيل:

ثلاثة آلاف وعبد وقنية
فلا مهر أغلى من علي وإن غلا
ثم قالت: سأبعث معك من يشد ظهرك ويساعدك، ويعثث معه رجالاً
من قومها اسمه وردان.

فلما كانت الليلة التي واعد ابن ملجم أصحابه فيها - وكانت ليلة الجمعة - جاء إلى المسجد ومعه شبيب ووردان . وجلسوا قبالة السدة التي يخرج منها على للصلوة ، فلما خرج ونادى للصلوة علاه شبيب بالسيف فوقع في عضادة الباب ، وضربه ابن ملجم على مقدم رأسه وقال : الحكم الله يا علي لا لك ولا لأصحابك ، وهرب ورдан إلى منزله ، وهرب شبيب مغلساً ، ونجا في غمار الناس ، وقبض على ابن ملجم فجيء به مكتوفاً إلى علي - وقد حمل إلى بيته - فقال : أي عدو الله ما حملك على هذا ؟ ثم قال إن هلكت فاقتلوه كما قتلني ، وإن بقيت رأيت فيهرأيي . يابني عبد المطلب لا تحرضوا على دماء المسلمين وتقولوا قتل أمير المؤمنين : لا تقتلوا إلا قاتلي ، يا حسن إن أنا مت من ضربتي هذه فاضربه بسيفه ، ولا تمثلن بالرجل فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إياكم المثلة» . وقال له جندب بن عبد الله : أتباع الحسن إن فقدناك ؟ فقال : ما أمركم به ولا أنهاكم عنه أنتم أبصرا . ولما حضرته الوفاة كتب وصيته العامة ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى قبض رضي الله عنه .

ولما قبض أخرج عبد الرحمن بن ملجم من السجن فقطع عبد الله بن جعفر يده ثم رجله ثم لسانه وكحلت عيناه بمسمار محمى وأحرق لعنه الله . وأما البرك فوثب على معاوية تلك الليلة وضربه بالسيف فوقع في إلبيه وأخذ البرك فقال لمعاوية : عندي بشرى أتنفعني إن أنا أخبرتك بها ؟ قال : نعم . قال : إن أخا لي قتل علياً هذه الليلة فقال معاوية لعله لم يقدر عليه فقال بلى إن علياً ليس معه من يحرسه فقتله معاوية وقبيل قطع يده ورجله وأقام إلى أيام زياد فقتله بالبصرة وأما عمرو بن بكر التميمي فإنه جلس تلك الليلة لعمرو بن العاص فلم يخرج عمرو إلى الصلاة لمرض أصحابه واستئناب خارجة بن حذافة العدو في الصلاة فشد عليه عمرو بن بكر وهو يظن أنه عمرو بن العاص فقتله فلما أخذوه وأدخلوه على عمرو قال فمن قتلت إذا ؟ قالوا قتلت خارجة بن حذافة فقال : «أردت عمراً وأراد الله خارجة» فأرسلها

مثلاً وأمر به عمرو فقتل ويرحم الله ابن عبدون إذ يقول:
وليتبها إذ فدت عمراً بخارجة فدت علياً بما شامت من البشر
وكانت وفاة علي رضي الله عنه صبيحة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت
من رمضان سنة أربعين كما ذكرنا . وكانت مدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة
أشهر . واختلف في موضع قبره فقيل دفن مما يلي قبلة المسجد بالكوفة وقيل
عند قصر الإمارة بها وقيل نقله ابنه الحسن إلى المدينة ودفنه بالبقيع عند
زوجه فاطمة رضي الله عنها .

قال أبو الفداء والأصح وهو الذي ارتضاه ابن الأثير وغيره إن قبره هو
المشهور بالنجف وهو الذي يزار اليوم .

وفضائل علي رضي الله عنه ومناقبه في العدل وحسن السيرة أجل من أن
يحاط بها ، من ذلك مشاهده المشهورة بين يدي رسول الله ﷺ ومؤاخاته له
وسبق إسلامه وقول رسول الله ﷺ: «من كنت مولاه فعليه مولا» وقوله عليه
الصلوة والسلام يوم خير: «الأبعثن الرایة خداً مع رجل يحب الله ورسوله
ويحبه الله ورسوله» وقوله عليه الصلاة والسلام له: «أما ترضى أن تكون مني
ب منزلة هارون من موسى» و قال ﷺ: «أقضاكم علي» والقضاء يستدعي معرفة
أبواب الفقه كلها بخلاف قوله عليه السلام: «أفرضكم زيد وأفرأكم أبي».
ولم يضع رضي الله عنه لبنة على لبنة حتى لقى الله وكان يقسم ما في بيت
المال كل جمعة حتى لا يترك فيه شيئاً . ودخل مرة بيت المال فوجد الذهب
والفضة فقال: «يا صفراء اصفرني ويا بيضاء ابيضني وغري غيري لا حاجة لي
فيك» .

وروى ابن عبد البر في الاستيعاب بسنده إلى مجمع التميمي أن علياً
رضي الله عنه قسم ما في بيت المال بين المسلمين ثم أمر به فكتس ثم صلى
فيه رجاء أن يشهد له يوم القيمة .

وروى أيضاً بسنده عن عاصم بن كلبي عن أبيه قال قدم على علي مال
من أصحابه فقسمه سبعة أسابع ووجد فيه رغيفاً فقسمه سبع كسر وجعل على

كل جزء كسرة ثم أقرع بينهم أية يعطي أولًا. قال ابن عبد البر: وأخباره رضي الله عنه في مثل هذا من سيرته لا يحيط بها كتاب ويرحم الله من قال:

أحسن من عود ومن ضارب	ومن فتاة نامد كاعب
ومن مدام في قواريرها	يسعى بها ساق إلى شارب
ومن جياد الخيل في مهمه	ضارب يسطو على ضارب
أحسن من ذاك وهذا وذا	حب علي بن أبي طالب
لوفتشوا قلبي لأنفوا به	سطرين قد خططا بلا كاتب
العلم والتوحيد في جانب	وحب آل البيت في جانب
إن كنت فيما قلتة كاذبًا	فلمعنة الله على الكاذب

ولم توفي علي رضي الله عنه بايع الناس ابنه الحسن رضي الله عنه، وأول من بايده قيس بن سعد بن عبادة قال له: ابسط يدك على كتاب الله وسنة رسوله وقتال الملحدين، فقال الحسن: على كتاب الله وسنة رسوله ويأتيان على كل شرط. ثم بعد ذلك نزل لمعاوية عن الأمر في خبر طويل نذكر منه ما في الصحيح. فعن الحسن البصري رحمة الله قال: استقبل والله الحسن بن علي معاوية بكتائب أمثال الجبال فقال عمرو بن العاص: إني لأرى كتاب لا تولي حتى تقتل أقرانها، فقال له معاوية - وكان والله خير الرجلين - : أي عمرو إن قتل هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء، فمن لي بأمور الناس؟ من لي بنسائهم؟ من لي بضياعتهم؟ فبعث إليه رجلين من قريش من بني عبد شمس: عبد الرحمن بن سمرة وعبد الله بن عامر بن كريز فقالا: إذهبنا إلى هذا الرجل فاعرضنا عليه وقولا له واطلبنا إليه، فأتياه فدخلوا عليه فتكلما و قالا له و طلبا إليه، فقال لهم الحسن بن علي رضي الله عنهما: إنا بني عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال وإن هذه الأمة قد عاثت في دمائها قالا: فإنه يعرض عليك كذا وكذا ويطلب إليك ويسألك، قال: فمن لي بهذا؟ قالا نحن لك به، فما سألهما شيئاً إلا قالا: نحن لك به؛ فصالحة. قال الحسن البصري رحمة الله: ولقد سمعت أبا بكرة يقول: رأيت

رسول الله ﷺ على المنبر - والحسن بن علي إلى جنبه - وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فترين عظيمتين من المسلمين».

وها هنا فائدتان الأولى: هذه العروب التي وقعت بين الصحابة رضي الله عنهم محملها الاجتهاد كما قدمنا والذب عن الدين، وكان الناس من السذاجة في الدين والتمسك به على ما عهد منهم، فكانوا إذا رأوا ما يظنونه منكراً غيره ولو بخلاف مهجوم، إلا أنهم كان منهم المجتهد المصيب، وهو ذو الأجرين كما في الحديث، ومنهم المجتهد المخطيء وهو ذو الأجر الواحد كما في الحديث أيضاً. وكان علي رضي الله عنه مصيباً في جميع أمره من أوله إلى آخره. فعلى العاقل المحافظ لدينه أن يظن بصحابة رسول الله ﷺ الظن الجميل، ويعمل بوصيته فيهم إذ قال عليه الصلاة والسلام: «الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فيبغضني أبغضهم» الحديث وإياي وإياه أن يخرج من زكاهم الله تعالى بقوله: «كُنْتُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجْتَ إِلَيْنَا إِنَّمَا تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَايْتُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتَوْهَيْتُ بِإِلَّا إِلَهُوَ إِلَّا عَزَّلَهُ» [آل عمران: ١١٥]. وزكاهم رسول الله ﷺ بقوله: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» اللهم احضرنا في زمرتهم وأمتنا على سنتهم وطريقتهم يا أكرم الأكرمين ويا أرحم الراحمين، ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم.

الفائدة الثانية: أطبق السلف على أن ترتيب الخلفاء الأربع رضي الله عنهم في الفضل على حسب ترتيبهم في الخلافة. وذهب بعض السلف إلى تقديم علي على عثمان ومنن قال به سفيان الثوري لكن قبل إنه رجع عنه. وقالت الشيعة وكثير من المعتزلة الأفضل بعد النبي ﷺ علي بن أبي طالب والحق هو القول الأول. وهل التفضيل بين الخلفاء قطعي أو ظني فالذي مال إليه الأشعري هو الأول، والذي مال إليه القاضي أبو بكر الباقلانى واختاره

إمام الحرمين في الإرشاد هو الثاني، وعبارته: «لم يقم عندنا دليل قاطع على تفضيل بعض الأئمة على بعض، إذ العقل لا يدل على ذلك، والأخبار الورادة في فضائلهم متعارضة، ولكن الغالب على الظن أن أبا بكر أفضل الخلقن بعد الرسول ﷺ، ثم عمر أفضلهم بعده، وتتعارض الظنون في عثمان وعلي». .

وها هنا انتهى بنا القول فيما قصدناه من التبرك بذكر رسول الله ﷺ وذكر خلفائه الأربع رضي الله عنهم، ولنرجع إلى ما نحن بصدده من ذكر أخبار المغرب الأقصى مقدمين القول أولاً في نسب البربر وبيان حالهم قبل الإسلام وبعده على الجملة، لتخلاص بعده للمقصود، والله تعالى يعصمنا من الزلل بمنه وكرمه .

القول في نسب البربر وبيان أصلهم

اعلم أن الناس اختلفوا في تحقيق نسب البربر وإلى أي أصل من أصول الخلية يرجعون، فذكر صاحب كتاب الجمان في أخبار الزمان ونقله عن أهل العلم بالسيرة أنبني حام تنازعوا معبني سام فانهزم بنو حام أمامهم إلى المغرب وتناسلوا به، واتصلت شعوبهم من أرض مصر إلى آخر المغرب إلى تخوم السودان، وكان بسواحل المغرب الأفارقة والإفرنج فكانت ذرية حام في المداشر والخيام، والأعاجم الأول في البلدان. وبقي أكثر أولاد حام في بلاد فلسطين من أرض الشام إلى زمن داود عليه الصلاة والسلام. وكان ملكهم يسمى جالوت فلما قتل داود جالوت وأتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء أمر بإجلائهم من بلاد كنعان وفلسطين إلى أرض المغرب. فساروا نحو إفريقية والزاب وانتشروا هناك حتى ضاقت بهم تلك البلاد وامتلأت منهم الجبال والكهوف والرمائل وصاروا يتبعون موقع القطر بالإبل وبيوت الشعر، ولم تقدر الفرنج على ردهم ودفعهم، فانحازت الأعاجم للمدن وبقي البربر فيما عدى المدن وهم مع ذلك على أديان مختلفة يدين كل واحد منهم بما شاء من الأديان الفاسدة، فمنهم من تمجس ومنهم من تهود ومنهم من تنصر، واستمرروا على ذلك إلى زمان الإسلام. وكان فيهم رؤساء وملوك وكهان، ولهم حروب وملاحم عظام مع من قارعهم من الأمم.

وقال الطبراني وغيره: «إن البربر أخلاقٌ من كنعان والعماليق وغيرهم. فلما قتل داود جالوت تفرقوا في البلاد».

وقال الكلبي: «اختلف الناس فيمن أخرج البربر من الشام فقيل داود بالوحى قيل: يا داود أخرج البربر من الشام فإنهم جذام الأرض، وقيل: يوشع بن نون عليه السلام. وقيل: إفريقيش الحميري واختلف في إفريقيش هذا فقال المسعودي هو إفريقيش بن أبرهة ذي المنار أحد التابعين المشهورين».

وقال ابن حزم: «هو إفريقيش بن قيس بن صيفي أخو العارث الرائش منهم، وهو الذي ذهب بقبائل العرب إلى إفريقيا وبه سميته، وساق البربر إليها من أرض كنعان مر بها عند ما غلبهم يوشع بن نون وقتلهم فاحتلهم الفل منهم وساقهم إلى إفريقيا فأنزلتهم بها وقتل ملكها جرجير، ويقال إنه الذي سمي البربر بهذا الاسم لأنه لما فتح المغرب وسمع رطانتهم قال: ما أكثر بربرتهم! فسموا البربر. والبربرة في لغة العرب اختلاط أصوات غير مفهومة ومنه بربرة الأسد، وينسبون إليه في ذلك شعرًا وهو قوله:

بربرت كنعان لما سقتها من بلاد الضنك للخصب العجيب

أي أرض سكنوها ولقد فازت البربر بالعيش الخصيب

ولما قفل إفريقيش من غزو المغرب ترك هنالك حامية من قبائل حمير صنهاجة وكتامة فهما بها إلى الآن وليسوا من نسب البربر قاله الطبرى والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي والسهيلى وجمعى النساين من العرب.

وقال أبو عمر بن عبد البر في كتاب التمهيد له: «اختلف الناس في نسب البربر اختلافاً كثيراً، وأنسب ما قيل فيهم أنهم من ولد قبط بن حام وأنه لما نزل مصر خرج بنوه يريدون المغرب فسكنوا من آخر عمالة مصر وذلك فيما وراء برقة إلى البحر الأخضر مع بحر الأندلس^(١) إلى منقطع الرمل متصلين بالسودان. وقيل: إن البربر صنفان البرانس والبربر وأن البر منهم من ولد بر بن قيس بن عيالان بن مصر، واختلفوا في توجيه ذلك فقال الطبرى: خرج بر بن قيس بن عيالان ينشد ضالة له بأحياء البربر فرأى جارية منهم فخطبها من أبيها وتزوجها فولدت له».

وقال في كتاب الجمان: وأما سميتهم بالبربر فإنه لما صار ملك مصر لقيس بن عيالان كان له ولد اسمه بر فخرج مغاضباً لأبيه وإخوته إلى جهة المغرب فقال الناس: بر بر أي توحش في البراري فسموا بربراً. ونقل ابن

(١) البحر الأخضر هو المحيط وبحر الأندلس هو البحر المتوسط.

أبي زرع وابن خلدون عن النسابين من البربر وحكاية أيضاً البكري وغيره: أنه كان لمضر بن نزار ولدان إلياس وعيلان أمها رباب بنت حيدة بن عمرو بن معد بن عدنان فولد عيلان بن مضر ولدين وهو قيس ودهمان ابنا عيلان، أما دهمان فولده قليل وهم أهل بيت من قيس يقال لهم بنو أمامة، وأما قيس بن عيلان فولد أربعة بنين وجارية وهو سعد وعمرو وخصفة أمهم مزنة بنت أسد بن ربيعة بن نزار، ثم بر وأخته تماضر أمها تمريغ بنت يجدول بن غمار بن مصمود البريري اليدجولي.

وكانت قبائل البربر إذ ذاك يسكنون الشام ويتجاوزون العرب في المساكن والأسواق والمساعي، ويشاركونهم في المياه والمسارح والمراعي، ويصاهر بعضهم بعضاً، وكانت البهاء بنت دهمان بن عيلان بن مضر من أجمل نساء زمانها وأكملهن ظرفاً وأدباً فكثر خطابها من سائر قبائل العرب فقال بنو عمها - وهو عمرو وسعد وخصفة وير - لا يتزوج ابنة عمنا إلا أحدهنا ولا تخرج منها إلى غيرنا فخيروها فيما شاءت منهم، فاختارت براً - وكان أصغرهم سنًا وأكملهم شباباً - فتزوجها دون إخوته فحسدوه عليها وهموا بقتله من أجلها، وكانت أمه تمريغ من دهاء النساء فبعثت إلى أبيها دهمان وأعلنته الخبر وواطأته على الخروج بولدها إلى أرض قومها من البربر حيث تأمن عليه، ثم بعثت إلى قومها فأتوها سراً فارتحلت معهم هي وولدها بر وكتها البهاء بنت دهمان فلحقوا ببلاد البربر - وهو يومئذ مستوطنون فلسطين وأكثار الشام - فنزل بر على أخواله واعتزل بهم، وبنى بابنة عمه البهاء فولدت له هناك ولدين: علوان ومادغيس إبني بر بن قيس بن عيلان، فاما علوان فمات صغيراً ولم يعقب وأما مادغيس فكان يلقب الأبتر وهو أبو البر من البربر وإليه يرجعون أنسابهم، ومن ولده جميع زناته كما سيناتي، ويزعمون أن تماضر أخت بر بكته بعد فرقته بشعر يقول فيه:

لتبك كل باكية أخاهما
كما أبكي على بر بن قيس
تحمل عن عشيرته فأضحي
ودون لقائه انضاء عننس

ومما ينسب إليها أيضاً قوله:

وشطت ببر داره عن بلادنا
وأزرت ببر لكتنة أعممية
كأننا وبرأ لم نقف بجيادنا

وأنشد علماء البربر لعييدة بن قيس العقيلي:

الا أيها الساعي لفرقة بينما
توقف هداك الله سبل الأطاب
فأقسم أنا والبرابر إخوة
تناولنا جد كريم المناسب
أبونا أبوهم قيس عيلان في الذرى
له حومة تشفى غليل المحارب
وير بن قيس عصبة مصرية
وفي الفرع من أحسابها والذواب
فنحن وهم ركن منيع وإخوة
على رغم أعداء لنام المناقب
في أبيات غير هذه. وينشد أيضاً ليزيد بن خالد مدح البربر قوله:
أيها السائل عنا أصلنا
قيس عيلان، بنو الغر الأول
نحن ما نحن، بنو بر الندى
طارد الأزمة، نحار الإبل
قد بني المجد فأورى زنده
وكفانا كل خطب ذي جلل
إن قيساً يعتزى بسر له
ولبر يعتزى قيس الأجل
فلتنا الفخر بقيس إنه
جدعنا الأكبر فكاك الكبل
إن قيساً قيس عيلان هم
معدن الخير، على الخير دل
حصبي البربر قومي إنهم
ملکوا الأرض بأطراف الأسل
في أبيات آخر.

واعلم أن الخلاف في نسب البربر طويل وقد تركنا جله اختصاراً، وأشبه هذه الأقوال بالصحة ما نقلناه أولاً^(١). مما يدل على أن جيل البربر من ولد حام؛ وأنهم جيل قديم قد سكنا المغرب عندما تناست ذرية نوح عليه

(١) يعني أن البربر جيل قديم سكن أرض إفريقيا منذ أحقاب طويلة، وأما كون أرض المغرب إذ ذلك كانت معمورة السواحل بالقرنوج والروم فليس بمحرر.

السلام وانتشرت الخلقة على وجه الأرض، ثم تلاحت بهم بقية بنى كنعان من الشام عندما أجل لهم يوشع بن نون عليه السلام أولاً ثم داود عليه السلام ثانياً.

قال ابن خلدون بعد تزيف القول بأن البربر من ولد جالوت بالخصوص أو من العرب ما نصه: «والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح عليه السلام وأن اسم أبيهم مازيق اهـ». ومما يستملح من التوارد المقوله في نسب البربر قول خلف بن فرج السجسبي من شعراء الأندلس يهجو البربر:

رأيت آدم في نومي فقلت له: أبا البرية إن الناس قد حكموا
إن البرابر نسل منك، قال: إذا حواء طالق إن كان الذي زعموا
وهذا من ملح الشعراء وشيطنتهم، والإ فالبربر جيل معروف من أعظم
الأجيال وأعزها، ولهم الفخر الذي لا يجهل، والذكر الذي لا يهمل، وقد
تعددت فيهم الدول، وكثرت فيهم الملوك العظام، وكان لهم القدم الراسخ
في الإسلام، واليد البيضاء في الجهاد. ومنهم الأئمة والعلماء والأولياء
والشعراء، وأهل المزايا والفضائل، وستقف على كثير من ذلك عن قريب إن
شاء الله.

القول في تقسيم شعوب البربر على الجملة

اعلم أن أمة البربر أمة عظيمة قد ملأت ما بين برقة والبحر المتوسط شرقاً وغرباً، وما بين بلاد السودان والبحر الرومي جنوباً وشمالاً؛ ومع عظمها فيجمعها شعبان عظيمان بحيث لا يخرج ببرري عنهما.

قال ابن خلدون: علماء النسب متفقون على أن البربر يجمعهم جدان عظيمان وهما: برنس ومادغيس ويلقب مادغيس بالأبتر فلذلك يقال لشعوبه: الأبتر. ويقال لشعوب برنس: البرانس. وبين النسابين خلاف: هل هما لأب واحد أم لا؟ فعند ابن حزم أنهما لأب واحد والجميع من نسل كنعان بن

حام، وقال سابق بن سليمان المطماطي وغيره من نساب البربر: إن البرانس فقط من نسل كنعان، وأما البتر فهم بنو بر بن قيس بن عيلان بن مصر، وهذا القول قد تقدم ما فيه، فالحق أن الشعبيين معاً عريقان في البربرية وأن الجميع من ولد مازيق، ومازيق هو من ولد كنعان بن حام كما مر.

فأما البرانس فتقسم إلى سبع قبائل: أوربة وصنهاجة وكامة ومصمودة وعجيبة وأوريغة وأرداجة، ويقال: ورداجة بالواو بدل الهمزة، وزاد سابق المطماطي وغيره ثلاثة قبائل آخر وهم: لمطة وهسكورة وجزولة فتكون عشرة. فأما أوربة فكان منهم كسلة بن أغز الأوربي قاتل عقبة بن نافع رضي الله عنه زمان الفتح، ومنهم إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي القائم بدعة إدريس بن عبد الله رضي الله عنه. وأما صنهاجة فهم أكبر قبائل البربر حتى زعم كثير من الناس أنهم مقدار الثالث منهم. وكان منهم بنو زيري بن مناد ملوك إفريقيا، والملثمون ملوك مراكش والأندلس. وأما كتامة فهم القائمون بدعة العبيدرين بإفريقيا ومصر. وأما المصامدة فمنهم غمارة، وكان منهم يليان النصراوي صاحب سبعة وطنجة أيام دخول عقبة بن نافع للمغرب الأقصى، وهو القائمون أيضاً بدعةبني إدريس في دولتهم الثانية بعدبني أبي العافية، ومن المصامدة أيضاً برغواطة أهل تامسنا وما اتصل بها، ومنهم أهل جبل درن القائمون بدعة محمد بن تومرت: مهدي الموحدين.

وأما باقي قبائل البرانس فلم يكن لهم ملك يذكر، وقد تقدم لنا أن السابعين من العرب يقولون إن صنهاجة وكتامة من حمير، وأن إفريقيش الحميري تركهم حامية بإفريقيا فتناسلوا بها واستحال لسانهم إلى البربرية، لكن المحققون من نساب البربر كسابق المطماطي وغيره ينكرون ذلك ويعجزون بأنهما قبيلتان عريقتان في البربر.

وأما البتر وهم بنو مادغيس الأبتر فينقسم شعبهم إلى أربع قبائل وهم: ضريسة ونقوسة وأداسة وبنو لوبي وهم: لواتة. فأما ضريسة فمنهم مكناسة، ومن مكناسة بنو مدرار ملوك سجلماسة، وبنو أبي العافية ملوك فاس. ومن

ضريسة أيضاً زناتة كلها ومن زناتة جراوة قوم الكاهنة داهيا صاحبة جبل أوراس التي أوقعت بحسان بن التعمان عامل الخليفة عبد الملك بن مروان. ومن زناتة أيضاً بنو خزر المغراويون ملوك تلمسان والمغرب الأوسط، ومنهم مغراوة ملوك فاس، وبينو يفرن ملوك سلا وتادلا، ومنهم بنو زيان ملوك تلمسان، وبينو مرين ملوك فاس أيضاً، فهو لاء كلهم من زناتة. وزناتة هو زانا بن يحيى بن ضرى بن زجيث بن مادغيس الأبتور.
وأما نفوسه وأداسة ولواثة فلم يكن لهم ملك يذكر.

واعلم أن كل قبيلة من هذه القبائل الأربع عشرة تشتمل على عمارٍ وبطونٍ وأفخاذٍ وفصائل لا حصر لها وفيما ذكرناه كفاية وبالله التوفيق.

الخبر عن حال البربر قبل الإسلام وذكر بعض أمصار المغرب القديمة وما قيل في ذلك

قد تقدم لنا أن البربر أمة قديمة سكناً أرض المغرب في قديم الزمان، وأنهم لما عمروا بلاده وملؤوا أكتافه انحازت الفرنج عنهم إلى السواحل والثور، ويقي البربر فيما سوى ذلك من الضواحي والجبال والكهوف، وهم مع ذلك على أديان مختلفة يدين كل واحد منهم بما شاء من الأديان الفاسدة إلى آخر ما مر فهذا كان حالهم على الجملة.

وقال ابن خلدون: لم تزل بلاد المغرب إلى طرابلس بل وإلى الإسكندرية عامرة بهذا الجيل ما بين البحر الرومي وببلاد السودان منذ أزمة لا يعرف أولها ولا ما قبلها، وكان دينهم دين المجوسية - شأن الأعاجم كلها بالشرق والغرب - إلا في بعض الأحيان يدينون بدين من غالب عليهم من الأمم، فإن الأمم أهل الدول العظيمة كانوا يتغلبون عليهم. فقد غزتهم ملوك اليمن من قراهم مراراً على ما ذكر مؤرخوهم فاستكانوا لغليهم ودانوا بدينهيم. ذكر ابن الكلبي: أن حميرأ أبا القبائل اليمنية ملك المغرب مائة سنة

وأنه الذي ابتنى مدنه مثل إفريقيا وصقلية^(١)، واتفق المؤرخون من العرب على غزو إفريقيا الحميري من التباعية أرض المغرب. اهـ وما نقله عن ابن الكلبي من غزو حمير أرض المغرب قد نقل أيضاً إنكاره عن الحافظين أبي عمر بن عبد البر وأبي محمد بن حزم وأنهما قالا: ما كان لحمير طريق إلى بلاد البربر إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن، ثم ذكر أن البعض من البربر كانوا قد دانوا بدين اليهودية وأخذوه عنبني إسرائيل عند استفحال ملوكهم لقرب الشام وسلطانه منهم، كما كان جراوة أهل جبل أوراس قبيلة الكاهنة وكما كانت نفوسه من برابرة إفريقيا وفنلادا ودميونة وبهلوة وغياثة وبين فازاز من برابرة المغرب الأقصى حتى محا إدريس الأكبر جميع ما كان في نواحيه من بقايا الأديان والمملـ.

وقال غير واحد من المؤرخين: كان أهل المغرب الأقصى يضررون بأهل الأندلس لاتصال الأرض بينهم ويلقون منهم الجهد الجهيد في كل وقت إلى أن اجتاز بهم الإسكندر فشكوا حالهم إليه، فأحضر المهندسين وأتى إلى الزقاق - يعني زفاف سبتة - فأمرهم بوزن سطح الماء من البحر المتوسط والبحر الرومي، فوجدوا المتوسط يعلو الرومي بشيء يسير فأمر برفع البلاد التي على ساحل البحر الرومي ونقلها من الحضيض إلى الأعلى، ثم أمر بحفر ما بين طنجة وبلاط الأندلس من الأرض، فحفرت حتى ظهرت الجبال السفلية، وبينها رصيفاً بالحجر والجيار ببناء محكماً، وجعل طوله اثنى عشر ميلاً وهي المسافة التي كانت بين البحرين. وبين رصيفاً آخر يقابلة من ناحية طنجة وجعل بين الرصيفين سعة ستة أميال، فلما كمل الرصيفان حفر

(١) كلام ابن الكلبي هذا غير محرر ومخالف للحقيقة كما هو معلوم، لأن صقلية جزيرة بوسط البحر المتوسط بين قارتي أوروبا وإفريقيا وهي إلى أوروبا أقرب، وإنما ساق المؤلف هذا النقل هنا ليستقصي ما ذكره الناس في هذا الموضوع سيما وقد ساق اعتراف ذلك ونقل إنكاره عن الحافظين: ابن عبد البر وابن حزم.

من جهة البحر الأعظم وأطلق فم الماء بين الرصيفين فدخل في البحر الرومي ثم ارتفع الماء فأغرق مدنًا كثيرة وأهلك أممًا عظيمة كانت على الشطرين، وطما الماء على الرصيفين بإحدى عشرة قامة، فاما الرصيف الذي يلي بلاد الأندلس فإنه يظهر في بعض الأوقات إذا نقص الماء ظهوراً بينما مستقيماً على خط واحد، وأهل الجزيرة يسمونه القنطرة، وأما الرصيف الذي يلي جهة العدوة فإن الماء حمله في صدره واحتفر ما خلفه من الأرض بنحو اثنى عشر ميلاً، وعلى طرفه من جهة المغرب قصر المجاز وسبنة وطنجة، وعلى طرفه من الناحية الأخرى جبل طارق بن زياد وجزيرة طريف بن مالك والجزيرة الخضراء؛ وما بين سبتة والخضراء هو عرض البحر المسمى بالزقاق وبالبوغاز أيضاً اهـ.

وما ذكروه من أن أرض المغرب كانت متصلة بأرض الأندلس نحوه في توارييخ الفرنج القديمة، غير أنهم يسمون الملك الذي فتح الباغاز هرقل الجبار، وعند ابن سعيد: أنه كان فيما بين قصر المجاز وطريف قنطرة عظيمة قد وصلت ما بين البررين يزعم الناس أن الإسكندر بناها ليعبر عليها من بر الأندلس إلى بر العدوة والله تعالى أعلم بحقيقة الأمر.

وفي توارييخ الفرنج المقطوع بصحتها عندهم: أن ملوك الروم الأولى حاربوا القرطاجيين من أهل إفريقيا والمغرب وغلبواهم على البلاد وهدموا في بعض تلك الحروب مدينة قرطاجنة الشهيره الذكر. قال الشيخ رفاعة في بداية القدماء ما نصه: «قرطاجنة مدينة بأرض إفريقيا هي إحدى مدن الدنيا الشهيره، وقد هدمها الروم قبل ميلاد المسيح عليه السلام بمائة وست وأربعين سنة ثم أ始建ت ثانية وخرابها العرب حتى إنه لا يرى الآن شيء من آثارها إلا بغاية الجهود وبقرب موضعها مدينة تونس اهـ.

وقال ابن خلدون في كتاب طبيعة العمران حين تكلم على قيادة الأساطيل ما نصه: «وقد كانت الروم والإفرنجية والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومي، وكان أكثر حروفهم ومتاجرهم في السفن، فكانوا مهرة

في ركوبه وال الحرب في أسطيله ولما أسف من هم إلى ملك العدوة الجنوبيّة، مثل الروم إلى إفريقيّة والقوط إلى المغرب، أجازوا إليها في الأسطيل وملكوها وتغلبوا على البربر بها وانتزعا من أيديهم أمرها وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وبسيطلة وجلواء ومرناق ورشال وطنجة، وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب صاحب روما ويبعث الأسطيل لحربه مشحونة بالعساكر والعدد، فكانت هذه عادة لأهل هذا البحر الساكنين حقاً فيه معروفة في القديم والحديث اهـ.

قلت: الفرنج اليوم جازمون بأن ملوك الروم الأولى كانوا مستولين على أرض المغرب بأسراها قد ملقوها مدة طويلة من الزمان قبل ميلاد المسيح عليه السلام بكثير وأن الأمصار القديمة بالغرب مثل سبتة وطنجة وسلا وشالة ووليلي ونحوها هي من بنائهم أو بناء القرطاجيين قبلهم ولقد قال لي بعض أهل الخبرة منهم: إن مدينة سلا كانت موجودة في ذلك العصر وأنه رأها مذكورة بهذا الاسم في توارييخ الروم^(١) القديمة المذكورة فيها أخبار المغرب وأمساره، وحققت عليه ذلك فجزم به ولم يرجع وما يقال من أن سبتة وسلا من بناء بعض أولاد نوح عليه السلام فقول بعيد عن الصحة نعم قد ذكر في التوارية عند الكلام على ذرية نوح وتناسليهم بالأرض إنه كان منهم سبتة بن كوش بن حام بن نوح عليه السلام ويبعد أن تكون المدينة من بناء هذا الرجل أو بناء بعض بنيه بعد العهد وطول المدة وعدم نقل ذلك من وجه صحيح، وإن كانت أرض المغرب هي لأولاد حام من قديم الزمان والله أعلم.

ولما أخذ الروم بدين النصرانية في زمن قسطنطين الملك، وكانت لهم اليد العالية على من جاورهم من الأمم، مثل الحبشة والقبط والفرنج والقوط وغيرهم، حملوهم على الأخذ به فدانوا به معهم وتلقوا عنهم وبشه في

(١) يعني توارييخ اللاتينين.

بلادهم ورعاياهم، وكان الفرنج مجاوري للبربر في المغرب الأدنى، والقوط مجاوري لهم في الأقصى، ليس بينهم وبينهم إلا خليج البحر. فحملوا أهل السواحل منهم على الأخذ بذلك الدين فدانوا به أيضاً، ونظر القياصرة يومئذ منسحب عن الجميع وأمرهم نافذ في الكل، واستمر الحال على ذلك حتى جاء الله بالإسلام وأظهره على الدين كله، فدانت به البربر على ما ذكره إن شاء الله فلهذا السبب كان كسيلة الأوروبي ويليان الغماري وغيرهما من كبار البربر نصارى.

وقال ابن خلدون: «كان للبربر في الضواحي وراء ملك الأصار المرهوبة الحامية ما شاء الله من قوة وعدة وعدد وملوك ورؤساء وأقباب وأمراء لا يرامون بذلك، ولا تناههم الروم والفرنج في ضواحיהם تلك بمسخرة ولا إساءة» ثم قال: «وكانوا يؤذون الجباية لهرقل ملك القسطنطينية - كما كان المقوقس صاحب مصر والإسكندرية وبرقة يؤدي الجباية له - وكما كان صاحب طرابلس ولبيدة وصبرة وصاحب صقلية وصاحب الأندلس من القوط لما كان الروم قد غلبو على هؤلاء الأمم أجمع وعنهم أخذوا دين النصرانية، وكان الفرنجة هم الذين ولوا أمر إفريقيا ولم تكن للروم فيها ولاية وإنما كان كل من كان منهم بها جند للفرنج ومن حشودهم. وما يسمع في كتب الفتح من ذكر الروم في فتح إفريقيا فمن باب التغليب، لأن العرب يومئذ لم يكونوا يعرفون الفرنج وما قاتلوا في الشام إلا الروم فظنوا أنهم هم الغالبون على أمم النصرانية، فإن هرقل هو ملك النصرانية كلها فغلبوا اسم الروم على جميع أمم النصرانية ونقلت الأخبار عن العرب كما هي فجر جير المقتول عند الفتح من الفرنج وليس من الروم، وكذلك الأمة الذين كانوا بإفريقيا غالبين على البربر ونازلين بمدنها وحصونها كانوا من الفرنجة» اهـ.

القول في تحديد المغرب وذكر حال البربر بعد الإسلام

اعلم أن لفظ المغرب يطلق في عرف أهله على ناحية من الأرض معروفة بعينها، حدها من جهة مغرب الشمس البحر المحيط المعروف بالكبير، ومن جهة شرق الشمس بلاد برقة وما خلفها إلى الإسكندرية ومصر، فبرقة خارجة عن بلاد المغرب بهذا الاعتبار، وببلاد طرابلس وما دونها إلى جهة البحر المحيط داخلة فيه، وحدها من جهة الشمال البحر الرومي المفزع عن المحيط ويعرف هذا الرومي بالصغير، ومن جهة الجنوب جبال الرمل الفاصلة بين بلاد السودان وببلاد البربر، وتعرف عند العرب الرحالة هنالك بالعرق.

ثم هذا المغرب يشتمل على ثلات ممالك: مملكة إفريقية وهي المغرب الأدنى - وقاعدتها في صدر الإسلام مدينة القิروان وفي هذا العصر مدينة تونس - وسمى أدنى لأنه أقرب إلى بلاد العرب دار الخلافة بالحجاز. ثم بعد إفريقية مملكة المغرب الأوسط وقاعدتها تلمسان وجزائربني مزغنة وهذه المملكة اليوم في يد فرنسا ملكوها في سنة ست وأربعين ومائتين ألف، وأهلها مسلمون. ثم بعد ذلك مملكة المغرب الأقصى وسمى الأقصى لأنه أبعد الممالك الثلاث عن دار الخلافة في صدر الإسلام، وحد هذا الأقصى من جهة المغرب البحر المحيط، ومن جهة الشرق وادي ملوية مع جبال تازا، ومن جهة الشمال البحر الرومي، ومن جهة الجنوب جبل درن قاله ابن خلدون.

وفي تقسيم الفرنج أذ المغرب الأقصى يشتمل على خمس عمارات: عمالة فاس وعمالة مراكش وعمالة السوس وعمالة درعة وعمالة تافيلالت. ودار الملك به تارة فاس وتارة مراكش^(١)، وهو في الأغلب ديار المصامدة

(١) وفي عصرنا هذا صارت العاصمة السياسية الإدارية هي: الرباط.

من البربر ويساكنهم فيه عوالم من صنهاجة ومضغرة وأوربة وغيرهم لكتهم قليل بالنسبة إلى المصاومة ويساكنهم فيه أيضاً عالم من العرب أهل الخيام، انتقلوا من جزيرة العرب إلى إفريقيا ثم من إفريقيا إليه أواخر المائة السادسة أيام الخليفة يعقوب المنصور الموحدي وهم اليوم قبائل عديدة يرجعون في نسبهم إلى رياح وجسم، فاما رياح فهم منبني هلال بن عامر بن صعصعة، وأما جسم فهم بنو معاوية بن بكر وكلهم ينتهي نسبهم إلى مصر، ويضاف إليهم قبائل آخر نحقق الكلام فيهم بعد هذا إن شاء الله.

ثم قد علمت أن كلامنا بالقصد الأول في هذا الكتاب إنما هو على المغرب الأقصى، لكننا نتكلّم أولاً على أخبار المغرب مطلقاً، ونذكر أمراءه الموجهين من قبل الخلفاء بالشرق على التفصيل ما دام نظيرهم منسحجاً عليه وظلّهم متداً إليه، إذ كان أمر الخلافة في صدر الإسلام متحداً وحكمها مجتمعاً وكلمتها نافذة في جميع ممالك الإسلام شرقاً وغرباً، بحيث لا يخرج قطر من الأقطار ولا مصر من الأمصار فيما بعد أو دنا عن الأرض عن نظر الخليفة الأعظم، وقد كان ذلك ديناً متبعاً وحكماً مجمعاً عليه، ولا تصح لأحد إمارة أو ولاية إلا بالاستناد إليه، حتى إذا طال العهد وضعف أمر الخليفة وتقلص ظلّها من القاصية، تفرقت ممالك الإسلام البعيدة عن دارها وتوزعتها الثوار منبني هاشم وغيرهم واستبد الأمراء النازحون عنها كل بما غلب عليه وسار أمر الوحدة إلى الكثرة وحكم الاجتماع إلى الفرقة، فلهذا نتكلّم الآن على أخبار المغرب مطلقاً، ونذكر ولاته الموجهين إليه من قبل الخلفاء واحداً بعد واحداً إلى زمن إدريس بن عبد الله المستبد بملك المغرب الأقصى، والمقطع له عماده من ممالك الإسلامية، فحيثني نفرد الكلام عليه بخصوصه على ما شرطناه، فاما الآن فلا يمكننا الكلام عليه وحده لأنـه - والحالة هذه - مندرج في غيره من ممالك المغرب، إذ الوالي الموجه من قبل الخليفة في صدر الإسلام كان يكون والياً على إفريقيا وما بعدها من بلاد المغرب إلى البحر المتوسط، وقد تضاف إلى نظره الأندلس بل كان الوالي

بمصر قد يكون نظرة شاملة لجميع بلاد المغرب حسبما نقف عليه، فاعرف هذه الجملة ولتكن منك على بال.
وأما حال البرير بعد الإسلام فيعرف من أخبار الولاية التي نسردها الآن
ويالله التوفيق.

ولادة عمرو بن العاص رضي الله عنه وفتحه برقة وطرابلس

لما كانت خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفتح عمرو بن العاص مصر والإسكندرية وفرغ منها سار في سنة إحدى وعشرين من الهجرة إلى برقة - وكانت تسمى في القديم إنطابلس - فصالحه أهلها على الجزية، ثم سار بعدها إلى طرابلس فحاصرها شهراً، وكانت مكشوفة السور من جانب البحر وسفن الروم في مرساها، فحصر الماء في بعض الأيام وانكشف أمرها لبعض المسلمين المحاصرين لها، فاقتحموا البلد فيما بين البحر والبيوت فلم يكن للروم ملجاً إلا سفنهم، وارتفع الصياح فأقبل عمرو بعساكره فدخل المدينة ولم يفلت الروم إلا بما خف في المراكب، ثم عطف عمرو رضي الله عنه على مدينة صبرة^(١) وكانت قد أمنوا بمنعة طرابلس واشتغال المسلمين بمحاصرتها فصيّبهم^(٢) في جيش المسلمين واقتحموا عليهم عنوة وكمل الفتح، ورجع عمرو إلى برقة فصالحه أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار جزية، وكان أكثر أهل برقة لواتة وهم بنو لوي الأكبر، وأكثر أهل طرابلس وصبرة نفوسه وكلتا القبيلتين من البر.

ولما فرغ عمرو رضي الله عنه من أمر طرابلس وما معها استأند عمر بن

(١) لم يسر عمرو بنفسه إلى صبرة إنما بعث سرية من الجيش (مؤلف).

(٢) وفي الاكتفاء: لما ظفر عمرو بمدينة طرابلس جرد خيلاً كثيفة من ليلته وأمرهم بسرعة السير فصبحت خيله مدينة صبرة وهو غافلون. (مؤلف).

الخطاب رضي الله عنه في التقدم إلى إفريقيا فمنعه وقال: تلك المفرقة ولست بإفريقية، أو كلاماً هنا معناه، فامتثل وعاد إلى مصر، فكان عمرو بن العاص أول أمير للمسلمين وطئت خيله أرض المغرب لكنه لم يصل إلى إفريقيا ولا كان من البرابر إسلام. غير أن صاحب كتاب الجمان نقل أنه لما كانت خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه واستفتحت مدينة مصر - وكان عليها عمرو بن العاص - قدم عليه ستة نفر من البربر محلقين الرؤوس واللحى فقال لهم عمرو: من أنتم وما الذي جاء بكم؟ قالوا: رغبنا في الإسلام فجئنا له لأن جدودنا قد أوصونا بذلك! فوجههم عمرو إلى عمر رضي الله عنه وكتب إليه بخبرهم، فلما قدموا عليه - وهم لا يعرفون لسان العرب - كلهم الترجمان على لسان عمر فقال لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن بنو مازيع، فقال عمر لجلسائه: هل سمعتم قط بهؤلاء؟ فقال شيخ من قريش: يا أمير المؤمنين هؤلاء البربر من ذرية بر بن قيس بن عيلان خرج مغاضباً لأبيه وإخوته فقالوا بر بر أي أخذ البرية، فقال لهم عمر رضي الله عنه: ما علامتكم في بلادكم؟ قالوا: لا، قال: ألكم أعلام تهتدون بها؟ قالوا: لا، قال عمر: والله لقد كنت مع رسول الله ﷺ في بعض مغازيه فنظرت إلى قلة الجيش وبكيت فقال لي رسول الله ﷺ: «يا عمر لا تحزن فإن الله سيعز هذا الدين بقوم من المغرب ليس لهم مداين ولا حصون ولا أسواق ولا علامات يهتدون بها في الطرق»، ثم قال عمر: فالحمد لله الذي من عليّ برؤيتهم، وكتب أكرمهم ووصلهم وقدمهم على من سواهم من الجيوش القادمة عليه، وكتب إلى عمرو بن العاص أن يجعلهم على مقدمة المسلمين، وكانوا من أخذ شتى أهـ والله أعلم.

ولاية عبد الله بن سعد بن أبي سرح وفتحه إفريقية

لما كانت خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه عزل عمرو بن العاص عن مصر، وولى عليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري - أخاه من الرضاعة - وأمره بغزو إفريقية سنة خمس وعشرين من الهجرة وقال له: إن فتح الله عليك ذلك خمس الخامس من الغنائم، ثم عقد عثمان لعبد الله بن نافع بن عبد قيس على جند وعبد الله بن نافع بن الحارث على آخر وسرحهما فخرجا إلى إفريقية في عشرة آلاف وصالحهم أهلها على مال يؤدونه، ولم يقدروا على التوغل فيها لكثرتها أهلها. ثم إن عبد الله بن أبي سرح استأذن عثمان في ذلك واستمده، فاستشار عثمان الصحابة فأشاروا به فجهز العساكر من المدينة - وفيهم جماعة من الصحابة منهم: ابن عباس وابن عمرو بن العاص وابن جعفر والحسن والحسين وابن الزبير - وقيل لحقهم مداداً - وساروا مع عبد الله بن سعد سنة ست وعشرين ولقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة، ثم ساروا إلى طرابلس فنهبوا الروم عندها ثم تجاوزوها إلى إفريقية وبثوا السرايا في كل ناحية وكان ملكهم جرجير الفرنجي يملك ما بين طرابلس وطنجة تحت ولاية هرقل ويحمل إليه الخراج، فلما بلغه الخبر جمع مائة وعشرين ألفاً من العساكر ولقيهم على يوم وليلة من سبطة - دار ملكهم - وأقاموا يقتلون، ودعوه إلى الإسلام أو الجزية فاستكبار. ولحقهم عبد الله بن الزبير مداداً بعثه عثمان رضي الله عنه لما أبطأت عليه أخبارهم، وسمع جرجير بوصول المدد فت ذلك في عضده، وشهد ابن الزبير معهم القتال وقد غاب ابن أبي سرح فسأل عنه فقيل له: إنه سمع منادي جرجير يقول: من قتل ابن أبي سرح فله مائة ألف دينار وأزوجه ابتي» فخاف وتآخر عن شهود القتال، فقال له ابن الزبير: تنادي أنت: «بأن من قتل جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على

بلاده» فخاف جرجير أشد منه، ثم أشار ابن الزبير على ابن أبي سرح أن يترك جماعة من أبطال المسلمين المشاهير متأهبين للحرب ويقاتل الروم بباقي العسكر إلى أن يضجروا فيركبهم بالأخرين على غرة، قال: لعل الله ينصرنا عليهم، ووافق على ذلك أعيان الصحابة ففعلوا وركبوا من الغد إلى الزوال، وألحووا عليهم حتى أتبعوهم ثم افترقوا وأركب عبد الله الفريق الذين كانوا مستريحين فكثروا وحملوا حملة رجل واحد حتى غشوا الروم في خيامهم فانهزموا وقتل كثير منهم، وقتل ابن الزبير جرجير وحيزرت ابنته سبيبة فقتلها ابن أبي سرح ابن الزبير، ثم حاصر ابن أبي سرح سبيطلة ففتحها وخرابها، وكان سهم الفارس فيها ثلاثة آلاف دينار وسهم الرجل ألفاً. وبئث جيوشه في البلاد إلى قصبة فسيوا وغنموا، وبعث عسكراً إلى حصن الأجم وقد اجتمع به أهل البلاد فحاصره وفتحه على الأمان ثم صالحه أهل إفريقيا على ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار.

وأرسل ابن الزبير بخبر الفتح وبالخمس إلى المدينة فاشترىه مروان بن الحكم بخمسمائة ألف دينار وبعض الناس يقول أعطاه إيهاد عثمان رضي الله عنه ولا يصح، وإنما أعطى ابن أبي سرح خمس الخمس من الغزو الأولي. وانحاز الفرنجة ومن معهم من الروم بعد الهزيمة والفتح إلى حصنون إفريقيا. وانساح المسلمون في البسائق بالغارات ووقع بينهم وبين أهل الضواحي من البربر زحوف وقتل وسيبي حتى لقد أسرروا يومئذ من ملوك البربر صولات بن وزمار الزناتي ثم المغاروي - جدبني خزر ملوك تلمسان - فرفوعه إلى عثمان رضي الله عنه فأسلم على يده فمن عليه وأطلقه وعهد له على قومه، ويقال إنما وصله وادداً فأكرم وفاته والله أعلم.

ثم رغب الفرنج والبربر في السلم وسألوا الصلح وشرطوا لابن أبي سرح ثلاثمائة قنطار من الذهب على أن يرحل عنهم بالعرب ويخرج من بلادهم ففعل، ورجع المسلمين إلى المشرق بعد مقامهم بإفريقيا سنة وثلاثة أشهر. ولما بلغ هرقل ملك الروم أن أهل إفريقيا صالحوا المسلمين بذلك المال

الذي أعطوه غصب عليهم، وبعث بطريقاً^(١) يأخذ منهم مثل ذلك، فنزل قرطاجنة وأخبرهم بما جاء له فأبوا وقالوا: قد كان ينبغي له أن يسعدنا فيما نزل بنا، فقاتلهم بطريق وهزمهم وطرد الملك^(٢) الذي ولوه عليهم بعد جرجير، فلحق بالشام - وقد اجتمع الناس على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه - فاستجاشه على إفريقية فبعث معه معاوية بن حديج السكوني على ما ذكره.

ولاية معاوية بن حديج على المغرب

هو معاوية بن حديج بالحاء المهملة مصغراً الكندي ثم السكوني، له صحبة وممن شهد مع عمرو بن العاص فتح مصر وقدم بخبر الفتح على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولما قدم علّج إفريقية على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وشكى إليه ما ناله من صاحب قصر بعث معه معاوية بن حديج هذا في عسكر ضخم سنة خمس وأربعين، فلما وصل إلى الإسكندرية هلك العلج ومضى معاوية فقدم إفريقية في عشرة آلاف فنزل قمبونية فسرح إليه بطريق ثلاثين ألف مقاتل كان قصر قد وجهها من القسطنطينية في البحر لمدافعة العرب عن إفريقية فلم تغن شيئاً، وقاتلهم معاوية فهزّهم عند حصن الأجم ثم بث السرايا ودوخ البلاد، فبعث عبد الله بن الزبير إلى سوسة فافتتحها، ثم بعث عبد الملك بن مروان إلى جلواء فافتتحها كذلك. وقال ابن خلدون: «إن معاوية حاصر حصن جلواء^(٣) فامتنع عليه حتى سقط ذات يوم سورة فملكه المسلمين وغنموا ما فيه».

(١) اسمه في تواریخ الروم نیسیفور هکذا: (Nicéphore).

(٢) اسمه جناها أو هباها. (Jenaha, Habahia).

(٣) وهذه غير جلواء العراق التي تقدم فتحها في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ثم وجه جيشاً في البحر إلى صقلية في مائتي مركب فأثخنوا فيها ثم فتح بنزرت وظهر الإسلام في البربر ثم عاد إلى مصر بعد أن خلد آثاراً حسية، وبينى بمحل القبروان آباراً ثم عزله معاوية بن أبي سفيان عن إفريقية وأقره على مصر فقط، ثم عزله عنها في خبر ليس ذكره من غرضنا.

ولادة عقبة بن نافع الفهري على المغرب وبناؤه مدينة القيروان

هو عقبة بن نافع بن عبد القيس القرشي الفهري صحابي بالمولد. وهو آخر من ولد المغرب من الصحابة، وكان عمرو بن العاص وهو أمير على مصر قد استعمل عقبة هذا وهو ابن خالته على إفريقية فانتهى إلى لواته ومزانة، فأطاعوا ثم كفروا فغزاهم وقتل وسبى، ثم افتتح سنة اثنين وأربعين غداموس من تخوم السودان، وفي السنة بعدها افتتح ودان وكوراً من كور السودان وأثخن في تلك النواحي وكان له فيها جهاد وفتح فظهر غناوه وعرفت نجدته وكفایته، فلما كانت سنة خمسين ولاه معاوية رضي الله عنه على إفريقية استقللاً وبعث معه عشرة آلاف فارس فدخل عقبة إفريقية بعد رجوع معاوية بن حديث عنها، وانضاف إليه مسلمة البربر فكثر جممه ووضع السيف في أهلها لأنهم كانوا إذا جاءت عساكر المسلمين أسلموا فإذا رجعوا عنها ارتدوا. ثم رأى عقبة رحمه الله أن يتخذ مدينة يعتصم بها جيش المسلمين من البربر وتقام بها الجموع والأعياد فاستشار من معه فقالوا: نحن أصحاب إيل ولا حاجة لنا بمحاورة البحر فتسقط علينا الفرج فانظر لنا ينظر الله.

قال صاحب الجمان: «وكان بقعة القيروان غيبة لا يأوي إليها إلا الوحوش والسباع فصاح بها عقبة: أن اخرجني أيتها الوحوش والهوا من يا ذن الله عز وجل. فبقيت أرض القيروان أربعين سنة لا يرى فيها شيء من الهوا

المؤذية ولا السباع العادية . ثم شرع في بناها وقال هذه أوسع لإبلكم وأمن عليكم من روم القسطنطينية وإفرنج الجزيرة» . وعن الليث بن سعد أن عقبة رحمه الله غزا إفريقيا فأتى وادي القิروان^(١) فبات عليه هو وأصحابه حتى إذا أصبح وقف على رأس الوادي فقال : «يا أهل الوادي أطعنوا فإننا نازلون» قال ذلك ثلاثة فجعلت الحيات تناسب والعقارب وغيرها مما لا يعرف من الدواب تخرج ذاهبة - وهم قيام ينتظرون إليها - من حين أصبحوا حتى أوهجهتهم الشمس ، وحتى لم يروا منها شيئاً فنزلوا الوادي عند ذلك . قال الليث : فحدثني زياد بن عجلان أن أهل إفريقيا أقاموا بعد ذلك أربعين سنة ولو التمسـت حـيـة أو عـقـرـبـ بـأـلـفـ دـيـنـارـ ما وـجـدـتـ اـهـ .

- وفي الجمان : لما شرع عقبة رحمه الله في بناء جامعها تنازعوا في القبلة فأتى عقبة آت في النوم فوضع له علامـةـ على سـمـتـ القـبـلـةـ فـلـمـ اـنـتـهـ أـعـلـمـ الناسـ بـذـلـكـ فـأـتـوـاـ إـلـىـ المـوـضـعـ فـوـجـدـوـاـ الـعـلـامـةـ كـمـ قـالـ فـوـقـ عـقـبـةـ يـنـظـرـ إـلـىـ القـبـلـةـ فـسـمـعـ تـكـبـيرـةـ فـيـ الـجـوـ مـنـ نـاحـيـةـ الـقـبـلـةـ فـنـظـرـ فـرـأـيـ الـكـعـبـةـ عـيـانـاـ وـرـأـهـ كـلـ منـ كانـ حـوـلـهـ . وـقـالـ اـبـنـ خـلـدـوـنـ : اـخـتـطـ عـقـبـةـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ الـقـيـروـانـ وـبـنـيـ بـهـ الـمـسـجـدـ الـجـامـعـ وـبـنـيـ النـاسـ مـسـاكـنـهـ وـمـسـاجـدـهـ وـكـانـ دـورـهـ ثـلـاثـةـ آلـافـ بـاعـ وـسـتـمـائـةـ بـاعـ وـكـمـلـتـ فـيـ خـمـسـ سـنـيـنـ . وـكـانـ يـغـزـوـ وـبـيـعـتـ السـرـايـاـ لـلـإـغـارـةـ وـالـهـبـ، وـدـخـلـ أـكـثـرـ الـبـرـبـرـ فـيـ الإـسـلـامـ وـاتـسـعـتـ خـطـةـ الـمـسـلـمـيـنـ وـرـسـخـ الـدـينـ اـهـ .

وقال صاحب الخلاصة النقية : اخـتـطـ عـقـبـةـ بنـ نـافـعـ الـقـيـروـانـ سـنـةـ خـمـسـيـنـ وـجـعـلـ دـورـ سـوـرـهـ اـثـنـيـ عشرـ مـيـلـاـ وـبـنـيـ بـهـ الـجـامـعـ الـأـعـظـمـ وـقـاتـلـ الـبـرـبـرـ وـشـرـدـهـمـ ثـمـ عـزـلـهـ مـعـاوـيـةـ عـنـهـ وـالـلـهـ أـعـلـمـ .

(١) وفي تاريخ الفلسفة في ترجمة «ارستيب» منهم أنه كان من مدينة القيروان من مدن برقة ، وكان هذا الفيلسوف معاصرًا لأفلاطون الحكم قبل الإسكندر ، فدل هذا على أن القيروان كانت مدينة قديمة بنواحي برقة فدشت والله أعلم وقد ذكرت أيضًا في سيرات «بولس» واضح دين النصرانية اهـ . (مؤلف).

ولاية أبي المهاجر دينار وفتحه المغرب الأوسط

كان معاوية رضي الله عنه قد ولى على مصر وإفريقية مسلمة بن مخلد (بوزن محمد) الأنصاري فاستعمل مسلمة على إفريقية مولاًه أبي المهاجر المذكور ويقال مولىبني مخزوم فقدمها سنة خمس وخمسين وأسأة عزل عقبة واستخف به لشيء كان بينهما وكره نزول القิروان فبني مدينة قربها وأخلق قيروان عقبة فدعا عقبة الله تعالى أن يمكنه منه - وكان رجلاً صالحًا مجاب الدعوة - فاستجيب له فيه على ما نذكره. ثم إن أبي المهاجر بعث حنش بن عبد الله الصناعي - صنعاء الشام - إلى جزيرة شريك وهي المعروفة الآن بالجزيرة القبلية وإليها يسلك من باب الجزيرة أحد أبواب تونس فافتتحها.

وكان كسيلة^(١) بن أغز البرنسى ثم الأوربي من أهل المغرب الأقصى من عظماء البربر وكان نصراً قد جمع الجموع من البربر والفرنج وزحف إلى المسلمين، فزحف إليهم أبو المهاجر فهزمهم حول تلمسان وتمكن من البلاد وظفر بكسيلة فأظهر الإسلام فاستيقاه أبو المهاجر واستخلصه. قال ابن خلدون: لم أقف لتلمسان على خبر أقدم من خبر ابن الرقيق من أن أبي المهاجر لما قدم إفريقية توغل في ديار المغرب ووصل إلى تلمسان وبه سميت العيون القريبة منها عيون أبي المهاجر اهـ. فهو أول أمير المسلمين وطئت خيله المغرب الأوسط.

ثم إن عقبة بن نافع لما قفل إلى المشرق شكا إلى معاوية رضي الله عنه

(١) وسماء ابن الأنبار كسيلة بن لمزم بفتح اللام والراء المهملة وبينهما ميم ساكنة وأخره ميم، هكذا في أسد الغابة في ترجمة عقبة بن نافع صفحة 421 ج 3. وذكر غيره واحد من المؤرخين إنه لمزم بالزيدي المعجمة. وأما أغز فلم نر من ذكره في التوارييخ التي وقنا عليها ولعله تصحيف.

ما ناله من أبي المهاجر فاعتذر إليه ووعده برده إلى عمله ثم ولاد ابنه يزيد على المغرب سنة اثنين وستين.

وذكر الواقدي: أن عقبة ولد المغرب سنة ست وأربعين فاختطف القيروان ثم عزله يزيد سنة اثنين وستين بأبي المهاجر فحيثُ قبض على عقبة وضيق عليه، فكتب إليه يزيد يأمره ببعثه إليه ثم أعاده والياً على إفريقية والله أعلم.

ولادة عقبة بن نافع الثانية وفتحه المغرب الأقصى ومقتله

لما توفي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وولي بعده ابنه يزيد بعث عقبة بن نافع والياً على المغرب فقدمه في التاريخ المتقدم، واعتلق أبو المهاجر وخرب مدینته وعمر القيروان وعزز على الجهاد، فاستخلف زهير بن قيس البلوي على القيروان - ويقال ولاد على مقدمة جيشه - وخرج في جيش كثيف ففتح حصن لميس ومدينة باغانة المطل عليها جبل أوراس. وفتح بلاد الجريد فتحاً ثانياً، وصالح أهل فزان، وسار إلى الزاب وتأهرت فشتت جموع البربر ومن انضم إليهم من الفرنج؛ ثم تقدم إلى المغرب الأقصى فأنتخن في أهله إلى إن وصل إلى البحر المحيط، فكان عقبة رحمة الله أول أمير المسلمين وطئت خيله المغرب الأقصى.

وقال ابن خلدون: قدم عقبة بن نافع المغرب في ولادته الثانية سنة اثنين وستين، فاضطُّنَّ على كسيلة صحبته لأبي المهاجر ونكبه. وتقدم أبو المهاجر إلى عقبة في اصطนาعه فلم يقبل، ثم زحف إلى المغرب وعلى مقدمته زهير بن قيس البلوي، فدوخه ولقي ملوك البربر ومن انضم إليهم من الفرنجة بالزاب وتأهرت فهزمهم واستباحهم. وأذعن له يليان أمير غمارة ولاطفة وهاداه، ودلهم على عورات البربر وراءه بمدينة وليلي وببلاد المصاصدة والرسوس.

وقال صاحب الجمان: افتتح عقبة المغرب ونزل على طنجة فحاصرها واستنزل ملكها يليان الغماري - وكان نصراً - فنزل على حكمه بعد أن أطهأ أمواً جليلة. ثم أراد عقبة اللحاق بالجزيرة الخضراء من عدوة الأندلس، فقال له يليان: أترك كفار البربر خلفك وترمي بنفسك في بحيرة الهملاك مع الفرنج ويقطع البحر بينك وبين المدد؟ فقال عقبة: وأين كفار البربر؟ قال: بلاد السوس وهم أهل نجدة وبأس، قال عقبة: وما دينهم؟ قال: ليس لهم دين ولا يعرفون إن الله حق، وإنما هم كالبهائم - وكانوا على دين المجوسيَّة يومئذ - فتوجه عقبة نحوهم فنزل على مدينة وليلي بإزار جبل زرهون وهي يومئذ من أكبر مدن المغرب فيما بين النهرين العظيمين: سبو وورغة. - وهذه المدينة هي المسماة اليوم في لسان العامة بقصر فرعون - فافتتحها عقبة وغنم وسبى؛ ثم توجه إلى بلاد درعة والسوس فلقيته جموع البربر فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم انهزمت البربر بعد حروب صعبة، وقتلهم المسلمون قتلاً ذريعاً وتبعوا آثارهم إلى صحراء لمتونة لا يلقاهم أحد إلا هزموه.

ثم عطف عقبة على ساحل البحر المحيط الغربي، فانتهى إلى بلاد آسفي؛ وأدخل قوائمه فرسه في البحر ووقف ساعة ثم قال لأصحابه: ارفعوا أيديكم، ففعلوا، وقال: «اللهم إني لم أخرج بطرأ ولا أشراً وإنك لتعلم إنما نطلب السبب الذي طلبك ذو القرنين وهو أن تبعد ولا يشرك بك شيء»، اللهم إنا معاذون لدین الكفر ومدافعون عن دین الإسلام، فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والإكرام». ثم انصرف راجعاً.

وقال ابن خلدون أيضاً: وصل عقبة إلى جبال درن وقاتل المصامدة بها فكانت بينه وبينهم حروب، وحاصروه بجبل درن فنهضت إليهم جموع زناتة - وكانت خالصة للمسلمين منذ إسلام مغراوة - فأفرجت المصامدة عن عقبة، وأنجخ فيهم حتى حملهم على طاعة الإسلام، ودخل بلادهم، ثم أجاز إلى بلاد السوس لقتال من بها من صنهاجة - أهل اللثام - وهم يومئذ على دين

المجوسية ولم يدينوا بالنصرانية، فأثخن فيهم وانتهى إلى تارودانت وهزم جموع البربر، وقاتل مسوقة من وراء السوس ودوخهم وقفل راجعاً.

وكان كسيلة الأوربي في جيش عقبة قد استصحبه في غزواته هذه، وكان يستهين به ويمتهنه؛ فأمره يوماً بسلخ شاة بين يديه فدفعها كسيلة إلى غلمانه، فأراده عقبة على أن يتولاها بنفسه وانتهراً، فقام إليها كسيلة مغضباً وجعل كلما دس يده في الشاة مسح بلحيته، والعرب يقولون: ما هذا يا ببريري؟ فيقول: هو أجيراً فيقول لهم شيخ منهم: إن البربري يتوعدكم. وبلغ ذاك أبو المهاجر - وهو معتقل عند عقبة - فبعث إليه ينهاه ويقول: «كان رسول الله ﷺ يستأنف جبابرة العرب، وأنت تعمد إلى رجل جبار في قومه ويدار عزه حديث عهد بالشرك فتستفسد» وأشار عليه بأن يتوثق منه وخوفه غائلته. فتهاون عقبة بقوله، فلما قتل من غزاته هذه وانتهى إلى طينة من أرض الزاب - وكسيلة أثناء هذا كله في صحبته - صرف العساكر إلى القيروان أزواجاً، ثقة بما دوخ من البلاد وأذل من البربر حتى بقي في قليل من الجندي، فلما وصل إلى تهودة وأراد أن ينزل بها الحامية نظر إليه الفرنجة وطمعوا فيه فراسلوا كسيلة ودلوه على الفرصة فيه فانهزموا وراسل بنى عمه ومنتبعهم من البربر فاتبعوا أثر عقبة وأصحابه حتى إذا غشوه بتهودة ترجل القوم وكسرروا أحغان سيفهم ونزل الصبر، واستلحם عقبة وأصحابه فلم يفلت منهم أحد، وكانوا زهاء ثلاثة من كبار الصحابة والتابعين استشهدوا في مسرع واحد، وفيهم أبو المهاجر كان عقبة قد استصحبه في اعتقاله - كما قلنا - فأبلى رضي الله عنه في ذلك اليوم البلاء الحسن.

قال ابن خلدون: وأجداث الصحابة رضي الله عنهم أولئك الشهداء - أعني عقبة وأصحابه - بمكانهم من أرض الزاب لهذا العهد، وقد جعل على قبورهم أنسنة، ثم جصصت، واتخذت على المكان مسجد عرف باسم عقبة وهو في عداد المزارات ومظان البركات بل هو أشرف مزور من الأجداث في بقاع الأرض لما توفر فيه من عدد الشهداء من الصحابة والتابعين الذين لا

يبلغ أحد مد أحدهم ولا نصيفه.

وأسر من الصحابة يومئذ: محمد بن أوس الأنصاري ويزيد بن خلف العبسي ونفر معهما، ففداهم ابن مصاد صاحب قفصة وبعث بهم إلى القبروان.

ثم زحف كسيلة بعد الواقعة إلى جهة القبروان، إذ هي دار الإمارة بالمغرب يومئذ وبها جمهور العرب ووجوده الإسلام، فبلغهم الخبر وعظم عليهم الأمر فقام زهر بن قيس البلوي فيهم خطيباً وقال: «يا معشر المسلمين إن أصحابكم قد دخلوا الجنة فاسلكوا سبيلهم أو يفتح الله عليكم». فخالف حنش بن عبد الله الصناعي لما علم أنه لا طاقة للمسلمين بما دهمهم من أمر البرير ورأى أن النجاة بمن معه من المسلمين أولى؛ ونادى في الناس بالرحيل إلى مشرقهم فاتبعوه إلا قليلاً منهم، وبقي زهير في أهل بيته فاضطر إلى الخروج وسار إلى برقة فأقام بها مطلأً على المغرب ومنتظراً للمدد من الخلفاء.

واجتمع إلى كسيلة جميع أهل المغرب من البرير والفرنجة وعظم أمره؛ وتقدم إلى القبروان فاستولى عليها في المحرم سنة أربع وستين وفر منها بقية العرب فلحقوا بزهير ولم يقم بها إلا أصحاب الذاري والاثقال فأمنهم كسيلة؛ وثبتت قدمه بالقبروان واستمر أميراً على البرير ومن بقي بها من العرب خمس سنين.

وقارن ذلك مهلك يزيد بن معاوية، وفتنة الضحاك بن قيس مع مروان ابن الحكم بمرج راهط من أرض الشام وحروب آل الزبير؛ فاضطرب أمر الخلافة بالشرق، واضطرب المغرب ناراً، وفشت الردة في زناتة والبرانس إلى أن استقل عبد الملك بن مروان بالخلافة وأذهب آثار الفتنة من الشرق فالتفت إلى المغرب وتلافي أمره على ما ذكره.

ذكر من دخل المغرب من الصحابة مرتبة أسماؤهم على حروف المعجم

فمنهم بلال بن حارث بن عاصم المزني أبو عبد الرحمن من أهل المدينة أقطعه النبي ﷺ العقيق، وكان صاحب لواء مزيينة يوم الفتح، ذكره صاحب الخلاصة الندية فيمن دخل المغرب.

ومنهم جرهد بن خويلد الأسد أو الإسلامي، ذكر صاحب الإشراق أنه من جملة من دخل إفريقية من أرض المغرب.

ومنهم جبلة بن عمرو بن ثعلبة بن أسيرة الأنصاري أخو أبي مسعود البدرى قال في التجريد: شهد أحداً وشهد فتح مصر وصفين مع علي، وغزا إفريقية مع معاوية بن حدیج سنة خمسين. وكان فاضلاً من فقهاء الصحابة روى ابن منه و محمد بن الربيع من طريق مالك بن أبي عمران عن سليمان بن يسار أنه سئل عن التفل في الغزو فقال: لم أر أحداً يعطيه غير أن ابن حدیج نقلنا من إفريقية الثلث بعد الخامس ومعنا من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين الأولين ناس كثیر، فأبى جبلة بن عمرو الأنصاري أن يأخذ منه شيئاً.

ومنهم الحسنان رضي الله عنهمما على ما ذكره ابن خلدون وهم سيداً شباب أهل الجنة وريحاناتاً للرسول ﷺ، أشهر من أن يعرف بهما.

ومنهم الحارث بن حبيب بن خزيمة القرشي العامري ذكره خليفة بن خياط فيمن نزل مصر من الصحابة قال: وقتل بإفريقية مع معبد بن العباس بن عبد المطلب.

ومنهم حمزة بن عمرو الإسلامي ذكره في الإشراق.

ومنهم حبان - بالكسر وموحدة - ابن أبي جبلة قال في الإصابة: له إدراك، قال ابن يونس: بعثه عمر بن الخطاب إلى أهل مصر يفهمهم؛ وذكره

ابن حبان في ثقات التابعين وقال غيره مات بإفريقية.

ومنهم خالد بن ثابت العجلاني الفهمي، قال ابن يونس: شهد فتح مصر وولي بحر مصر سنة إحدى وخمسين، وأغزاه مسلمة بن مخلد إفريقية سنة أربع وخمسين. قال في الإصابة: «ذكرته اعتماداً على أنهم كانوا لا يؤمرون في الفتوح إلا الصحابة».

ومنهم ربيعة بن عباد الديلي، ذكره الواقدي فيمن دخل مصر من الصحابة لغزو المغرب، قال مالك: وأبوه بكسر المهملة وتحقيق المودحة على الصواب ويقال بالفتح والتشديد؛ ذكر خليفة وابن سعد أنه مات في خلافة الوليد.

ومنهم رويفع بن ثابت بن السكن الأنباري ثم التجاري ولاه معاوية على طرابلس سنة ست وأربعين فغزا إفريقية، قال ابن يونس: توفي ببرقة - وهو أمير عليها - من قبل مسلمة بن مخلد سنة ست وخمسين.

ومنهم زهير بن قيس البلوي أبو شداد الآتي ذكره بعد، قال ابن يونس: يقال له صحبة.

ومنهم سفيان بن وهب الخولاني أبو أيمن له صحبة ورواية، شهد حجة الوداع وفتح مصر وإفريقية وسكن المغرب. مات سنة إحدى وسبعين.

ومنهم سلكان بن مالك، قال محمد بن الربيع ذكره الواقدي فيمن دخل مصر لغزو المغرب.

ومنهم سلمة بن الأكوع الإسلامي الصحابي المشهور، ذكره الواقدي فيمن دخل مصر من الصحابة لغزو المغرب، مات بالمدينة سنة سبع وسبعين وهو ابن ثمانين سنة وكان شجاعاً راماً سابقاً، يسبق الفرس شداً على قدميه.

ومنهم العبادلة الأربع رضي الله عنهم:

فمنهم عبد الله بن عباس ترجمان القرآن - أشهر من أن يعرف به - وهو الذي قسم غنائم إفريقية يوم الفتح.

ومنهم عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما من أعلام الصحابة وعبادهم وزهادهم والمتمسكين بالسنة منهم رضي الله عنه.

ومنهم عبد الله بن الزبير بن العوام الشجاع المشهور والبطل المذكور، وهو أول مولود ولد في الإسلام بعد الهجرة، وهو قاتل جرجير يوم الفتح كما مر.

ومنهم عبد الله بن جعفر بن أبي طالب أحد أجواد الدنيا وأبطالها ذكر ابن خلدون إنه من دخل إفريقيا غازياً، فهو لاء العادلة الأربعة.

ومنهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح الأمير المعروف، وقد تقدم ذكره.

ومنهم عبد الله بن عمرو بن العاص الصحابي المشهور، أسلم قبل أبيه وهو أكثر الناس حديثاً عن رسول الله ﷺ، والصواب أن يجعل أحد العادلة بدل ابن جعفر والله أعلم. قال أبو هريرة رضي الله عنه: «ما كان أحد أكثر مني حديثاً عن رسول الله ﷺ إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا يكتب» عده ابن ناجي فيما دخل المغرب مع ابن أبي سرح.

ومنهم عبد الرحمن بن العباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ ولد على عهد النبي ﷺ وقتل بإفريقيا.

ومنهم عبيد الله بن عمر بن الخطاب، ذكره في الخلاصة الندية، وكان صحابياً بالمولد قتل يوم صفين مع معاوية.

ومنهم أخوه عاصم بن عمر وصحبته بالمولد. ذكره صاحب الخلاصة أيضاً.

ومنهم عبد الله بن نافع بن الحصين⁽¹⁾ وجده عثمان رضي الله عنه مع ابن أبي سرح لشدة بطشه وإصابة رأيه.

ومنهم عقبة بن نافع الفهري الأمير المشهور فاتح المغرب الأقصى وهو صاحب الترجمة.

(1) هذا هو الأصح لا كما تقدم في ولادة سعد بن أبي سرح من أنه ابن الحارث كما عند صاحب الاكتفاء والطبراني.

ومنهم عثمان بن عوف المزني على خلاف فيه.

وأما عمرو بن العاص رضي الله عنه فقد تقدم أنه انتهى إلى طرابلس ولم يصل إلى إفريقيا.

ومنهم مروان بن الحكم بن أبي العاص الأموي، ولد بعد الهجرة بستين ولم تحصل له رواية لأنه خرج مع أبيه إلى الطائف فأقام به، ذكره صاحب الخلاصة فيمن دخل المغرب.

ومنهم مسعود بن الأسود البلوي وقيل العدوى، قال الذهبي: «بایع تحت الشجرة» يعد في المصريين، وغزا إفريقيا.

ومنهم المسور بن مخرمة بن نوفل الزهري له ولأبيه صحبة، قال محمد بن الربيع: دخل مصر لغزو المغرب، مات سنة أربع وستين.

ومنهم المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي - والد سعيد بن المسيب - له ولأبيه صحبة ورواية، ذكره الواقدي فيمن دخل مصر لغزو المغرب.

ومنهم المطلب بن أبي وداعة القرشي السهمي، له ولأبيه صحبة وهما من مسلمة الفتح. قال محمد بن الربيع: دخل مصر لغزو المغرب فيما ذكره الواقدي.

ومنهم معاوية بن حدیج السکونی أحد الأمراء وقد تقدم ذكره.

ومنهم معبد بن العباس بن عبد المطلب ابن عم النبي ﷺ، قال الذهبي: ولد على عهد النبي ﷺ واستشهد بإفريقيا شاباً في زمن عثمان رضي الله عنه. وحكي المؤرخون: أن معاوية بن أبي سفيان أغزي سعيد بن عثمان بن عفان خراسان ومعه قثم بن العباس بن عبد المطلب فعبر سعيد النهر إلى سمرقند فاستشهد قثم بها. وكان أخوه الفضل بن عباس قد مات بأجنادين من أرض الشام، وعبد الله الترجمان مات بالطائف، وعبد الله الأصغر مات باليمن، ومعبد بإفريقيا؛ فقال الناس لم ير مثلبني أم واحدة أبعد قبوراً من بني العباس.

ومنهم المقداد بن الأسود الكندي، وليس الأسود أباه، وإنما تبناه الأسود بعد عبد يغوث وهو صغير فعرف به، وإنما اسم أبيه عمرو بن ثعلبة الكندي، كان المقداد أحد السابقين شهد بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها ولم يثبت أن أحدًا شهد بدرًا فارسًا سواه، غزا إفريقيا مع ابن أبي سرح فلما رجعوا إلى مصر قال له ابن أبي سرح في دار بناها كيف ترى؟ فقال له المقداد: إن كان من مال الله فقد أفسدت، وإن كان من مالك فقد أسرفت، فقال ابن أبي سرح: لولا أن يقال أفسدت مرتين لهدمتها.

ومنهم المنيدر الإسلامي، قال ابن يونس له صحبة وكان بإفريقية، وقال عبد الملك بن حبيب لم يدخل الأندلس من الصحابة إلا المنيدر الإفريقي. وأما المشتهرون بكنيتهم فمنهم أبو ذؤيب الهذلي الشاعر المشهور واسمه خوييلد بن خالد أسلم على عهد النبي ﷺ ولم يره وقدم المدينة يوم وفاته فشهد السقفة وبيعة أبي بكر والصلوة على النبي ﷺ ودفنه. قال ابن كثير: توفي غازياً بإفريقية في خلافة عثمان رضي الله عنه. قلت: وهلك له خمسة أولاد بمصر بالطاعون فقال قصيده العينية يرثيم وهي مشهورة.

ومنهم أبو رمثة البلوي قيل اسمه رفاعة بن يثربi، وقيل بالعكس له صحبة ورواية قال الذهبي: سكن بمصر ومات بإفريقية. ومنهم أبو زمعة البلوي، قال الذهبي اسمه عبد - وقيل عبيد بن أرقم - بايع تحت الشجرة ونزل مصر وغزا إفريقيا مع ابن حديج، روى حديث الذي قتل تسعة وتسعين نفساً وسأل هل من توبية؟ مات بإفريقية ودفنت معه شعرات من شعر رسول الله ﷺ حسبما هو مشهور، وهو صاحب المقام خارج القيروان.

ومنهم أبو ضبيس البلوي، قال الذهبي له صحبة، وقال محمد بن الربيع الجيزري دخل مصر لغزو المغرب. ومنهم أبو المبتدل خلف له صحبة ونزل إفريقيا: وقيل أبو المنيدر كذا

في التجريد وغير هؤلاء من لم يحضرنا ذكرهم.

أخرج ابن عبد الحكم: عن سليمان بن يسار قال: غزونا إفريقياً مع ابن حذيف وعمنا بشر كثير من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار أهـ. رضي الله عنهم وفعنا بهم وحشرنا في زمرتهم آمين.

ذكر اختلاف العلماء في أرض المغرب

هل فتحت^(١) عنوة أو صلحًا أو غير ذلك

قال الشيخ أبو الحسن القابسي رحمه الله في شرح الموطأ في كتاب الجهاد منه: اختلف الناس في أرض المغرب هل فتحت عنوة أو صلحًا أو مختلطة: أي البعض عنوة والبعض صلحًا على ثلاثة أقوال: الأول وهو الذي يظهر من رواية ابن القاسم عن مالك أنها فتحت بالسيف عنوة لأن جعل النظر في معادنها للإمام، ولو صح ذلك لم يجز لأحد بيع شيء منها كأرض مصر لأنها فتحت بالسيف. الثاني: إنها فتحت صلحًا. صالح أهلها عليها، فإن كان كذلك جاز بيع بعضهم من بعض. الثالث: إنها مختلطة هرب بعضهم عن بعض وتركوها، فمن بقي بيده شيء كان له وهو الصحيح والله أعلم.

ويحكى أن أحد عمال المنصور بن أبي عامر صاحب الأندلس حين تغلب على أرض فاس قال لهم: أخبروني عن أرضكم أصلح هي أم عنوة؟ فقالوا له: لا جواب لنا حتى يأتي الفقيه - يعنيون الشيخ أبي جيدة - فجاء الشيخ المذكور فسألته العامل فقال: ليست بصلاح ولا عنوة، إنما أسلم أهلها عليها! فقال: خلصكم الرجل! وأبو جيدة هذا هو دفين باببني مسافر أحد أبواب فاس المحروسة رحمه الله.

(١) انظر بسط الكلام على هذه المسألة صدر كتاب المغاربة لعبد الرحمن بن عبد القادر المجاجي فقد أجاد فيها.

ولاية زهير بن قيس البلوي على المغرب ومقتل كسيلة وما يتبع ذلك

لما استقل عبد الملك بن مروان بالخلافة كان زهير مقيناً ببرقة منذ مهلك عقبة بن نافع كما مر، فبعث إليه عبد الملك بالمدد وولاه حرب البربر وأمره باستقاذ القิروان ومن بها من المسلمين من يد كسيلة المغلب عليها، وحضره على الطلب بدم عقبة، فراجعه زهير يعلمه بكثرة الفرنج والبربر فأمده بالمال ووجوه العرب وفرسانها. فزحف زهير إلى المغرب سنة تسع وستين في آلاف من المقاتلة. وجمع له كسيلة البرانس وسائر البربر ولقيه بممس^(١) من نواحي القิروان، واشتد القتال بين الفريقين ثم انهزمت البربر بعد حروب صعبة، وقتل كسيلة ووجوه من معه من البربر ومن لا يحصى من عامتهم، واتبعهم العرب إلى مرماجنة، ثم إلى وادي ملوية. وفي هذه الواقعة ذل البربر وفنيت فرسانهم ورجالهم، وخضدت شوكتهم، واضمحل أمر الفرنجة فلم يعد. وخلف البربر من زهير والعرب خوفاً شديداً فلتجروا إلى القلاع والحسون، وكسرت شوكة أوربة من بينهم، واستقر جمهورهم بديار المغرب الأقصى، وملكوا مدينة وليلي وكانت فيما بين موضع فاس ومكتنسة بجانب جبل زرهون ولم يكن لهم بعد هذه الواقعة ذكر إلى أن قدم عليهم إدريس بن عبد الله رضي الله عنه فقاموا بدعوتة على ما نذكره إن شاء الله.

وأما زهير فإنه لما رأى ما منحه الله من الظفر والنصر، وساق إليه من العز والملك خشي على نفسه الفتنة - وكان من العباد المختبن - فترك القิروان آمن ما كانت وارتاح إلى المشرق، وقال: إنما جئت للجهاد في سبيل الله! وأخاف على نفسي أن تميل إلى الدنيا! فلما وصل إلى برقة وجد

(١) وضبطها ياقوت ممسى (فتح الميم الأولى وسكون الثانية وفتح السين) ونقله الثاج.

أسطول الروم على قتالها في جموع عظيمة من قبل قيس وبأيديهم أسرى من المسلمين، فاستغاثوا به وهو في خف من أصحابه، فصمد إليهم فيما معه، وقاتل الروم حتى قتل وقتل معه جماعة من أشراف أصحابه، ونجا الباقيون إلى دمشق فأخبروا الخليفة عبد الملك بما وقع فأسفه ذلك.

ولادة حسان بن النعمان على المغرب وتخريجه قرطاجنة

لما رحل زهير بن قيس إلى المشرق واستشهد ببرقة كما قدمنا اضطررت بلاد المغرب بعده واضطربت نار الفتنة، وافتقر أمر البربر وتعدد سلطانهم في رؤسائهم. وكان من أعظمهم شوكة يومثيل الكاهنة داهيا الزناتية ثم الجراوية صاحبة جبل أوراس وكبيرة قومها جراوة والبتر. فبعث عبد الملك بن مروان إلى عامله على مصر حسان بن النعمان الغساني - وكان يقال له الشيخ الأمين - يأمره أن يخرج إلى جهاد البربر، وبعث إليه بالمدد فزحف إليهم سنة تسع وستين في أربعين ألف مقاتل، ولما دخل القيروان سأل الأفارقة عن أعظم ملوكهم فقالوا: صاحب قرطاجنة وهي المدينة العظمى قريعة رومة وضرتها إحدى عجائب الدنيا، وكان بها يومثيل من جموع الفرنج أمم لا تحصى، فصمد إليها حسان وافتتحها وقتل أكثر من بها ونجا قلهم في المراكب إلى صقلية والأندلس، ولما انصرف حسان عنها دخلها أقوام من أهل الضواحي والبادية وتحصنوا بها فرجع إليهم وقاتلهم أشد قتال، فافتتحها عترة وأمر بتخريبيها وإعفاء رسملها وكسر قنواتها فذهبت كأمس الدابر، ولم يبق بها الآن إلا آثار خفيفة تدل على ما كان بها من عجيبة الصنعة وإحكام العمل. وبأنقاضها عمرت مدينة تونس كما في القاموس.

ثم بلغ حسان أن البربر والفرنج قد عسكروا في جموع عظيمة ببلاد صطوفورة وبنتورت، فصمد إليهم وهزمهم وشرد بهم من خلفهم وانحاز قلهم إلى باجة وبونة. ورجع حسان إلى القيروان فأراح بها أياماً ثم سأله عن بقية الملوك المختلفة، فدلوه على الكاهنة داهيا وقومها جراوة وهم ولد جراو بن

الدیدیت بن زانا، وزانا هو أبو زنانة وكان لهذه الكاهنة بنون ثلاثة ورثوا ریاسة قومهم عن سلفهم وربوا في حجرها فاستبدت عليهم واعتزت على قومها بهم وبما كان لها من الكهانة والمعرفة بغير أحوالهم وعواقب أمورهم فانتهت إليها ریاستهم ووقفوا عند إشارتها، قال هانئ بن بکور الضزیسی: ملکت عليهم خمساً وثلاثين سنة وعاشت مائة وسبعين وعشرين سنة وكان قتل عقبة بن نافع وأصحابه في البسيط قبلة جبل أوراس بإغراقها برابرة الزاب عليه، وكان المسلمين يعرفون ذلك منها، فلما قتل كسلة وانقضت جموع البربر رجعوا إلى هذه الكاهنة بمعتصمتها من جبل أوراس، وقد انضم إليها بنو يفرن ومن كان بإفريقيا من قبائل زنانة وسائر البتار، فسار إليها حسان حتى نزل وادي مليانة وزحفت هي إليه، فاقتتلوا بالبسیط أمام جبلها قتالاً شديداً ثم انهزم المسلمون وقتل منهم خلق كثير وأسر خالد بن يزيد القیسی في ثمانين رجلاً من وجوه العرب. ولم تزل الكاهنة والبربر في اتباع حسان والعرب حتى أخر جوهره من عمل قابس، ولحق حسان بعمل طرابلس فلقيه هناك كتاب عبد الملك يأمره بالمقام حيث يصله كتابه، فأقام ببرقة وبنى قصوره المعروفة لهذا العهد بقصور حسان. ثم رجعت الكاهنة إلى مكانها من الجبل وأطلقت أسرى المسلمين سوى خالد فإنها اتخذت عنده عهداً بارضاعه مع ولديها وصيরته أخاً لهما، وأقامت في سلطان إفريقيا والبربر خمس سنين بعد هزيمة حسان. ونفت العرب عن بلاد المغرب، وقالت لقومها: «إنما تطلب العرب من المغرب مدنه وما فيها من الذهب والفضة، ونحن إنما نريد المزارع والمراعي فالرأي أن نخرب هذه المدن والمحصون ونقطع أطماع العرب عنها».

قال ابن خلدون: وكانت المدن والضياء من طرابلس إلى طنجة ظلاً واحداً في قرى متصلة فخررت الكاهنة ديار المغرب وغضدت أشجاره ومحت جماله، وجاست بالفساد خلاله، فشق ذلك على البربر واستأمنوا إلى حسان، وكان عبد الملك قد بعث إليه بالمدد فأمنهم ووجد السبيل إلى تفرق أمرها، ثم دس إلى خالد بن يزيد يستعلمها أمرها فأطلعه على كنه خبرها واستحثه،

فزحف إلى المغرب سنة أربع وسبعين، ويرزت إليه فأوقع بها وبجماعها وقتلها واحتز رأسها عند البتر المعروفة بها لهذا العهد من جبل أوراس، ثم اقتحم الجبل عنوة واستلهم فيه زهاء مائة ألف من البربر، واستأمن إليه باقيهم على الإسلام والطاعة، وشرط عليهم حسان أن يكون معه منهم اثنا عشر ألفاً لا يفارقه في مواطن جهاده، فأجابوا وأسلموا وحسن إسلامهم، وعقد للأكبر من ولدي الكاهنة على قومه من جراوة وعلى جبل أوراس، فقالوا قد لزمتنا له الطاعة وسبينا إليها وبايعناه عليها، وكان ذلك بإشارة من الكاهنة لإثارة من علم كانت لديها بذلك من شياطينها.

وانصرف حسان إلى القيروان مؤيداً منصوباً وثبت ملكه واستقام أمره، فدون الدواعين وكتب الخراج على عجم إفريقيه ومن أقام معهم على النصرانية من البربر، ثم أوعز إليه الخليفة عبد الملك باتخاذ دار الصناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية حرصاً على مراسم الجهاد ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله الأول منبني الأغلب على يد أسد بن الفرات - شيخ الفتيا وصاحب الإمام ابن القاسم - بعد أن كان معاوية بن حدیج أغزى صقلية أيام ولايته على المغرب فلم يفتح الله عليه، وفتحت على يد ابن الأغلب وقائد ابن الفرات كما قلنا. واستمر حسان واليَا على المغرب إلى أن عزله عبد العزيز بن مروان صاحب مصر وكان أمر المغرب إذ ذاك إليه، فاستخلف حسان على المغرب رجلاً من جنده اسمه صالح، وارتحل إلى المشرق بما جمعه من ذريع المال ورائع السبي ونفيض الذخيرة. فلما انتهى إلى مصر أهدى إلى عبد الله مائتي جارية من بنات ملوك الفرنج والبربر فلم يقنعه ذلك وانتزع كثيراً مما بيده، ولما قدم على الخليفة بدمشق وهو يومئذ الوليد بن عبد الملك شكا إليه ما صنع به عمه عبد العزيز فغاظه ذلك وأنكره، ثم أهدى إليه حسان من غريب النفائس التي أخفاها عن عبد الله ما استعظمته الوليد وشكراً عليه ووعده برده إلى عمله، فحلف حسان أن لا يلي لبني أمية عملاً أبداً.

وذكر البكري أن حسان بن النعمان هذا هو فاتح تونس. وقال غيره بل

فاتحها زهير بن قيس البلوي . ولم تتوفر الدواعي على تحقيق ذلك لأنها لم تكن يومئذ قاعدة ملك وإنما عظم أمرها في دولة الحفصيين فمن بعدهم والله تعالى أعلم .

ولاية موسى بن نصیر على المغرب وفتحه الأندلس

لما ارتحل حسان بن النعمان إلى المشرق اختلفت أيدي البربر فيما بينهم على إفريقية والمغرب ، فكثرت الفتن وخلت أكثر البلاد حتى قدم موسى بن نصیر فتلafi أمرها ولم شعثها .

قال الحافظ أبو عبد الله الحميدي في جذوة المقتبس : ولـي موسى بن نصیر إفريقية والمغرب سنة سبع وسبعين . وقال غيره : ستة سبع وثمانين^(١) .

وقال ابن خلkan : كان موسى بن نصیر من التابعين . وروي عن تميم الداري رضي الله عنه : وكان عاقلاً كريماً شجاعاً ورعاً متقياً لله تعالى لم يهزه له جيش قط . ولما قدم المغرب وجد أكثر مدنه خالية لاختلاف أيدي البربر عليها وكانت البلاد في قحط شديد فأمر الناس بالصوم والصلوة وإصلاح ذات البين ، وخرج بهم إلى الصحراء ومعه سائر الحيوانات ففرق بينها وبين أولادها فوقن البكاء والصرخ ، وأقام على ذلك إلى منتصف النهار ثم صلى وخطب الناس ولم يذكر الوليد بن عبد الملك فقيل له ألا تدعوا لأمير المؤمنين ؟ فقال هذا مقام لا يدعى فيه غير الله عز وجل ، فسقوا حتى رووا .

(١) وفي بغية الرواد في ذكر الملوك من بنـي عبد الواد : سنة 83 ص 77 طبع الجزائر سنة 1321 - 1903.

(٢) صوابه أخيه عبد الله بن عبد الملك لأنـه هو الذي كان والـيـاً على مصر زمن خلافة الوليد . وأما عبد العزيـزـ بن مـروـانـ عم الـولـيدـ فقدـ كانـ والـيـاـ علىـ مصرـ قبلـ عبدـ اللهـ بنـ عبدـ الملكـ ، وتـوفـيـ فيـ أـواـخـرـ خـلـافـةـ أـخـيـهـ عبدـ الملكـ كـمـاـ يـعـلمـ ذلكـ منـ مـراجـعةـ أـصـوـلـ التـارـيـخـ خـصـوصـاـ تـارـيـخـ مصرـ ، وـكتـابـ الإـمامـةـ وـالـسـيـاسـةـ لـابـنـ قـيـمةـ وـالـلهـ أـعـلـمـ .

وقال ابن خلدون: كتب الخليفة الوليد بن عبد الملك إلى عمّه^(١) عبد الله بن مروان وهو على مصر - ويقال عبد العزيز - أن يبعث بموسى بن نصیر إلى إفريقية وكان أبوه نصیر من حرس معاوية فبعثه عبد الله فقدم القيروان وبها صالح خليفة حسان فعزله ورأى أن البربر قد طمعت في البلاد فوجه البعوث في التواحي وبعث ابنه عبد الله في البحر إلى جزيرة ميورقة فغنم وسي وعاد. ثم بعثه إلى ناحية أخرى وبعث ابنه مروان كذلك وتوجه هو إلى ناحية فغنموا وسبوا وعادوا وبلغ الخمس من المغانم سبعين ألف رأس من السبي.

قال أبو شعيب الصدفي: لم يسمع في الإسلام بمثل سبايا موسى بن نصیر ونقل الكاتب أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم القرافي المعروف بابن الرفيق: أن موسى بن نصیر لما فتح سقونا كتب إلى الوليد بن عبد الملك: أنه صار لك من سببي سقونا مائة ألف رأس! فكتب إليه الوليد: وبحكم إني أطئها من بعض كذباتك، فإن كنت صادقاً فهذا محشر الأمة.

ثم خرج موسى غازياً أيضاً، وتتبع البربر وقتل فيهم قتلاً ذريعاً وسيسيأً عظيماً وتوغل في جهات المغرب حتى انتهى إلى السوس الأدنى، ثم تقدم إلى سبتة فصانعه صاحبها يليان الغماري بالهدايا وأذعن للجزية - وكان نصريانياً - فأقره عليها واسترهم ابنه وأبناء قومه على الطاعة فلما رأى بقية البربر ما نزل بهم استأمنوا لموسى وبدلوا له الطاعة فقبل منهم وولي عليهم.

وقال ابن خلدون أيضاً: غزا موسى بن نصیر طنجة وافتتح درعة وصحراء تافيلالت وأرسل ابنه إلى السوس فأذعن البربر لسلطانه وأخذ رهائن المصامدة فأذل لهم بط segue وذلك سنة ثمان وثمانين وولى عليها طارق بن زياد الليبي. قال: وأنزل معه سبعة وعشرين ألفاً من العرب واثني عشر ألفاً من البربر وأمرهم أن يعلموا البربر القرآن والفقه. قال: ثم أسلم بقية البربر على يد إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر سنة إحدى ومائة أيام عبد العزيز رضي الله عنه أهـ.

ولما استقرت القواعد لموسى بالمغرب كتب إلى طارق - وهو بطنجة - يأمره بغزو الأندلس فغزاها في اثنى عشر ألفاً من البربر وخلق يسير من العرب، وعبر البحر من سبتة إلى الجزيرة الخضراء^(١) وصعد الجبل المنسوب إليه - المعروف اليوم بجبل طارق - يوم الاثنين لخمس خلون من رجب سنة اثنين وتسعين للهجرة. وذكر عن طارق أنه كان نائماً وقت العبور في المركب فرأى النبي ﷺ والخلفاء الأربعة يمشون على الماء حتى مروا به فبشره النبي ﷺ بالفتح، وأمره بالرفق بال المسلمين والوفاء بالعهد. ذكر ذلك ابن بشكوال.

وقال ابن خلدون في أخبار الأندلس: إن أمة القوط ملكوا جزيرة الأندلس نحو أربعين سنة إلى أن جاء الله بالإسلام والفتح، وكان ملكهم لذلك العهد يسمى لذرير - وهو سمة ملوكهم كجرير سمة ملوك صقلية - وكانت لهم خطوة وراء البحر في هذه العدوة الجنوية خطوها من زفاف البحر إلى بلاد البربر واستعبدهم. وكان ملك البربر بذلك القطر، الذي هو اليوم جبال غمارة يسمى يليان وكان يدين بطاعتهم وبملتهم، وموسى بن نصير - أمير العرب إذ ذاك - عامل بفاريقية من قبل الوليد بن عبد الملك ومنزله بالقيروان، وكان قد أغزا لذلك العهد عساكر المسلمين بلاد المغرب الأقصى ودوخ أقطاره وأوغل في جبال طنجة حتى وصل إلى خليج الزقاق واستنزل يليان لطاعة الإسلام، وخلف مولاه طارق بن زياد واليأ بطنجة وكان يليان ينقم على لذرير ملك القوط بالأندلس فعلة فعلها - زعموا - بابته الناشئة في داره على عادتهم في بنات بطارقتهم فغضب لذلك وأجاز إلى لذرير فأخذ ابنته منه.

(١) قال صاحب المعجب: فأول موضع نزله فيما يقال منها المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء اليوم نزلها قبل الفجر وصلى بها الصبح بموضع منها وعقد الرaiات لأصحابه فبني بعد ذلك هناك مسجداً وعرف بمسجد الرaiات.

قلت: يعني أنه كان من عادة أكابر العجم بالأندلس أن يبعثوا أولادهم الذين يريدون التنويه بهم إلى دار الملك الأكبر بطليطلة ليصيروا في خدمته ويتأدبو بآدابه وينالوا من كرامته، حتى إذا بلغوا أنكح بعضهم بعضاً وتحمل صدقائهم، وتولى تجهيز إبائهم استثنافاً لأبائهم. فاتفق أن فعل ذلك يليان عامل لذريق على سبعة - وكان أهلها نصارى - فبعث بابنته له بارعة الجمال تكرم عليه إلى دار لذريق فوquette عينه عليها فأعجبته وأحبها، ولم يتمالك أن استكرهها فاقتضها، فاحتالت حتى أعلمت أبيها سراً فاحفظه ذلك وحمى أنفه وقال: «ودين المسيح لأزيلن ملکه، ولا حرف ما تحت قدميه، فكان امتعاضه من فاحشة ابنته هو السبب في فتح الأندلس مع سابق القدر. ثم إن يليان عبر البحر من سبعة في صنبر قلب الشتاء وأصعب الأوقات، فقدم طليطلة واجتمع بالملك فأنكر مجده في ذلك الوقت وسأله عن السبب، فذكر خيراً واعتلى بأن زوجته قد اشتد شوقها إلى رؤية ابنتها، وإنه أحب إسعافها بطلبتها، وسأل الملك تمكينه منها وتعجيز سراحه إلى عمله، ففعل وأحسن جائزة الجارية، وتوثق منها بالكتمان، وأفضل على أبيها وانقلب راجعاً، وذكروا أنه لما ودعه قال له لذريق: إذا قدمت علينا فاستفره لنا من الشذانفات التي لم تزل تطرفنا بها فإنها آثر جوارحنا لدينا - يعني بذلك طيوراً فارهة كانت تتخذ للإصطياد - فقال له: «أيها الملك وحق المسيح لئن بقيت لأدخلن عليك شذانفات ما دخل عليك مثلها قط» يعرض له بما أصرمه من إدخال العرب عليه ثم لحق يليان بطارق بن زياد وهو بطنجة فكشف له عورة القوط، فانتهز طارق الفرصة لوقته وأجاز البحر سنة التنين وتسعين من الهجرة بإذن أميره موسى بن نصير في نحو ثلاثة من العرب، واحتشد معهم من البربر زهاء عشرة آلاف، وصيرون عسكرين: أحدهما على نفسه ونزل به جبل الفتح فسمى جبل طارق به. والآخر على طريف بن مالك النخعي ونزل بمكان مدينة طريف فسميت به، وأداروا الأسوار على أنفسهم للتحصن. وبلغ الخبر لذريق فنهض إليهم يجر أمم الأعاجم وأهل ملة النصرانية في زهاء أربعين

ألفاً، فالتقوا بفحص شريش فهزمه الله ونفلهم أموال أهل الكفر ورقابهم. وكتب طارق إلى موسى بالفتح والغائم فحركته الغيرة وكتب إلى طارق يتوعده إن توغل بغیر إذنه، ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به، واستخلف على القิروان ولد عبد الله وخرج معه حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري. ونهض من القิروان سنة ثلاثة وتسعين في عسكر ضخم من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر فوافى خليج الزقاق ما بين طنجة والجزيرة الخضراء فأجاز إلى الأندلس، وتلقاه طارق فانقاد واتبع. ويقال إن موسى لما سار إلى الأندلس عبر البحر إليها من ناحية الجبل المنسوب إليه - المعروف اليوم بجبل موسى - وتنكب النزول على جبل طارق وتم الفتح وتتوغل في الأندلس إلى برشلونة في جهة الشرق وأربونة في الجوف وضم قادس في الغرب، ودخل أقطارها وجمع غنائمها وأجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية ويتجاوز إلى الشام دروب الأندلس ودربه ويخوض إليه ما بينهما من بلاد الأعاجم وأمم النصرانية، مجاهداً فيهم ومستلحاً لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة من دمشق. ونمى الخبر إلى الخليفة الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب ورأى أن ما هم به موسى تغير بال المسلمين، فبعث إليه بالتوجيه والانصراف، وأسر إلى سفيره أن يرجع بال المسلمين إن لم يرجع هو، وكتب له بذلك عهده، ففت ذلك في عزم موسى وفُقل عن الأندلس بعد أن أتزل الرابطة والحامية بثغورها واستعمل ابنه عبد العزيز لسدها وجهاد عدوها وأنزله بقرطبة فاتخذها دار إمارة. واحتل موسى بالقิروان سنة خمس وتسعين، وارتحل إلى المشرق سنة ست بعدها بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال على العجل والظهر، يقال إن من جملتها ثلاثين ألف رأس من السبي. وولى على إفريقية ابنه عبد الله واندرجت ولاية الأندلس يومئذ في ولاية المغرب، فكان صاحب القิروان ناظراً في الجميع. وقد موسى على سليمان بن عبد الملك - وقد ولد الخليفة بعد الوليد - فسخطه ونكبه. وثارت عساكر الأندلس بابنه عبد العزيز

فقتلوه لستين من ولاته باغراء الخليفة سليمان. وكان خيراً فاضلاً. وافتتح في ولاته مداشر كثيرة. وكان الذي تولى قتله حبيب بن أبي عبيدة الفهري. وكان سبب غضب سليمان على موسى: أنه لما توجه إلى المشرق وانتهى إلى مصر وصل أشرافها وفقهاءها وبلغه الخبر بمرض الوليد ووافاه كتابه يستحثه على القدوم، ووافاه كتاب آخر من أخيه سليمان يشتبه فأسرع موسى لللحق بالوليد فقدم عليه قبل وفاته بثلاثة أيام، ودفع إليه ما معه من الذخائر والأموال، فغاظ ذلك سليمان وأساء مكافأته حين أفضى الأمر إليه فنكبه ونكب آل بيته أجمع. وكانت وفاة موسى رحمة الله بالمدينة المنورة سنة ثمان وتسعين وقيل غير ذلك.

قال الشيخ أبو محمد بن أبي زيد القيرواني: ارتدت البربر الثنتي عشرة مرة من طرابلس إلى طنجة، ولم يستقر إسلامهم حتى عبر موسى بن نصیر البحر إلى الأندلس وأجاز معه كثيراً من رجالات البربر برسم الجهاد. فاستقروا هنالك فحيثني استقر الإسلام بالمغرب وأذعن البربر لحكمه، وتناسوا الردة ثم نبضت فيهم عروق الخارجية بعد على ما ذكره.

ولاية محمد بن يزيد على المغرب

لما ارتحل موسى بن نصیر إلى المشرق ونكبه الخليفة سليمان كما قلنا عزل ابنه عبد الله عن المغرب وولي مكانه محمد بن يزيد مولى قريش ويقال مولى الأنصار. فقدم القيروان سنة سبع وتسعين، وكان سليمان قد أمره باستئصال آل موسى بن نصیر واصطدام نعمتهم فأتى على ذلك. ثم لما قتل أهل الأندلس أميرهم عبد العزيز بن موسى ولوا عليهم أیوب بن حبيب اللخمي - وهو ابن أخت موسى - فوجه محمد بن يزيد الحر بن عبد الرحمن بن عثمان الثقفي والياً من قبله على الأندلس فقدمها واستقر أميراً بها ستين وثمانية أشهر. قالوا: وكان محمد بن يزيد هذا عادلاً حسن السيرة، قاتل المخالفين بشغور المغرب وغم وسبى ولم يزل والياً عليه حتى

مات سليمان. فكانت ولايته ستين وأشهرأ والله أعلم.

ولاية إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر على المغرب

لما توفي سليمان بن عبد الملك رحمة الله وولي الخلافة بعده عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه استعمل على المغرب إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر مولىبني مخزوم، فقدم القิروان سنة مائة وكان خير أمير وخير وال، ولم يزل حريصاً على دعاء البربر إلى الإسلام حتى تم إسلامهم على يده وبيث فيهم من فقههم في دينهم.

وذكر أبوالعرب^(١) محمد بن أحمد بن تميم في تاريخ إفريقيه أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أرسل عشرة من التابعين يفقهون أهل المغرب في الدين منهم: حيان بن أبي جبلة^(٢).

ولما توفي عمر بن عبد العزيز سنة إحدى ومائة وسبعين يزيد بن عبد الملك، وجه يزيد بن أبي مسلم الثقفي والياً على المغرب على ما ذكره.

(١) هو أبوالعرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي، ولد بالقิروان أواسط القرن الثالث. ومات سنة 333. له كتاب «طبقات علماء إفريقيه». وقد ذيل هذا التأليف محمد بن الحارث بن أسد، ولأبيالعرب أيضاً كتاب التاريخ في سبعة عشر جزءاً. اهـ. انظر ترجمته في معالم الإيمان جزء ثالث صفحة 42 وما بعدها. وفي المدارك لعياض أيضاً.

(٢) القرشي مولاهم المصري؛ توفي سنة 132 للهجرة.

ولاية يزيد بن أبي مسلم على المغرب

هو يزيد بن أبي مسلم دينار - مولى الحجاج بن يوسف الثقفي الظالم المشهور - وكان يزيد هذا كاتبه وصاحب شرطته. قال ابن خلكان: «كانت فيه كفاية ونهضة قدمه الحجاج بسببيهما».

وكان من خبره أن الحجاج لما حضرته الوفاة استخلف يزيد هذا على خراج العراق، فأقره الوليد بن عبد الملك واغتبط به، وقال: «ما مثلي ومثل الحجاج وابن أبي مسلم بعده إلا كرجل ضاع منه درهم فوجد ديناراً».

ولما مات الوليد وولي بعده أخوه سليمان عزل ابن أبي مسلم وأمر به فأخضر بين يديه في جامعة - وكان رجلاً قصيراً دمياً قبيح الوجه عظيم البطن تحتقره العين - فلما نظر إليه سليمان قال: «أنت يزيد بن أبي مسلم؟» قال: «نعم أصلح الله أمير المؤمنين» قال: «لعن الله من أشركك في أمانته؛ وتحكمك في دينه!» قال: «لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنكرأيتي والأمر عنني مدبراً ولو رأيتي والأمر على مقبل لاستعزمت ما استصغرت! ولاستجللت ما احتقرت!» فقال سليمان: «قاتله الله بما أربط جашه! وأعذب لسانه» ودارت بيته وبين سليمان محاورات غير هذه، ثم كشف عنه فلم يجد عليه خيانة فهم باستكتابه فقال عمر بن عبد العزيز: «أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تحبي ذكر الحجاج باستكتاب كاتبه» فقال: «إنني كشفت عنه فلم أجده عليه خيانة يا أبو حفص!» فقال عمر: «أنا أوجدك من هو أعف عن الدينار والدرهم منه» فقال سليمان: «من هو؟» قال: «إبليس ما مس ديناراً ولا درهماً قط وقد أهلك هذا الخلق!» فتركه سليمان.

وحدث جويرية بن أسماء أن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة بلغه أن يزيد بن أبي مسلم خرج في جيش من جيوش المسلمين، فكتب إلى عامل الجيش ببرده وقال: «إنني لأكره أن أستنصر بجيش هو فيهم» فلما توفي عمر رضي الله عنه وأقضى الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك عزل

إسماعيل بن عبيد الله عن المغرب وولي مكانه يزيد بن أبي مسلم فأساء السيرة، قالوا: ووجه عنبرة بن سحيم الكلبي واليأ من قبله على الأندلس فاستقام على يده أمرها. ثم ثار أهل المغرب بابن أبي مسلم فقتلوه سنة ثنتين ومائة لشهر من ولادته.

قال الطبرى: وكان سبب ذلك أنه كان قد عزم أن يسير في أهل المغرب بسيرة الحجاج في أهل العراق، فإن الحجاج كان وضع الجزية على رقاب الذين أسلموا من أهل السواد وأمر بردهم إلى قراهم ورساتيقهم على الحالة التي كانوا عليها قبل الإسلام، فلما عزم يزيد على ذلك تأمر البربر فيه وأجمعوا على قتلها فقتلوا عليهم محمد بن يزيد الذي كان قبله فيما ذكره الطبرى - وكان غازياً بصفلية - فلما قدم بمعانمه ولوه أمرهم.

وقال ابن عساكر: «ولوا بعده إسماعيل بن عبيد الله» والله أعلم.

ثم كتب أهل المغرب إلى الخليفة يزيد: «إنما لم نخلع يداً من طاعة، ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضى به الله ورسوله. فقتلناه وأعدنا عاملك». فكتب إليهم يزيد: «إنما لم أرض ما صنع ابن أبي مسلم» وأقر محمد بن يزيد على المغرب وذلك في سنة الثنتين ومائة كما قلنا.

وحدث الواضاح بن أبي خيثمة - وكان حاجب عمر بن عبد العزيز - قال: «أمرني عمر بن عبد العزيز - يعني في مرض موته - بخروج قوم من السجن وفيهم يزيد بن أبي مسلم فأخرجتهم وتركه ففقد علىي. فلما مات عمر هربت إلى إفريقيا خوفاً منه». قال: «فيينا أنا بإفريقيا إذ قيل قدم ابن أبي مسلم واليأ. فاختفت فأعلم بمكاني وأمر بي فحملت إليه، فلما رأني قال: «طالما سألت الله أن يمكنني منك» فقلت: «وأنا والله لطالما سألت الله أن يعيذني منك» فقال: «ما أعاذك الله، والله لا أقتلك ولو سابقني فيك ملك الموت لسبقته» ثم دعا بالسيف والنطع فأتي بما وأمر بالواضح فأقيم عليه مكتوفاً وقام السيف وراءه، ثم أقيمت الصلاة فتقدم يزيد إليها فلما سجد أخذته السيف، ودخل على الواضح من قطع كثافه وأطلقه فسبحان اللطيف الخير.

ولاية بشر بن صفوان على المغرب

لما كتب أهل المغرب إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك بما كان منهم إلى ابن أبي مسلم وما اعتذروا به في شأنه، أقر عليهم محمد بن يزيد أو إسماعيل بن عبد الله على الخلاف المتقدم ما شاء الله. ثم ولى عليهم بشر بن صفوان الكلبي - وكان والياً على مصر - فقدم القิروان سنة ثلاط ومائة فمهد المغرب وسكن أرجاءه واستصفي بقايها آل موسى بن نصير. ثم وفد على يزيد بن عبد الملك فوجده قد مات، وبويع هشام بن عبد الملك فرده هشام إلى عمله من المغرب فاستقر بالقيروان واستدعي منه أهل الأندلس والياً يقوم بأمرهم - وذلك بعد مقتل عنبرة بن سحيم الكلبي شهيداً في بعض غزوات الفرنج - فولى عليهم يحيى بن سلمة الكلبي فقدم الأندلس آخر سنة سبع ومائة فأصلاح شأنها. ثم غزا بشر بن صفوان صقلية بنفسه سنة تسع ومائة فأصاب سبباً كثيراً ورجع إلى القิروان منصوراً فكانت ميتة عقب ذلك.

ولاية عبيدة بن عبد الرحمن على المغرب

لما توفي بشر بن صفوان وانتهى الخبر إلى الخليفة هشام بن عبد الملك ولـى على المغرب عبيدة بن عبد الرحمن السلمي وهو ابن أخي أبي الأعور السلمي وقيل ابن ابنته فقدم القิروان سنة عشر ومائة، ونظر في أمر المغرب والأندلس معاً، وولى من قبله على الأندلس ولاة أربعة واحداً بعد واحد وهم: عثمان بن أبي نسعة الخثني وحديفة بن الأحوص القيسي والهيثم بن عبد الكلبي ومحمد بن عبد الله الأشجعي. وكان عبيدة بن عبد الرحمن قد أخذ عمال بشر بن صفوان قبله وعدبهم، فكتب بعضهم بذلك إلى الخليفة هشام فعزله لأربع سنين وستة أشهر من ولايته.

ولاية عبيد الله بن الحبّاب على المغرب

عبيد الله هذا هو مولىبني سلو. وكان رئيساً نيلاً وأميراً جليلاً وخطيباً مصقعاً، ولاه هشام بن عبد الملك على المغرب بعد عزل عبيدة بن عبد الرحمن عنه، وأمره أن يمضي إليه^(١) من مصر، فاستخلف عبيد الله على مصر ابنه أبا القاسم وسار إلى المغرب، فقدم القيروان في ربيع الآخر سنة أربع عشرة^(٢) ومائة، واستعمل عمر بن عبيد الله المرادي على طنجة والمغرب الأقصى، واستعمل ابنه إسماعيل بن عبيد الله معه على السوس وما وراءه، واستعمل على الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي فكانت له في الفرنجة وقائع، وأصيب جيشه في رمضان من السنة المذكورة في موضع يعرف بيلات الشهداء وبه عرفت الغزوة^(٣).

(١) أصل ما ذكره المؤلف هنا من كون ابن الحبّاب كان والياً على مصر لابن خلدون في الجزء الرابع صحفة 891 من الطبعة المصرية وكذلك لابن الأثير في سنة 131 والعجب أن مؤرخي مصر لم يعدوه في ولاة مصر.

(٢) الذي عند ابن الأثير صاحب الخلاصة الثقية سنة ست عشرة ومائة.

(٣) هذه الغزوة هي المعروفة عند الإفرنج بمعركة (بواتيسي Poitiers سنة 732 ميلادية الموافقة للتاريخ الهجري المذكور عند المؤلف وذلك أن العرب لما فتحوا إسبانيا تجاوزوا جبال البرتغال ودخلوا فرنسا واحتلوا بوردو وتوغلوا فيها حتى وصلوا إلى ضفاف نهر لوار وامتلكوا عدة مدن مهمة كليون وديجون وبليغور. ولم يقدر أود دوق أو كيتانيا على مقاومتهم إذ ذاك فاستعان عليهم بشال مارتييل أحد ملوك العائلة الكرولانجية فحاربهم بال محل المذكور أعلاه وقتل أمير جيشه عبد الرحمن الغافقي المذكور كما عند المؤلف. وبعد المعركة انسحب العرب تحت جناح الظلام راجعين إلى الأندلس وتركوا محلتهم وأخبيتهم بيد الإفرنج فارغة، فلما أصبحوا استولوا عليها وكانت هذه الواقعة آخر عهد العرب بفرنسا وصرفوا وجهتهم عن زيادة التوغل في فتح أوروبا من هذه الناحية. وتفاصيل هذه المعركة مبوسطة في تواريخ الأوروبيين - وخصوصاً الفرنسيين =

ثم ولى عبيد الله على الأندلس عبد الملك بن قطن الفهري ثم بعده عقبة بن الحجاج السلوقي فكان محمود السيرة وتمكن سلطان عبيد الله بالمغرب وبنى جامع الزيتونة بتونس، لكن صاحب المؤنس أن أول مخطط للجامع المذكور حسان بن النعمان وتممه عبيد الله هذا. واتخذ بها دار صناعة لإنشاء المراكب البحرية. ثم بعث حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري غازياً أرض المغرب فانتهى إلى السوس الأقصى وقاتل مسوفة ثم تخطاهم إلى تخوم السودان وأصاب من مغanim الذهب والفضة والسيب شيئاً كثيراً. ودوخ بلاد البربر وقبائلها ورجع. ثم أغزاه ثانية جزيرة صقلية فركب البحر إليهم سنة اثنين وعشرين ومائة ومعه ابنه عبد الرحمن بن حبيب فنازل سرقوسة أعظم مدن صقلية وضرب على أهلها الجزية وأثخن في سائر الجزيرة.

وكان عمر بن عبيد الله في هذه المدة بطنجة قد أساء السيرة في برايرة المغرب الأقصى وأراد أن يخمس من أسلم منهم وزعم أنه الفيء، فنفرت قلوب البربر عنه وأحسوا بأنهم طعنة للعرب، وثقلت عليهم وطأة عمال ابن الحجاج جملة بما كانوا يطالبونهم به من الوظائف البربرية مثل الإدم العسلية الألوان وأنواع طرف المغرب، فكانوا يتغالون في جمع ذلك وانتخابه حتى كانت الصرمة من الغنم تهلك ذبحاً لاتخاذ الجلد العسلية من سخالها ولا يوجد فيها مع ذلك إلا الواحد وما قرب منه، فكثر عيщهم بذلك في أموال البربر فأجمعوا الانقضاض، وبلغتهم مسير العساكر مع حبيب بن أبي عبيدة إلى صقلية فجرأهم ذلك على مرادهم، وثار ميسرة المضغري بأحواز طنجة على ما نذكره.

وكانت بدعة الخارجية يومئذ قد سرت في البربر وتلقنها رؤوسهم عن عرب العراق الساقطين إلى المغرب نزعوا بها إلى الأطراف داعين أغمار

= منهم - لأنها كانت في بلادهم فليرجع إليها من أراد زيادة استيعاب الكلام عليها.

الأمم إليها عسى أن تكون لهم دولة، فاستحكمت صبغتها في طغام البربر ووشجت فيهم عروقها فكان ذلك من أقوى البواعث والأسباب في خرق حجاب الهيئة على الخلفاء وانتقاد البربر على العرب ومزاحمتهم لهم في سلطانهم.

ولنذكر هنا أصل الخوارج وفرقهم على الجملة ثم نعود إلى موضوعنا الذي كنا فيه نتفقون: قد تقدم لنا في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما كان من أمر التحكيم وما نشأ عنه من خروج طائفة من القراء عليه وقالوا: «حكمت الرجال في دين الله! ولا حكم إلا لله! وأن علينا رضي الله عنه استأصلهم بالنهر وإن فقال له بعض أصحابه: «قد قطع الله دابرهم آخر الدهر» فقال علي رضي الله عنه: «والذي نفسي بيده إنهم لفي أصلاب الرجال وأرحام النساء! لا تخرج خارجة إلا خرجت بعدها مثلها!» فصدق الله قول علي ونبغت منهم طوائف بالعراق وغيره وتكرر خروجهم على الخلفاء وشرى داؤهم وأعنى دواوئهم وتعددت فرقهم ومذاهبهم.

قال ابن خلدون: «افترقت الخوارج على أربع فرق:

الأولى: الأزارقة أصحاب نافع بن الأزرق الحنفي، وكان رأيه البراءة من سائر المسلمين وتکفيرهم والاستعراض، يعني القتل من غير سؤال عن حال أحد، وقتل الأطفال واستحلال الأمانة لأنه يراهم كفاراً.

الثانية النجدية: ويقال لهم: النجدات أصحاب نجدة بن عامر الحنفي وهو بخلاف الأزارقة في ذلك كله.

الثالثة الإباضية: أصحاب عبد الله بن أبياض التميمي ثم الصريبي، وهم يرون أن المسلمين كلهم يحكم لهم بحكم المنافقين فلا ينتهون إلى الرأي الأول، ولا يقفون عند الثاني، ولا يحرمون مناكحة المسلمين ولا مواريثهم، وهم عندهم كالمنافقين: ومن هؤلاء: البيهسية: أصحاب أبي بيهم هيصم بن جابر الضبيعي.

الرابعة الصفرية: وهم موافقون للإباضية إلا في القعدة، يعني: الذين يقعدون عن القتال معهم فإن الإباضية أشد على القعدة منهم، وربما تشعبت هذه الآراء بعد ذلك.

وأختلف في تسمية الصفرية فقيل نسبوا إلى عبد الله بن صفار الصرمي وقيل اصفروا بما نهكتهم العبادة. وفي القاموس الصفرية بالضم ويكسر قوم من الحرورية نسبوا إلى عبد الله بن صفار ككتان، أو إلى زياد بن الأصف أو إلى صفرة ألوانهم أو لخلوهم من الدين. اهـ.

وقد كانت الخوارج من قبل هذا الانفراق على رأي واحد لا يختلفون إلا في الشاذ من الفروع. وفي أصل افترائهم مكاببات بين نافع بن الأزرق وأبي بييس وعبد الله بن أبياض ذكرها المبرد في الكامل فلتنتظر هنالك.

وكانت خوارج المغرب إباضية وصفرية، فلما كانت ولاية عبد الله بن الحجاج ونال عماله من البربر ما نالوا من الجور والعنف انتقضوا عليه وثار ميسرة المضغري - المعروف بالخفير - بأحواز طنجة، ومضغرة بطن منبني فاتن بن تامضيت بن ضری بن زجیک بن مادغیس الأبت، وكانوا على رأي الصفرية، وكان شيخهم ميسرة المذكور مقدماً في ذلك المذهب، فحمل البربر على الخروج عن الطاعة وزحف إلى عمر بن عبد الله بطنجة فقتله سنة اثنين وعشرين ومائة وولى عليها من قبله عبد الأعلى بن جريج الإفريقي - رومي الأصل ومولى للعرب - كان إمام الصفرية في اتحاد مذهبهم، فقام بأمرهم مدة ثم تقدم إلى السوس فقتلها عاملها إسماعيل بن عبد الله^(١)، وكان ميسرة لما استولى على طنجة والمغرب الأقصى قد بايعه البربر بالخلافة وحاطبوه بأمير المؤمنين، إذ الخوارج لا يشترطون في الإمام الأعظم القرشية محتاجين بقوله عليه السلام: «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كان

(١) الذي في ابن خلدون: فقتل عامله عليها إسماعيل (جزء أول طبع الجزائر صفحة 151).

رأسه زبيبة» - وهو مؤول - واضطرب المغرب ناراً وفشت نحلة الخارجية في جميع قبائله وانتقض أمره على خلفاء المشرق فلم يراجع طاعتهم بعد. ثم إن ابن الحجاج بعث إلى ميسرة خالد بن حبيب الفهري فيمن كان قد بقي عنده من الجيش، واستقدم أباه حبيب بن أبي عبيدة من صقلية فقدم فيمن معه من عساكر المسلمين وبعثه في أثر خالد ونهض إليهم ميسرة في جموع البربر، فلقيهم بأحواز طنجة فاقتلوها قتالاً شديداً ثم تحاجزوا، ورجع ميسرة إلى طنجة فساعتم سيرته في البربر ونقموا عليه ما جاء به فقتلوه، ولووا عليهم مكانه خالد بن حميد الزناتي.

قال ابن عبد الحكم: هو من هتورة إحدى بطون زناته فقام بأمرهم واجتمع إليه البربر، فزحف إلى العرب وسرح إليه ابن الحجاج عساكر الخليفة هشام بن عبد الملك وعلى مقدمتها خالد بن حبيب الفهري، فكان اللقاء على وادي شلف فانهزم المسلمون وقتل خالد بن حبيب ووجوه من معه من العرب، فسميت الواقعة: وقعة الأشراف؛ وانتقض المغرب على ابن الحجاج من سائر جهاته وبلغ الخبر إلى أهل الأندلس فعزلوا عامله عقبة بن الحجاج السلوبي، ولووا عليهم عبد الملك بن قطن الفهري ومرج أمر الناس وانتهى الخبر بذلك كله إلى الخليفة هشام بدمشق فعزل ابن الحجاج عن المغرب.

وقال صاحب الخلاصة: لما اختلت الأمور على ابن الحجاج اجتمع الناس وعزلوه فبلغ ذلك هشاماً فغضب وكتب إلى ابن الحجاج بالقدوم فخرج في جمادى الأولى سنة ثلث وعشرين ومائة. والله أعلم.

ولاية كلثوم بن عياض على المغرب ومقتله

لما انتهى إلى الخليفة هشام ما كان من أمر خوارج البربر بالمغرب والأندلس وخلعهم للطاعة، شق ذلك عليه واستضعف ابن الحجاج فكتب إليه يستقدمه، وولى على المغرب كلثوم بن عياض القشيري، ووجه معه جيشاً كثيفاً لقتالهم كان فيه - مع ما اتضاف إليه من جموع البلاد التي مر بها - سبعون ألفاً على ما قيل.

ولما انتهى كلثوم إلى القيروان أساء السيرة في أهلها فكتبوها إلى حبيب بن أبي عبيدة وهو يومئذ بتلمسان موافق للبربر يشكرون منه إليه، وكان لآل عقبة بالمغرب وجاهة لم تكن لغيرهم، فكتب إليه حبيب ينهاه ويتوعده فاعتذر كلثوم وأغضى له عليها، ثم استخلف على القيروان عبد الرحمن بن عقبة وسار يوم المغرب في جموعه، وعلى مقدمته ابن أخيه^(١) بلج بن بشر القشيري فمر على طريق سبعة. وانتهى إلى تلمسان فلقي حبيب بن أبي عبيدة فاقتلا ثم اصطلحوا، وزحفا جميعاً إلى المغرب الأقصى فنهضت إليهم البربر وكان اللقاء على وادي سبو من أعمال طنجة.

وقال ابن خلدون في أخبار البربر: «إن الخليفة هشام ولـى كلثوم بن عياض على المغرب سنة ثلاثة وعشرين ومائة وسرحه في الثاني عشر ألفاً من أهل الشام، وكتب إلى ثغور مصر وبرقة وطرابلس أن يمدوه فرحف إلى إفريقية ثم إلى المغرب حتى بلغ وادي سبو فبرز إليه خالد بن حميد الزناتي فيمن معه من البربر - وكانوا خلقاً لا يحصون - فلقو كلثوم بن عياض بعد أن هزموا مقدمته فاشتد القتال بينهم وقتل كلثوم وحبيب بن أبي عبيدة وكثير

(١) نقل ضوزي المؤرخ في تاريخه المسمى: «تاريخ المسلمين بأسبيانا» أن بلجا هذا كان ابن عم كلثوم لا ابن أخيه كما هنا. (نوطـة عدد 2 من الصحيفة 244 من الجزء الأول).

من الجندي واقتربت العساكر فمضى أهل الشام إلى الأندلس مع بلج بن بشر ومضى أهل مصر وإفريقية إلى القิروان».

وما ذكره أن خالد بن حميد هو الذي هزم جيوش كلثوم في هذه الواقعة هو مقتضى ما سبق من أن ميسرة قتل في ولاية عبيد الله بن الحجاج وجرم ابن حيان بأن الذي هزم جيوش كلثوم هو ميسرة الخفير واقتصر عليه ابن خلدون في أخباربني فاتن قال: «انتهت مقدمة كلثوم بن عياض إلى سبوا من أعمال طنجة فلقيه البرير هنالك مع ميسرة وقد فحصوا عن أوساط رؤوسهم وتنادوا بشعار الخارجية فهزموا مقدمته ثم هزموه وقتلوه وكان كيدهم في لقائهم إيه أن ملأوا الشنان بالحجارة وريطوها في أذناب الخيل ثم أرسلوها في جيش العرب فكانت الحجارة تقعق في شنانها وخيل العرب تفتر حتى اختل مصافهم وتمت الهزيمة عليهم، فافتلقوا وذهب بلج مع الطلائع من أهل الشام إلى سبتة ورجع أهل مصر وإفريقية إلى القิروان وظهرت الخارج في كل جهة واقطع المغرب عن طاعة الخلفاء إلى أن هلك ميسرة وقام ببرиاسة مضفرة من بعده يحيى بن حارث منهم». اهـ كلام ابن خلدون. فاضطراب النقل في هذه الواقعة كما ترى والله أعلم بالصواب.

قال ابن حيان: إن كلثوم بن عياض لما انهزمت جيوشه نجا جريحاً إلى سبتة في أهل الشام ومعه ابن أخيه بلج بن بشر بن عياض، وحاصرهم البرير بها، ولما اشتد حصارهم بسبتا وانقطعت عنهم الأقوات وبلغوا من الجهد الغاية، استغاثوا بإخوانهم من عرب الأندلس، فتناقل عنهم صاحبها عبد الملك بن قطن لخوفه على سلطانه منهم، فلما شاع خبر ضررهم عند رجالات العرب أشفقوا عليهم، فأغاثهم زياد بن عمرو اللخمي بمركبين مشحونين ميرة أمسكت من أرماقهم، فلما بلغ ذلك عبد الملك بن قطن ضرب سبعمائة سوط ثم اتهمه بعد ذلك بتضليل الجندي عليه، فسمى عينيه ثم ضرب عنقه وصلب عن يساره كلباً. واتفق في هذا الوقت أن برابرة الأندلس لما بلغتهم ما كان من ظهور برابرة العدوة على العرب انتقضوا على عرب الأندلس

واقتدوا بما فعله إخوانهم بالمغرب، وتفطنوا لما كانوا غافلين عنه قبل ذلك من الخلاف على العرب ومزاحمتهم في سلطانهم، وأصل ذلك كله التزعة الخارجية، فاستفحلاً أمرهم بالأندلس وكثراً إيقاعهم بجيوش ابن قطن، فخاف أن يلقى منهم ما لقيه العرب بالمغرب من إخوانهم، وبلغه أنهم قد عزموا على قصده فلم ير أجدى له من الاستعداد بصالحك عرب الشام: أصحاب بلج الموتورين بسببة، فكتب إلى بلج وقد مات عمهم كلثوم، فأسرعوا إلى إيجابه وكانت تلك أمنيتهم، فأحسن إليهم وأسieux النعمة عليهم، وشرط عليهم أن يقيموا عنده سنة واحدة، حتى إذا فرغوا له من البرير انصرفوا إلى مغربهم، وخرجوا له عن أندلسه، فرضوا بذلك وعاهدو وأخذ منهم الراهان عليه، ثم قدم عليهم ابنه قطناً وأمية - والبرير في جموع لا يحصيها غير رازقها - فاقتلوها قتالاً صعب فيه المقام إلى أن كانت الدبرة على البرير فقتلهم العرب بأقطار الأندلس حتى أحقوا لهم بالشغور، وخفوا عن العيون فكر الشاميون - وقد امتلأت أيديهم من الغنائم، فاشتدت شوكتهم وثبتت همتهم، وبطروا ونسوا العهود وطالبهم ابن قطن بالخروج عن الأندلس فتعللوا عليه، وذكروا صنيعه بهم أيام انحصارهم بسببة، وقتلهم الرجل الذي أغاثهم بالميرة، فخلعوه وقدموا على أنفسهم أميرهم بلج بن بشر، وتبعه جند بن قطن وأغرقوه بقتله فأبى، فثارت اليمانية وقالوا قد حميت لمضرك والله لا نطيعك فلما خاف تفرق الكلمة أمر بابن قطن فأخرج إليهم وهوشيخ كبير كفرخ نعامة قد شهد وقعة الحرفة بالمدينة^(١)، فجعلوا يسبونه ويقولون له أفلت من سيفونا يوم الحرفة ثم طالبتنا بتلك الترة فعرضتنا لأكل الكلاب والجلود، وحبستنا بسببة محبس الضنك؛ حتى أمننا جوعاً فقتلوه وصلبوه في ذي القعدة سنة ثلاثة وعشرين ومائة، وصلبوا عن يمينه خنزيراً وعن يساره كلباً. واستولى بلج على الأندلس. وكانت خطوب يطول ذكرها والله ولـي العون والتوفيق.

(١) وقد كانت زمن يزيد بن معاوية سنة ثلاثة وستين اهـ.

ولاية حنظلة بن صفوان على المغرب

لما سمع الخليفة هشام بما جرى على كلثوم وأصحابه قامت قيامته، فوجه حنظلة بن صفوان الكلبي - وهو أخو بشر بن صفوان المتقدم - والياً على المغرب، فقدم القิروان سنة أربعين وعشرين ومائة فوجد هوارة - وهم ولد هوار بن أوريغ بن برس - خوارج على الدولة ورئيساهم عكاشه بن أبيب الفزارى وعبد الواحد بن يزيد الهواري وكانا على مذهب الصفرية.

فلما استقر حنظلة بالقิروان لم يلبث إلا يسيراً حتى زحف إليه عكاشه وعبد الواحد في هوارة ومنتبعهم من البرير فخرج إليهم حنظلة والتقوا على القرن من ظاهر القิروان فهزمهم بعد قتال صعب واستحلهم وقتل عبد الواحد وأخذ عكاشه أسيراً ولما جيء إليه بعكاشه في رمته وبرأس عبد الواحد سجد شكرأ الله تعالى على ما منحه من الفتح وأمر بعكاشه فقتل وأحصيـت القتلى في ذلك اليوم فكـانوا مائة وثمانين ألفاً وكتبـ حنظلة بذلك إلى الخليفة هشام، وسمـعها الليث بن سعد فقال: «ما غزوـة كنت أحبـ أن أشهدـها بعد غزوـة بدر أحبـ إلىـي من غزوـة القرـن والأصنـام»^(١).

ثم وجـهـ حـنظـلةـ أـباـ الخـطـارـ حـسـامـ بـنـ ضـرارـ الـكـلـبـيـ وـالـيـاـ منـ قـبـلـهـ عـلـىـ الأـنـدـلـسـ، فـرـكـبـ إـلـيـهـ الـبـحـرـ مـنـ تـونـسـ سـنـةـ خـمـسـ وـعـشـرـينـ وـمـائـةـ، فـدـانـ لـهـ أـهـلـ الـأـنـدـلـسـ، وـاسـتـقـامـ أـمـرـهـ بـهـ حـيـنـاـ مـنـ الـذـهـرـ، ثـمـ ثـارـ عـلـيـهـ الصـمـيـلـ بـنـ حـاتـمـ الـكـلـبـيـ وـخـلـعـهـ فـيـ خـبـرـ طـوـيلـ.

(١) إقليم الأصنام بالأندلس من أعمال شدونة وفيه حصن يعرف بتطبيل، قاله ياقوت. اهـ. وذكر الإدريسي في كتاب نزهة المشتاق في الجزء الثالث من الإقليم الثالث أن الأصنام موضع بيرقة قرب قصور حسان. اهـ. والأصنام موضع بعمالة وهران على ضفاف نهر شلف؛ وانظر هل هو المراد هنا أم السابق الكائن ببرقة فليحرر اهـ.

ولم يزل حنظلة على المغرب في أحسن حال إلى أن طرق الخلل الخلافة بالشرق وخفت صوتها لما حدث في بني أمية من فتنة الوليد الفاسق، وما كان من أمر الشيعة والخوارج مع مروان الحمار آخر خلفائهم، وأفضى الأمر إلى الإدالة منهم ببني العباس فأجاز عبد الرحمن بن حبيب الفهري من الأندلس إلى المغرب، وغلب حنظلة عليه سنة ست وعشرين ومائة على ما ذكره.

ذكر صالح بن طريف البرغواطي المتنبي ومخرقه

وفي هذا التاريخ كان ظهور صالح بن طريف البرغواطي الذي ادعى النبوة بتامستنا من بلاد المغرب الأقصى على ساحل البحر المتوسط فيما بين سلا وأسفي، وبرغواطة بطن من المصامدة على ما حققه ابن خلدون. وكان أبوه طريف يكنى أباً صبيح وكان من قواد ميسرة الخفير القائم بدعوة الصفرية، ولما انقرض أمر ميسرة بقي طريف قائماً بأمر برغواطة بتامستنا ويقال إنه تنبأ أيضاً وشرع لهم الشرائع ثم هلك وولى مكانه ابنه صالح هذا، وقد كان شهد مع أبيه حروب ميسرة.

قال ابن خلدون: «وكان من أهل العلم والخير ثم انسلاخ من آيات الله وانتحل دعوى النبوة وشرع لهم الديانة التي كانوا عليها من بعده وهي معروفة في كتب المؤرخين».

قال في القرطاس: كان الضلال الذي شرع لهم أنهم يقررون بنبوته، وأنهم يصومون شهر رجب ويأكلون شهر رمضان، وفرض عليهم عشر صلوات خمساً بالليل وخمساً بالنهر، وأن الأضحية واجبة على كل شخص في العادي والعشرين من المحرم، وشرع لهم في الوضوء غسل السرة والخاصرتين، وأمرهم أن لا يغسلوا من جنابة إلا من حرام، وصلاتهم إيماء لا سجود فيها، لكنهم يسجدون في آخر ركعة خمس سجادات، ويقولون عند تناول الطعام والشراب: باسمك يا كسي، وزعم أن تفسيره باسم الله،

وأمرهم أن يخرجوا العشر من جميع الشمار، وأباح لهم أن يتزوج الرجل من النساء ما شاء ولا يتزوج من بنات عمه ويطلقون ويراجعون ألف مرة في اليوم فلا تحرم عليهم المرأة بشيء من ذلك، وأمرهم بقتل السارق حيث وجد وزعم أنه لا يظهره من ذنبه إلا السيف وأن الديمة تكون من البقر وحرم عليهم رأس كل حيوان والدجاجة مكرروه أكلها وقدوتهم في الأوقات الديكة وحرم عليهم ذبحها وأكلها ومن ذبح ديكًا أو أكله اعتنق رقبة وأمرهم أن يلحسوا بصاص ولاتهم على سبيل التبرك فكان يبصق في أففهم فيلحسونه ويحملونه إلى مرضاهم يستشفون به ووضع لهم قرآنًا يقررونه في صلواتهم ويتلونه في مساجدهم، وزعم أنه نزل عليه وأنه وحي من الله تعالى إليه ومن شك في ذلك فهو كافر. والقرآن الذي شرع لهم ثمانون سورة سماها لهم بأسماء النبيين وغيرهم منها: سورة آدم وسورة نوح وسورة فرعون وسورة موسى وسورة هارون وسورةبني إسرائيل وسورة الأساطير وسورة أيوب وسورة يونس وسورة الجمل وسورة الديك وسورة الحجل وسورة الجراد وسورة هاروت وماروت وسورة إبليس وسورة الحشر وسورة غرائب الدنيا وفيها العلم العظيم بزعمهم حرم فيها وحلل وشرع وفصل وتسمى فيهم صالح المؤمنين وقال: أنا صالح المؤمنين الذي ذكره الله في كتابه الذي أنزله على محمد ﷺ كما حكاه البكري عن زمور^(١) بن صالح الوافد منهم على الحكم المستنصر الخليفة بقرطبة من قبل ملكهم يومئذ أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار سنة ثتين وخمسين وثلاثمائة. وكان يترجم عنه بجمعه خبره داود بن عمر المسطاسي قال: وكان ظهور صالح هذا في خلافة هشام بن عبد الملك سنة سبع وعشرين ومائة.

وقد قيل إن ظهوره كان لأول الهجرة وأنه انت حل ذلك عناً ومحاكاً لما بلغه من شأن النبي ﷺ والأول أصح. ثم زعم أنه المهدى الأكبر الذي يخرج

(١) الذي في النسخة المطبوعة أبو صالح زمور بن موسى بن هشام.

في آخر الزمان وأن عيسى يكون صاحبه ويصلبي خلفه وأن اسمه في اللسان العربي صالح وفي السرياني مالك وفي العجمي عالم وفي العبراني روبل وفي البربري واربا - ومعناه الذي ليس بعده نبي - .

ثم خرج إلى المشرق بعد أن ملكهم سبعاً وأربعين سنة ووعدهم أنه يرجع إليهم في دواة السابع منهم وأوصى بنيه بالتمسك بدینه فتوارثوا ضلاله من بعده إلى أواسط المائة الخامسة، وكان للدول فيهم ملاحض إلى أن جاءت دولة المرابطين فمحوا أثر بدعهم وسنعيد القول فيهم بأبسط من هذا عند الوصول إليها إن شاء الله .

الخبر عن تغلب آل عقبة بن نافع على المغرب وولاية عبد الرحمن بن حبيب منهم

كان عقبة بن نافع الفهري رضي الله عنه والياً على المغرب كما مر وهو الذي افتتح الأقصى منه، ولما استشهد بالزاب بقي بنوه به فكانت لهم وجاهة معروفة بين أهلة لمكان أبيهم عقبة من جهاد العدو وما فتح الله على يده من الأفظار واحتياطه مدينة القิروان إلى هي كرسي الإمارة فكان ما منح الله أهل المغرب من الإسلام والدين كله في صحيفته، فنالوا بذلك شرفاً خاصاً زيادة على شرف القرشية وعز الفهري؛ فكان يكون لهم الشفوف في بعض الأحيان حتى على الولاة فضلاً عن غيرهم .

وقد تقدم لنا في أخبار موسى بن نصير أنه استعمل ابنه عبد العزيز على الأندلس فثار عليه حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع وقتله بإغراء سليمان بن عبد الملك وتقدم أيضاً ما كان منه إلى كلثوم بن عياض عند قدومه القิروان من التوعد حتى أدى ذلك إلى مقاتلتهما .

ولما قتل حبيب هذا في وقعة كلثوم المتقدمة كان ابنه عبد الرحمن بن حبيب صاحب الترجمة في جملة أصحاب بلج الناجين إلى سبتة ولما قتل أصحاب بلج عبد الملك بن قطن الفهري وصلبوه كما مر فارقوهم

عبد الرحمن هذا لما صنعوا بابن عمه وعزم على الطلب بدمه فاجتمع إليه نحو مائة ألف من عرب الأندلس وبربرها وعمد إلى بلج فقتله في خبر طويل.

ثم حاول عبد الرحمن التغلب على الأندلس فلما قدم أبو الخطار واليأ عليها من قبل حنظلة بن صفوان أيس منها وركب البحر إلى المغرب، فاحتل بتونس في جمادى الأولى سنة ست وعشرين ومائة - وقد توفي هشام وولي الخلافة بعده الوليد بن يزيد الفاسق - فدعوا عبد الرحمن أهل تونس إلى نفسه فأجابوه. وبلغ ذلك حنظلة صاحب القيروان فكره قتال المسلمين وسفك دمائهم، فبعث إليه جماعة من وجوه الجندي يدعونه إلى الطاعة فلما وصلوا إليه انتهز الفرصة وأوثقهم في الحديد وأقبل بهم إلى القيروان فيمن اجتمع إليه. وأرسل إلى أوليائهم يحذرهم قتاله ويقول: «إن رميتم ولو بحجرة قتلت من في يدي» فأحجموا عنه ضئلاً بأشرافهم عن القتل وعلم بذلك حنظلة فارتحل إلى المشرق سنة سبع وعشرين ومائة. ودخل عبد الرحمن القيروان فتمكن منها واستولى على المغرب وهو أول متغلب عليه. قالوا: ولما ولـي مروان بن محمد المعروف بالحمار الخلافة بعث إليه بعهده. وكان أمر البربر يومئذ قد تفاقم وداء الخارجـية قد أضـل ورؤوسها قد نـبت في كل جهة فانتقضوا من أطراف البقاع وتـاثـروا على الأمر بكل مكان داعين إلى بـدعـتهم. وتولـيـ كـبـرـ ذلكـ منـهـمـ صـنـهاـجـةـ فـإـنـهـمـ التـفـواـ عـلـىـ كـبـيرـهـمـ ثـابـتـ الصـنـهاـجـيـ وـتـغـلـبـواـ عـلـىـ باـجـةـ وـثـارـتـ هـوـارـةـ بـطـراـبـلـسـ مـلـتـفـيـنـ عـلـىـ رـئـيـسـهـمـ عبدـ الجـبارـ وـالـحـارـثـ وـغـيـرـ هـؤـلـاءـ وـكـانـواـ عـلـىـ مـذـهـبـ الإـيـاضـيـةـ فـقـتـلـواـ عـاـمـلـ طـراـبـلـسـ بـكـرـ بنـ عـيـسـيـ الـقـيـسيـ لـمـاـ خـرـجـ يـدـعـهـمـ إـلـىـ السـلـمـ وـعـظـمـ الـخـطـبـ فـزـحـ فـإـلـهـمـ عبدـ الرـحـمـنـ بنـ حـبـيبـ سـنـةـ إـحـدىـ وـثـلـاثـيـنـ وـمـائـةـ فـظـفـرـ بـالـصـنـهاـجـيـ وـالـهـوـارـيـ وـقـتـلـهـمـاـ وـقـلـ جـمـوعـهـمـاـ ثـمـ زـحـفـ إـلـىـ عـرـوـةـ بـنـ الـولـيدـ الصـفـريـ وـكـانـ قدـ ثـارـ بـتـونـسـ فـقـتـلـهـ وـاستـأـصـلـ الشـوـارـ وـانـقـطـعـ أـمـرـ الـخـارـجـ منـ

إفريقية. ثم زحف سنة خمس وثلاثين ومائة إلى جموع من البربر - وكانوا قد تجمعوا بنواحي تلمسان - فظفر بهم وفل جمعهم ورجعوا، ثم أغزى جيشاً في البحر إلى صقلية وأآخر إلى سرداية فأثخنوا في أمم الفرنج حتى أذعنوا للجزية ودخل عبد الرحمن أرض المغرب وأذل المعاندين إلى أن كان ما ذكره.

وأما أهل الأندلس. فإنهم كانوا قد خلعوا أبا الخطار وولوا عليهم ثوبية بن سلامة الجذامي. قال ابن بشكوال: لما اتفقوا عليه خاطبوا بذلك عبد الرحمن بن حبيب فكتب إليه بعهده، وذلك سلخ رجب سنة سبع وعشرين ومائة، فضبط البلاط واستمر والياً ستين أو نحوها ثم هلك، وولى أهل الأندلس عليهم يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب وهو ابن صاحب الترجمة؛ ذكر الرazi^(١): أن مولده كان بالقيروان وأنه لما استولى أبوه على المغرب خرج يوسف هذا مغاضباً له لأمر اقتضى ذلك، فقدم الأندلس واستوطنها وساد بها، فأقامه أهلها والياً عليهم بعد أميرهم ثوابه، وقد مكثوا فوضى أربعة أشهر، وكان اجتماعهم عليه بإشارة الصميل بن حاتم الكلابي، فاستبد يوسف بالأندلس وضبطها إلى أن دخل عليه عبد الرحمن بن معاوية الأموي المعروف بالداخل، فانتزعها منه وأورثها بنيه كما سيأتي.

دخول عبد الرحمن الأموي إلى إفريقية وجوازه إلى الأندلس وتأسيسه للدولة الأموية بها

ولما استقر قدم الدولة العباسية بالشرق وانقرض أمر بني أمية سنة اثنين وثلاثين ومائة وذهبوا في كل وجه، أفلت عبد الرحمن بن معاوية هذا وقصد

(١) الرازى هذا هو أحمد بن محمد بن موسى بن بشير الرازى الكنانى من أهل قرطبة يكنى أباً بكر وكان كثير الرواية حافظاً للأخبار وله مؤلفات كثيرة في أخبار الأندلس، انظر ترجمته في معجم البلدان (لياقوت صحيفة 45).

المغرب فاجتاز بالقيروان - وبها عبد الرحمن بن حبيب صاحب الترجمة - فارتاد به وعزم على قتلها فنجا الأموي إلى الأندلس، وكان من أمره ما كان. ذكر ابن حيان: أن عبد الرحمن بن معاوية الأموي سار حتى أتى إفريقية فنزلها - وقد سبقه إليها جماعة من قل بني أمية - وكان عند صاحبها عبد الرحمن بن حبيب يهودي حدثاني قد صحب مسلمة بن عبد الملك فكان يتکهن له ويخبره بتغلب القرشي وملكه الأندلس ويرثها عقبه من بعده، وأن اسمه عبد الرحمن وهو ذو ضفيرتين ومن بيت الملك، فاتخذ الفهري ضفيرتين أرسلهما رجاء أن تناه الرواية، فلما جيء إليه بعد الرحمن الأموي ورأى ضفيرتيه، قال لليهودي: «هو هذا وأنا قاتله» فقال له اليهودي: «إن قاتله فما هو به وإن غلت عليه فإنه لهو».

وثقل قل بني أمية على ابن حبيب فطرد كثيراً منهم خوفاً على ملكه، ثم تجنى على ابنين للوليد بن يزيد كانوا قد استجارا به فقتلهم، وأخذ مالاً كان مع إسماعيل بن أبيان بن عبد العزيز بن مروان، وغلبه على أخيه فتزوجها غصباً، وطلب عبد الرحمن الداخل فاختفى كذا لاين حيان.

وعند ابن خلدون: أن الأخت المذكورة زوجها عبد الرحمن من أخيه إلياس بن حبيب ولما قتل ابني عمها امتعضت لذلك وأغرت زوجها واستفسدته على أخيه حتى قتله كما نذكر، وذلك أنه لما انظم أمر الدولة العباسية بالشرق وبويع السفاح ثم المنصور بعده كتب إلى عبد الرحمن بن حبيب يدعوه إلى الطاعة والبيعة فأجابه ودعا له، وبعث إليه بهدية فيها بزاء وكلاب وذهب قليل، وذكر أن إفريقية اليوم إسلامية وقد انقطع السبي، فغضب المنصور وكتب إليه يتوعده. وبعث إليه مع ذلك بخلعة الإمارة. فنزع عبد الرحمن يده من الطاعة ومزق الخلعة على المنبر. فوجد أخوه إلياس بذلك السبيل إلى ما كان يحاوله عليه. وداخل وجوه الجندي في الفتى به وإعادة الدعوة للخليفة المنصور. وما لآه على ذلك أخوه عبد الوارث بن حبيب. وأحسن عبد الرحمن منها بالشر فأمر إلياس بالمسير إلى تونس.

فأظهر الامثال ثم جاء ليودعه - ومعه عبد الوارث. وكان عبد الرحمن مريضاً - فدخل عليه وقتلها على فراشه آخر سنة سبع وثلاثين ومائة عشر سنتين وسبعة أشهر من تغلبه على المغرب.

استيلاء إلياس بن حبيب على المغرب

لما فتك إلياس أخيه عبد الرحمن معتداً عليه بخلعه طاعة الخليفة فر ابنه حبيب بن عبد الرحمن إلى تونس بعد أن طلبوا وضيبيوا أبواب القصر ليأخذوه فلم يظفروا به وكان عممه عمران بن حبيب والياً بتونس من قبل أبيه فلحق به وتم الأمر لإلياس واستولى على القิروان. ثم زحف إليه عمران وحبيب فيمن اجتمع إليهما. وخرج إلياس للقائهم. فالتقوا واقتتلوا ملياً. ثم اصطلحا على أن يكون لحبيب ققصة وقسطنطينة وسائر بلاد الجريد، ولعمران تونس وسطفورة والجزيرة، ولإلياس القิروان وسائر إفريقية والمغرب. وتم هذا الصلح سنة ثمان وثلاثين ومائة، وسار حبيب إلى عمله من بلاد الجريد. وارتحل إلياس مع أخيه عمران إلى تونس. ولما وصلا إليها غدر إلياس بعمران فقتله وقتل جماعة من الأشراف معه. وقيل غربه إلى الأندلس وعاد هو إلى القิروان. فبعث بطاعته إلى أبي جعفر المنصور مع قاضي إفريقية عبد الرحمن بن زياد بن أنعم^(١) وصفا له أمر المغرب. وُنقل عليه مكان حبيب فاحتال عليه حتى أركبه البحر إلى الأندلس. وأركب معه أخيه عبد الوارث فردهم قاصف من الريح إلى طبرقة وكتبا بخبرهم إلى إلياس

(١) هو أول مولود ولد في الإسلام بإفريقية سنة أربع أو خمس وتسعين حين دخول الجندي إليها وكان حافظاً راوياً لل الحديث جليل القدر توفي في شهر رمضان سنة إحدى وستين ومائة ودفن بباب نافع من مدينة القิروان رحمه الله. انظر ترجمته في معالم الإيمان في معرفة أهل القิروان وغيره من كتب أسماء رجال الحديث.

فلج في طردهم.

وتسمعت موالي عبد الرحمن وشيته بابن مولاهم فتسارعوا إليه وأنزلوه من السفين والتفوا عليه وزحفوا به إلى تونس فملكونها وخرج إلياس لقتالهم فخالقوه إلى القيروان وملكونها عليه وفتقوا السجون فرجع إلياس لقتالهم وقد فر أكثر من معه إلى حبيب ولما تراءى الجموع حول القيروان بربز حبيب فنادى: يا عم لم نقتل أوليائنا وضائتنا وهم جنتنا؟ فهلم للبراز فأينا غالب ملك! فصاح الجيشان بتصويب رأيه، فبرزا وتضاربا حتى عجب الناس من صبرهما ثم قتل حبيب إلياس ودخل القيروان فملكتها آخر سنة ثمان وثلاثين ومائة فكانت ولاية إلياس نحو سنة ونصف.

وفي هذه السنة استولى عبد الرحمن بن معاوية الأموي على جزيرة الأندلس: انتزعها من يد أميرها يوسف بن عبد الرحمن الفهري وهو آخر حبيب المذكور آنفًا.

قال ابن حيان: «كان تغلب عبد الرحمن بن معاوية المرواري على سرير الملك بقرطبة يوم الأضحى لعشر خلون من ذي الحجة سنة ثمان وثلاثين ومائة واستقام أمره بالأندلس وبنى المسجد الجامع والقصر بقرطبة وأفق فيه ثمانين ألف دينار ومات قبل تمامه. ووفد عليه جماعة من أهل بيته من المشرق وكان يدعى للمنصور العباسى ثم قطع دعوته ومهد الدولة بالأندلس وأتى بها الملك العظيم لبني مروان وخرجت الأندلس من يومئذ عن نظر صاحب القيروان بل وعن نظر الخليفة بالشرق والله غالب على أمره».

استيلاء حبيب بن عبد الرحمن على المغرب وفتنـة عاصم بن جمـيل المـتبـوع ومـقتـله

لما قتل حبيب بن عبد الرحمن عمه إلياس وتمكن من القิروان طلب عمه عبد الوارث لمشاركته في دم أبيه كما مر ففر عبد الوارث إلى ورجومنة: إحدى بطون نفزاو بن لوبي من البرابرة البتر فنزل على كبرهم عاصم بن جميل - وكان كاهناً يدعى النبوة - فأجراه. ثم نهض إليهم حبيب فأوقعوا به وهزموه إلى قابس.

واستفحـل أمر عاصـم وشـاعـه عـلـى شـائـه مـن رـجـالـات نـفـزاـوة عبد الملك بن أبي الجعد الورـجوـمي وـيزـيدـ بن سـكـومـ الـولـهاـصـي - وـكانـا عـلـى رـأـيـ الإـبـاضـيـة - وـانـضـمـتـ إـلـيـهـمـ سـائـرـ نـفـزاـوةـ وـاشـتـدـتـ شـوـكـتـهـمـ وـكانـ قـيـامـهـ أـلـاـ بـدـعـةـ الـخـلـيقـةـ الـمـنـصـورـ .

ولـما بـقـيـ أـهـلـ القـيـروـانـ فـوـضـىـ بـسـبـبـ فـرـارـ أـمـيرـهـ إـلـىـ قـابـسـ كـتـبـ مـنـ بـهـاـ مـنـ الـعـرـبـ إـلـىـ عـاصـمـ هـذـاـ يـدـعـونـهـ لـلـقـدـومـ عـلـيـهـمـ وـالـقـيـامـ بـأـمـرـهـ بـشـرـطـ الدـعـاءـ لـلـمـنـصـورـ فـأـتـىـ وـقـاتـلـهـمـ فـهـزـمـهـمـ وـدـخـلـ القـيـروـانـ عنـوـةـ وـاسـتـبـاحـ أـهـلـهـاـ وـخـربـ مـسـاجـدـهـ وـأـهـانـهـاـ ثـمـ سـارـ إـلـىـ حـبـيـبـ بـقـابـسـ - بـعـدـ أـنـ اـسـتـخـلـفـ عـلـىـ القـيـروـانـ وـمـنـ بـقـيـ بـهـاـ مـنـ نـفـزاـوةـ عـبدـ الـمـلـكـ اـبـنـ أـبـيـ الـجـعـدـ - فـقـاتـلـ حـبـيـبـ وـهـزـمـهـ فـلـحـ حـبـيـبـ بـجـبـلـ أـورـابـنـ^(١) وـأـجـارـهـ أـهـلـهـ ثـمـ زـحـفـ إـلـيـهـمـ عـاصـمـ فـهـزـمـوـهـ وـقـتـلـوـهـ وـاسـتـلـحـمـوـ جـمـاعـةـ مـنـ أـصـحـابـهـ . وـقـامـ بـأـمـرـ وـرـجـوـمـةـ وـالـقـيـروـانـ مـنـ بـعـدهـ عـبدـ الـمـلـكـ بـنـ أـبـيـ الـجـعـدـ . وـأـهـلـ القـيـروـانـ أـثـنـاءـ هـذـاـ كـلـهـ فـيـ غـايـةـ الـمـذـلةـ وـالـهـوـانـ مـعـ الـبـرـرـ . ثـمـ زـحـفـ حـبـيـبـ إـلـىـ القـيـروـانـ فـبـرـزـ إـلـيـهـ عـبدـ الـمـلـكـ وـهـزـمـ حـبـيـبـ وـقـتـلـهـ فـيـ الـمـحـرـمـ سـنـةـ أـرـبعـينـ وـمـائـةـ فـكـانـتـ وـلـايـتـهـ نـحـوـ ثـلـاثـ سـنـينـ وـانـقـرـضـ بـمـقـتـلـهـ أـمـرـ آـلـ عـقـبةـ مـنـ الـمـغـرـبـ وـالـبـقاءـ لـهـ وـحـدـهـ .

(١) أوراس كما في النسخ الصحيحة لابن خلدون.

استيلاء عبد الملك بن أبي الجعد على المغرب

لما قتل عبد الملك بن أبي الجعد الورنجمي حبيب بن عبد الرحمن الفهري رجع في جموع البربر إلى القิروان فملكها. وأمر أمر ورجمومة واستطاعوا على أهل القิروان وقتلوا من بها من قريش وسائر العرب حيث وجدوا وعاملوهم معاملة المكتناسين لآل إدريس واستحلوا من الحرمات ما لم يستحله عاصم بن جميل قبلهم حتى لقد ربطوا دوابهم بالمسجد الجامع. واشتغلوا على أهل القิروان وافتلقوا في التواحي فراراً بأنفسهم وشاء خبرهم في الآفاق. فحيثئذ قام أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح الغافري من رجالات العرب - وكان على رأي الإباضية - بأحواز طرابلس منكراً لفعل ورجمومة ومغيراً عليهم حسبما نذكر.

استيلاء عبد الأعلى بن السمح على المغرب وظهور الصفرية من آل مدرار المكتناسين وبناؤهم مدينة سجلماسة

كان أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري من وجوه العرب وكان على رأي الإباضية كما قلنا ولما بلغه ما ارتكبه ورجمومة من أهل القิروان امتعض لذلك وقام محتسباً عليهم وشايده على ذلك برايرة طرابلس . - وتولى كبر ذلك هواة منهم - وهوارة إحدى بطنون أوريغة من البرانس - فاجتمعوا إليه وتقدم بهم إلى طرابلس فملكها ثم زحف إلى القิروان سنة إحدى وأربعين ومائة فخرج إليه عبد الملك بن أبي الجعد في جموعه فانهزل عنه أهل القิروان لما نالهم من عسفه وعسف قومه فانهزم وقتل . واستولى أبو الخطاب على القิروان وأثخن في جموع عبد الملك من

ورفعه وسائر نفزاوة. ثم ولی على القیروان عبد الرحمن بن رستم الفارسي - وهو من أبناء رستم أمیر الفرس يوم القادسية - كان عبد الرحمن هذا من موالي العرب ومن رؤوس هذه البدعة فاستخلفه أبو الخطاب على القیروان ورجع هو إلى طرابلس للقاء العساكر القادمة من جهة الخليفة المنصور على ما نذكره.

ولما حصل هذا الاضطراب بالمغرب اجتمعت الصفرية من مکنasaة بناحية المغرب الأقصى فنقضوا طاعة العرب. وولوا عليهم عيسى بن يزيد الأسود من موالي العرب ورؤوس الخارج واحتطوا مدينة سجلماسة سنة أربعين ومائة من الهجرة ودخل سائر مکنasaة من أهل تلك الناحية في دينهم واقطعوا سجلماسة وأعمالها عن نظر الولاة بالقیروان.

ومن هذا الاجتماع نشأت دولة بني مدرار ملوك سجلماسة، فإن صفرية مکنasaة لما بايعوا عيسى بن يزيد^(١) أقام أميراً عليهم نحو خمس عشرة سنة ثم سخطوا إمرته، ونقموا عليه بعض أحواله فعمدوا إليه وأوثقوه كتافاً، ووضعوه على قنة حبل إلى أن هلك سنة خمس وخمسين ومائة واجتمعوا بعده على كبيرهم أبي القاسم بن سموکو بن واسول المکناسي الصفرى كان أبوه سموکو من حملة العلم ارتحل إلى المدينة فأدركه التابعين وأخذ عن عكرمة مولى ابن عباس (قاله عرب بن حميد القرطبي^(٢) في تاريخه) وكان عكرمة^(٣) ببرى الأصل كما عند ابن خلkan، قال: (وقد تكلم الناس فيه لأنـه

(١) سماه البكري عيسى بن مزيد الأسود.

(٢) في معجم الأدباء لياقوت ترجمة عرب بن محمد مصرف بن عزیز القرطبي، انظرها في صحیفة ٥٥ من الجزء الخامس. فلعل عرباً هذا هو الذي ينقل عنه المؤلف، وإنما تصحّف اسم أبيه حميد بمحمد أو العكس والله أعلم.

(٣) ذكر ابن حجر في تهذيب التهذيب بأنه كان من أعظم الداعين للبدعة الخارجية بإفريقية، وتوفي سنة ١٠٥ وقيل غير ذلك، راجع ترجمته في تهذيب التهذيب، وابن خلkan وغيره.

كان يرى رأي الخوارج) وكان أبو القاسم المذكور صاحب ماسية، وهو الذي بايع لعيسى بن يزيد وحمل قومه على طاعته، فلما خلعوا عيسى بايعوا أبي القاسم من بعده، وقام بأمرهم إلى أن هلك^(١) سنة سبع وستين ومائة.

وكان يخطب في عمله للمنصور ثم للمهدي من بنى العباس، ولما هلك ولوا عليهم ابنه إلياس بن أبي القاسم - وكان يدعى بالوزير - ثم انتقضوا عليه سنة أربع وسبعين ومائة فخلعواه ولوا مكانه أخيه اليسع بن أبي القاسم وكنيته أبو منصور - وكان صفرياً - وعلى عهده استفحـل ملـكـهـمـ بـسـجـلـمـاسـةـ وـهـوـ الذـيـ آدارـ سـورـهـ وـأـتـمـ بـنـاءـهـ،ـ وـاخـطـطـ بـهـ الـبـصـانـعـ وـالـقـصـورـ،ـ وـانتـقلـ إـلـيـهـ آخرـ المـائـةـ الثـانـيـةـ،ـ وـهـلـكـ سـنةـ ثـمـانـ وـمـائـيـنـ وـولـىـ بـعـدـهـ اـبـنـهـ مـدـرـارـ وـلـقـبـهـ المـنـتـصـرـ وـطـالـتـ مـدـتـهـ،ـ وـكـانـ لـهـ وـلـدـانـ كـلـ مـنـهـمـ اـسـمـهـ مـيمـونـ،ـ أـحـدـهـمـاـ لـأـرـوـيـ بـنـتـ عـبـدـ الرـحـمـنـ بـنـ رـسـمـ صـاحـبـ تـاهـرـتـ،ـ وـالـآـخـرـ لـبـغـيـ وـكـانـ يـعـرـفـ بـالـأـمـيرـ فـتـنـازـعـاـ وـتـداـلـاـ الـأـمـرـ بـيـنـهـمـ اـسـتـبـدـاـدـاـ عـلـىـ أـبـيهـمـ وـدـامـتـ الـحـربـ بـيـنـهـمـ ثـلـاثـ سـنـيـنـ،ـ وـهـلـكـ أـبـوهـمـاـ مـدـرـارـ سـنةـ ثـلـاثـ وـخـمـسـيـنـ وـمـائـيـنـ فـيـ نـوـيـةـ مـيمـونـ الـأـمـيرـ،ـ وـاسـتـمـرـ مـيمـونـ هـذـاـ فـيـ اـسـتـبـدـاـدـهـ إـلـىـ أـنـ هـلـكـ سـنةـ ثـلـاثـ وـسـتـيـنـ وـمـائـيـنـ وـولـىـ اـبـنـهـ مـحـمـدـ بـنـ مـيمـونـ،ـ وـكـانـ أـبـاضـيـاـ وـتـوـفـيـ سـبـعـيـنـ وـمـائـيـنـ،ـ فـوـلـيـ الـيـسـعـ بـنـ الـمـنـتـصـرـ.

وفي أيامه قدم عبيد الله المهدي أول خلفاء العبيديين من الشيعة وابنه أبو القاسم من المشرق، فدخلها سجلماسة متنكريين، وكان الخليفة المعتصد بالله العباسى قد أوعز إلى اليسع هذا بالقبض عليهم فنقب عنهم وقبض عليهم وأودعهما السجن إلى أن افتكهما مقيم دولتهما أبو عبد الله الشيعي المعروف بالمحتسب، فإنه اقتحم سجلماسة في خبر معروف وأخرج عبيد الله وابنه من السجن وقتل اليسع سنة ست وسبعين ومائين.

(١) قال البكري سنة ثمان وستين فجأة في آخر ركعة من صلاة العشاء.

ثم بايع أهل سجلماسة من بعده الفتح بن ميمون الأمير - وكان أبياضياً - وهلك على رأس المائة الرابعة فولي أخيه أحمد بن ميمون الأمير واستقام أمره إلى أن زحف مصالة بن حبوب الكتامي - قائد الشيعة العبدية - في جموع كتمامة إلى المغرب الأقصى سنة تسع وثلاثمائة، فدروخه وأخذ أهله بدعاوة صاحبه عبيد الله المهدي، وافتتح سجلماسة وتقبض على صاحبها أحمد بن ميمون الأمير، ثم ولى عليها من قبله محمد بن بسادر بن مدرار فلم يلبث أن استبدل على الشيعة، وتلقب بالمعتز وهلك ستة إحدى وعشرين وثلاثمائة. وولي ابنه المتتصر محمد بن المعتز فمكث عشرأً وهلك، وولي ابنه المتتصر سموك شهرين، وكانت جدته تدير أمره لصغره.

ثم ثار عليه ابن عمّه محمد بن الفتح بن ميمون الأمير ورفض الخارجية ونادي بالدعوة العباسية، وأخذ بمذهب أهل السنة، وتلقب بالشاكر لله، واتخذ السكة باسمه، فكانت تسمى بالدراهم الشاكيرية.

قال ابن حزم: وكان في غاية العدل وكانت سكته في غاية الطيب، واستمر إلى أن زحف جوهر الكاتب قائد المعز العبيدي - في جموع صنهاجة وكتمامة - إلى المغرب الأقصى سنة سبع وأربعين وثلاثمائة فغلب على سجلماسة، وفر عنها محمد بن الفتح إلى حصن تسكريات^(١) على أميال منها؛ ثم دخل سجلماسة متذمراً فعرفه رجل من مضفورة وأعلم به جوهرأً فتقبض عليه وساقه أسيراً - مع أحمد بن أبي بكر الزناتي صاحب فاس - إلى المهدية كما نذكره.

ثم لما انتقض المغرب على الشيعة وأخذ زناته بطاعة الحكم المستنصر صاحب الأندلس ثار بسجلماسة قائم من ولد الشاكر لله وتلقب بالمتتصر

(١) وسماها البكري بتاسجدةالت قال: وهي حصن منيع على اثنى عشر ميلاً من سجلماسة.

بالله. ثم وثب عليه أخيه أبو محمد سنة اثنين وخمسين وثلاثمائة فقتله وقام بالأمر مكانه وتلقب بالمعتز بالله، وأقام على ذلك مدة وأمر مكتاسة يومئذ قد تداعى إلى الانحلال، وأمر زناته قد استفحـل بالـمـغـرـبـ، إلى أن زحف خزرون بن فلول الزناتي ثم المـغـراـويـ إلى سـجـلـماـسـةـ سـنـةـ سـتـ وـسـيـنـ وـثـلـاثـمـائـةـ فـبـرـزـ إـلـيـهـ أـبـوـ مـحـمـدـ الـمـعـتـزـ فـهـزـمـ خـزـرـونـ وـقـتـلـهـ وـاـسـتـولـىـ عـلـىـ بـلـدـهـ وـذـخـيرـتـهـ وـيـعـثـ بـرـأـسـهـ إـلـىـ قـرـطـبـةـ، وـكـانـ ذـلـكـ لـأـوـلـ حـجـابـ الـمـنـصـورـ بـنـ أـبـيـ عـامـرـ الـمـسـبـدـ عـلـىـ بـنـيـ بـنـيـ بـالـأـنـدـلـسـ؛ـ وـانـقـرـضـ أـمـرـ بـنـيـ مـدـارـ وـبـلـقـاءـ اللـهـ.

وقد لخصنا هذه الدولة المدارية من كتاب العبر وسردناها هنا استطراداً ثم نعود إلى موضوعنا الذي كنا فيه. وبالله التوفيق.

ولاية محمد بن الأشعث على المغرب

لما ارتكبت ورجومـةـ منـ أـهـلـ الـقـيـرـوـانـ ماـ اـرـتـكـبـتـهـ وـفـدـ جـمـاعـةـ منـ رـجـالـ الـعـربـ بـهـاـ عـلـىـ الـخـلـيـفـةـ الـمـنـصـورـ وـاـسـتـصـرـخـوـهـ عـلـىـ الـخـواـرـجـ،ـ وـشـكـوـاـ إـلـيـهـ تـسـلـقـهـمـ عـلـىـ كـرـسيـ الـإـمـارـةـ بـالـقـيـرـوـانـ،ـ فـوـجـهـ الـمـنـصـورـ مـحـمـدـ بـنـ الـأـشـعـثـ الـخـزـاعـيـ وـالـيـأـ عـلـىـ مـصـرـ وـأـمـرـهـ باـسـتـقـاذـ إـفـرـيقـيـةـ مـنـ الـبـرـبرـ،ـ فـوـجـهـ مـحـمـدـ بـنـ الـأـشـعـثـ أـبـاـ الـأـخـوـصـ عـمـرـوـ بـنـ الـأـخـوـصـ الـعـجـلـيـ سـنـةـ اـثـنـيـنـ وـأـرـبعـينـ وـمـائـةـ،ـ فـخـرـجـ إـلـيـهـ أـبـوـ الـخـطـابـ الـمـعـافـيـ وـهـزـمـهـ بـسـرـتـ^(١)ـ قـرـيبـاـ مـنـ طـرـابـلـسـ وـاـسـتـولـىـ عـلـىـ عـسـكـرـهـ.

ورجـعـ أـبـوـ الـأـخـوـصـ مـفـلـوـلاـ إـلـىـ مـصـرـ،ـ فـكـبـ الـمـنـصـورـ إـلـىـ أـبـنـ الـأـشـعـثـ

(١) سـرـتـ مـدـيـنـةـ عـلـىـ سـاحـلـ الـبـحـرـ الـمـتوـسـطـ بـيـنـ بـرـقـةـ وـطـرـابـلـسـ الـغـرـبـ ضـبـطـهـ يـاقـوتـ بـضمـ السـيـنـ وـسـكـونـ الرـاءـ،ـ وـتـعـرـفـ عـنـ الـإـفـرـنجـ قـدـيـمـاـ بـسـرـتـ بـكـسـرـ السـيـنـ.

يأمره بالمسير إلى المغرب بنفسه، فسار إليه في أربعين ألفاً - ومعه الأغلب بن سالم التميمي - فلقيهم أبو الخطاب بسرت أيضاً فأوقع به ابن الأشعث وقتلها واستلهم جموعه.

وطار الخبر بذلك إلى عبد الرحمن بن رستم بمكانه من القิروان فاحتمل أهله وولده ولحق ببابضية المغرب الأوسط، ونزل على لمایة: بطن من بني فاتن بن ناصيف بن ضری من البر، لحلف كان بينه وبينهم، فالتفوا عليه وباعوا له بالخلافة وتفاوضوا في بناء مدينة تكون كرسياً لإمارتهم - شأن الصفرية من بني مدرار - فشرعوا في بناء مدينة تاهرت^(١) سنة أربع وأربعين ومائة، فعمرت واتسعت خطتها وتوارثها بنو رستم واقتطعواها عن نظر ولاة المغرب.

وكان يسلم عليهم بالخلافة - على ما هو المعروف من مذهب الخوراج - إلى أن انقرضت دولتهم على يد العبيديين أواخر المائة الثالثة.

وأما ابن الأشعث فإنه استقر بالقิروان غرة جمادى الأولى سنة أربع وأربعين ومائة وشرع في بناء سورها في ذي القعدة من السنة وتم في رجب سنة ست وأربعين ومائة، وضبط المغرب أحسن ضبط وافتتح طرابلس واستعمل عليها المخارق بن غفار الطائي، وعلى طبنته والزاب الأغلب بن سالم، وخافه البربر.

ثم ثار عليه عيسى بن موسى بن عجلان الخراساني أحد الجندي في جماعة من قواد مصر ونفوه عن القิروان ففُقل إلى المشرق ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومائة فكانت ولايته نحو أربع سنين.

(١) راجع ما ذكره ياقوت في معجم البلدان في حق هذه المدينة، فقد بسط الكلام عليها وأفاد، وكذلك ابن خلدون في صحيفة ١٥٤ وما يليها من الجزء الأول من تاريخ البربر طبع الجزائر.

ولاية الأغلب بن سالم التميمي على المغرب

لما قفل ابن الأشعث إلى المشرق ولـى جند مصر عليهم عيسى بن موسى الخراساني واتصل بالمنصور ما فعله قواد مصر من ذلك، فبعث إلى الأغلب بن سالم التميمي ثم السعدي بعهده على المغرب - والأغلب هذا هو جد الأغالبة ملوك إفريقيـة من بعدهـ. وكان من ذوي الشجاعة والرأي ومن أصحاب أبي مسلم بخراسـان - فدخل المغرب مع ابن الأشعـث واستعملـه على طبـنة كـما مرـ. فـلما وفـاه عـهد الخليـفة أواخر جـمادـي الـآخرـة سـنة ثـمان وأربعـين ومائـة انتـقل إلى القـيرـوان وأمنـها واستـقام أمرـهـ.

ثم خـرج عليه أبو قـرة يـن دونـاس الـيفـرنـي ويـقال المـغـيلـي من الصـفـرـية وـالـتـفتـ عـلـيـه زـنـاتـة بـجهـة تـلـمسـانـ، وـبـايـعـوا لـهـ بـالـخـلـافـةـ، وـاستـفـحلـ أمرـهـ فـزـحفـ إـلـيـهـ الأـغلـبـ، فـلـمـ دـنـا مـنـهـ فـرـأـيـهـ قـرـةـ إـلـىـ الـمـغـرـبـ الـأـقـصـيـ فـلـمـ يـقـفـ إـلـا بـطـنـجـةـ وـانـتـهـيـ الأـغلـبـ إـلـيـ الزـابـ ثـمـ عـادـ إـلـيـ القـيرـوانـ فـعـادـ أبوـ قـرـةـ إـلـيـ وـطـنـهـ مـنـ تـلـمسـانـ.

وفي سـنة خـمـسـينـ وـمـائـةـ خـرـجـ الأـغلـبـ لـقتـالـ الصـفـرـيةـ فـتـقـاـلـ عـنـهـ طـائـفةـ منـ الجـنـدـ، وـلـمـ أـوـغـلـ فـيـ طـلـبـ الصـفـرـيةـ ثـارـ عـلـيـهـ الـحـسـنـ بـنـ حـربـ الـكـنـدـيـ - وـكـانـ بـتـونـسـ - وـلـحـقـ بـهـ الـمـتـاـقـلـوـنـ مـنـ الجـنـدـ، وـكـانـ تـقـاـلـهـمـ عـنـ الأـغلـبـ بـمـكـاتـبـ الـحـسـنـ إـيـاهـمـ فـيـ ذـلـكـ، فـأـقـبـلـ بـهـمـ إـلـيـ القـيرـوانـ وـاسـتـولـيـ عـلـيـهـاـ وـلـحـقـ الـأـغلـبـ بـقـابـسـ وـكـاتـبـ الـحـسـنـ يـرـغـبـهـ فـيـ الطـاعـةـ فـلـمـ يـقـبـلـ، ثـمـ وـافـيـ كـتـابـ الـمـنـصـورـ يـدـعـوـ الـحـسـنـ إـلـيـ الطـاعـةـ فـأـبـيـ، فـصـمـدـ إـلـيـهـ الـأـغلـبـ وـاقـتـلـاـ فـانـهـزـمـ الـحـسـنـ وـفـرـ إـلـيـ تـونـسـ وـجـمـعـ الـجـمـوعـ وـرـجـعـ، فـخـرـجـ إـلـيـ الـأـغلـبـ فـأـصـابـهـ سـهـمـ فـقـتـلـهـ؛ فـقـدـمـ أـصـحـابـهـ عـلـيـهـمـ الـمـخـارـقـ بـنـ غـفارـ الطـائـيـ الـذـيـ كـانـ عـلـيـ طـرابـلسـ، وـحـمـلـوـاـ عـلـيـهـمـ الـحـسـنـ فـانـهـزـمـ أـمـامـهـمـ إـلـيـ تـونـسـ، ثـمـ لـحـقـ بـكـتـامـةـ وـخـيلـ الـمـخـارـقـ فـيـ اـتـيـاعـهـ، ثـمـ رـجـعـ إـلـيـ تـونـسـ بـعـدـ شـهـرـيـنـ فـقـتـلـهـ الـجـنـدـ.

وقيل إن أصحاب الأغلب قتلوا في الوقت الذي قتل فيه الأغلب وكان مقتل الأغلب في شعبان سنة خمسين ومائة .
وقام بأمر إفريقية المخارق بن غفار إلى أن كان ما ذكره .

ولاية عمر بن حفص هزارمود على المغرب

لما بلغ الخليفة المنصور مقتل الأغلب بن سالم وجه مكانه عمر بن حفص - من ولد قبيصة بن أبي صفرة أخي المهلب بن أبي صفرة - فقدم القيروان في خمسمائة فارس سنة إحدى وخمسين ومائة ، فاستقامت أمره ثلاثة سنين ثم خرج إلى طينة لإدارة سور عليها ، واستخلف على القيروان حبيب بن حبيب المهلبي ، ثثار البربر بإفريقية - لما علموا من بعد الحامية عنها - وغلبوا على من كان بها ، وزحفوا إلى القيروان فخرج إليهم حبيب فهزمه وقتلوا ، وثار البربر الإباضية بطرابلس ولووا عليهم أبا حاتم يعقوب بن لبيب المغيلي مولى كندة .

وتسامعت به خوارج المغرب فانتقضوا من كل ناحية ونبغت رؤوس الفتنة من كل وجه وعادت هيف إلى أديانها ، وكانت هذه الفتنة هي زيدة الفتنة التي مخضتها الخوارج بالمغرب من لدن ميسرة الخفير إلى الآن ، فإنهم زحفوا إلى عمر بن حفص وهو بطينة من أرض الزاب في اثنى عشر عسكراً فكان منهم أبو قرة اليفرني من أربعين ألفاً من الصفرية ، وعبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت في خمسة عشر ألفاً من الإباضية ، والمسور بن هاني الزناتي في عشرة آلاف من الإباضية أيضاً ، وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجي في ألفين من صنهاجة الصفرية ، وجرير بن مسعود المديوني فيمن تبعه من مدينة وانضم إليهم غير هؤلاء من خوارج هوارة وزناته ومن لا يحصى كثرة .

ولما اشتد الحصار على عمر بن حفص أعمل الحيلة في إيقاع الخلاف

بينهم ودفعهم بالأموال وأرسل إلى أبي قرة على يد ابنه أبي نور أن يعطيه أربعين ألفاً ولابنه أربعة آلاف على أن يرتحل عنه فقبل وارتحل بقومه وانقضى البرير عن طبنته.

ثم سار أبو حاتم يعقوب بن لبيب إلى القิروان وحاصرها شهرين حتى أكل أهلها الميّة، ولما اشتد الحصار على أهل القิروان خرج عمر بن حفص من طبنة يريد أبا حاتم الاباضية الذين معه، وبلغ أبا حاتم وأصحابه وهم محاصرون للقิروان مسيرة عمر بن حفص إليهم فساروا للقاءه، فمال هو من الأربس^(١) إلى تونس، ثم جاء إلى القิروان فدخلها واستعد للحصار وشحنتها بالأقوات والرجال، وأتبعه أبو حاتم والبرير وأبو قرة معهم في قومه - وكانوا في ثلاثة وخمسين ألفاً، الخيل منهم خمسة وثمانون ألفاً، والباقي رجالاً وأحاطوا بالقิروان - وعمر بن حفص دخلها - وطال الحصار ثم بلغه الخبر أن المنصور وجه لاستئنافه ابن عمه يزيد بن حاتم المهليبي فأنف من ذلك وقال: لا خير في الحياة بعد أن يقال: يزيد أخرجه من الحصار! إنما هي رقدة ثم أبعث إلى الحساب! وخرج عمر فقاتل حتى قتل أواسط حجة سنة أربع وخمسين ومائة.

وكان عمر هذا بطلاً سمحاً، يلقب هزارمود، وهو لفظ فارسي معناه ألف رجل.

ثم ولى الناس عليهم أخيه لأمه حميد بن صخر، وانقضى الحصار وأحرق أبو حاتم أبواب القิروان وثلم سورها، وخرج أكثر الجندي إلى طبنة، ودخل أبو حاتم القิروان فاستولى عليها، ويقال إن ابن صخر وادعه على ما أحب والله تعالى أعلم.

(١) الأربس ضبطه ياقوت في المعجم بالضم ثم السكون والباء الموحدة مضمة وسین مهملة، وقال هي مدينة وكورة بإفريقية بينها وبين القิروان ثلاثة أيام نحو المغرب فراجعه فقد بسط الكلام عليها.

ولاية يزيد بن حاتم على المغرب

لما بلغ المنصور انتفاض إفريقية على عمر بن حفص وحصاره بطنية أولًا ثم بالقيروان ثانيةً بعث إليه يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة في ستين ألفاً، وبلغ خبره عمر بن حفص فحمله ذلك على الاستئناف كما تقدم.

وبلغ أبا حاتم وهو بالقيروان مسيراً يزيد بن حاتم إليه فخرج للقاءه، فلقيه يزيد بن حاتم بنواحي طرابلس؛ واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم البربر وقتل أبو حاتم في ثلاثين ألفاً من أصحابه، وتبعهم يزيد بالقتل طليباً بدم عمر بن حفص.

ثم ارتحل إلى القيروان فدخلها يوم الاثنين عشر مضت من جمادى الأولى سنة خمس وخمسين ومائة فمهدها ورتب أسواقها وأفرد لكل صناعة مكاناً وجدد بناء جامعها وضبط الأمور أحسن ضبط.

وكان عبد الرحمن بن حبيب بن عبد الرحمن الفهري مع أبي حاتم، فلحق بكتامة، فبعث يزيد في طلبه المخارق بن غفار فحاصره ثمانية أشهر ثم غلب عليه فقتل جماعة من معه وهرب الباقيون في كل ناحية، ونجا هو إلى الأندلس.

وبعث يزيد المخارق أيضاً على الزاب فنزل طينة وأشخن في البربر وأوقع بهم وقائع عظيمة.

وكانت حروب الخوارج مع العرب منذ انتقضوا على عمر بن حفص إلى انتقضائها ثلاثة وخمسين حرباً قاله ابن خلدون.

ثم انتقضت ورفجومة سنة سبع وخمسين وولوا عليهم رجلاً اسمه أبو زرجونة، فسرح إليهم يزيد بن حاتم من عشيرته يزيد بن مجذأة المهلبي فهزموه واستأذنه ابنه المهلب - وكان على الزاب وطينة - في الزحف إلى

ورفع جومة فأذن له وأمده بالعلاء بن سعيد بن مروان المهليبي من عشيرتهم أيضاً فأوقع بهم وقتلهم أربع قتل.

وانتقضت نفزاوة من بعد ذلك في سلطنة ابنه داود بن يزيد فاستأصلهم قتلاً أيضاً فركدت ريح الخوارج من البربر حينئذ وتداعت بدعتهم إلى الأضمحلال.

قال ابن خلدون: لم يزل أمر الخوارج بالمغرب - يعني أيام يزيد هذا - في تناقض إلى أن اضمحلت دياناتهم وافترقت جماعتهم وبقيت آثار نحلتهم في أعقاب البربر الذين دانوا بها في صدر الإسلام: ففي بلاد زناتة بالصحراء منها أثر باق لهذا العهد، وكذلك في جبال طرابلس أثر باق من تلك النحلة، والله يفضل من يشاء ويهدى من يشاء. واستمر يزيد بن حاتم ضابطاً لأمر إفريقية والمغرب إلى أن توفي بها يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة سبعين ومائة في خلافة هارون الرشيد العباسي فكانت ولادته خمس عشرة سنة وثلاثة أشهر وولى الناس عليهم ابنه داود إلى أن كان ما ذكره.

وكان يزيد رحمة الله من السمحاء، الأمجاد والفضلاء الأنجاد وكلبني المهلب كذلك، وبهم ضرب المثل أبو محمد الحريري في المقامات إذ قال: (وصار الأدب أعلم بي من الهوى ببني عذرة، والشجاعة بالآبي صفرة) وقال الشاعر الحماسي:

نزلت على آل المهلب شاتياً يعنيأ عن الأوطان في الزمن محل

فما زال بي معروفهم وافتقادهم وبرهم حتى حسبتهم أهلي

فاما يزيد هذا من بينهم فحاله في الشجاعة وجودة الرأي كما رأيت وأما الجود والسخاء فهو فيهما المثل السائر. كان ربيع بن ثابت الرقي الشاعر مدح يزيد بن أسيد بالتصغير السلمي - وهو وال على أرمينية - فقصص في حقه؛ ثم مدح يزيد بن حاتم فبالغ في الإحسان إليه فقال ربيعة من قصيدة:

لشتان ما بين اليزيدين في الندى يزيد سليم والأخر بن حاتم

يزيد سليم سالم المال والفتى فتى الأزد للأموال غير مسالم

فهم الفتى الأزدي إتلاف ماله وهم الفتى القيسى جمع الدرام

ولاية روح بن حاتم على المغرب

ولما بلغ الرشيد وفاة يزيد بن حاتم - وكان أخوه روح واليَا على فلسطين وكان أسن من يزيد - استقدمه وعزا في أخيه وولاه على المغرب، فقدم القิروان منتصف سنة إحدى وسبعين ومائة، وكان يزيد قبلة قد أذل الخوارج ومهد البلاد كما قلنا، فكانت أرض المغرب ساكنة أيام روح، ورغم في موادعه عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت فوادعه.

قال ابن خلدون: «وفي أيام روح انخفضت شوكة البربر واستكانوا للغلب وطاعوا للدين، فضرب الإسلام بجرانه وألقت الدولة المضدية على البربر بكلكلها» اهـ. كلام ابن خلدون.

وفي أيام روح أيضاً اجتاز الإمام إدريس بن عبد الله ببلاد مصر وإفريقية ناجياً من وقعة فخ التي كانت بمكة لآل العباس على آل علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، ودخل مدينة وليلي من المغرب الأقصى سنة اثنين وسبعين ومائة كما سيأتي إن شاء الله.

قال ابن خلkan: «كان روح بن حاتم من الكرماء الأجواد ولبي لخمسة من الخلفاء السفاح والمنصور والمهدى والهادى والرشيد. ويقال إنه لم يتفق مثل هذا إلا لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه فإنه ولبي لرسول الله ﷺ وللخلفاء الأربع رضي الله عنهم» قال: «وكان روح واليَا على السندي ولاه عليها المهدى بن المنصور فلما مات أخوه يزيد بالقิروان ودفن بباب سلم قال أهل إفريقية: ما أبعد ما يكون بين قبرى هذين الأخرين! فإن أخاه بالسند وهذا

٢٥٣

(١) هذا مخالف لما تقدم عند المؤلف أول الترجمة من أنه كان واليَا على فلسطين واستقدمه الرشيد منها وأسند له أمر إفريقية في التاريخ المذكور. والرواية =

هنا فاتفق أن الرشيد عزل روحًا عن المسند^(١) وسيره إلى موضع أخيه يزيد فدخل إفريقية أول رجب سنة إحدى وسبعين ومائة ولم يزل والياً بها إلى أن توفي بها لإحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة أربع وسبعين ومائة ودفن مع أخيه يزيد في قبر واحد فعجب الناس من هذا الاتفاق بعد ذلك التباعد رحمة الله».

ثم ولـي المغرب من قبل الرشيد حبيب بن نصر المهلبي ثم عزله سنة سبع وسبعين ومائة.

وولـي على المغرب الفضل بن روح بن حاتم وقتلـه عبد الله بن العجـارـود منتصف سنة ثمان وسبعين ومائة وانقرضـت بـأنـقـارـاـضـه دـوـلـة آلـمـهـلـبـ منـالـمـغـرـبـ.

ثم ولـي الرشـيدـ علىـ المـغـرـبـ هـرـثـمـةـ بـنـ أـعـيـنـ فـبـنـيـ القـصـرـ الـكـبـيرـ بـالـمـنـسـيـرـ^(٢) وـبـنـيـ السـوـرـ عـلـىـ طـرـابـلـسـ مـنـ جـهـةـ الـبـحـرـ، وـلـمـ رـأـيـ هـرـثـمـةـ ماـ بـالـمـغـرـبـ مـنـ كـثـرـ الثـوـارـ وـالـخـلـافـ اـسـتـعـفـيـ الرـشـيدـ مـنـ وـلـايـتـهـ فـأـعـفـاهـ لـسـتـيـنـ وـنـصـفـ مـنـ وـلـايـتـهـ.

ثم ولـي الرشـيدـ عـلـىـ إـفـرـيقـيـةـ مـحـمـدـ بـنـ مـقـاتـلـ الـعـكـيـ - وـكـانـ رـضـيـعـاـ لـهـ - فـاضـطـرـبـتـ عـلـيـهـ إـفـرـيقـيـةـ، وـبـلـغـ الرـشـيدـ ذـلـكـ.

وـطـلـبـ أـهـلـ إـفـرـيقـيـةـ مـنـ إـبـرـاهـيمـ بـنـ الـأـغـلـبـ - وـكـانـ مـنـ عـمـالـ مـعـمـدـ بـنـ مـقـاتـلـ أـنـ يـكـتـبـ إـلـىـ الرـشـيدـ فـيـ الـوـلـاـيـةـ عـلـيـهـمـ، فـكـتـبـ إـلـىـ الرـشـيدـ فـيـ ذـلـكـ عـلـىـ أـنـ يـتـرـكـ الـمـائـةـ أـلـفـ دـيـنـارـ الـتـيـ كـانـتـ تـحـمـلـ مـنـ مـصـرـ إـلـىـ إـفـرـيقـيـةـ إـعـانـةـ

= الأولى لـابـنـ خـلـدونـ وـابـنـ الـأـثـيـرـ، وـالـثـانـيـ لـابـنـ خـلـكـانـ، وـلـلـروـاـيـةـ الـأـولـيـ هيـ الصـحـيـحةـ. وـالـمـقـالـةـ الـتـيـ قـيـلتـ فـيـ بـعـدـ قـبـرـيـهـمـ فـقـدـ قـيـلتـ يـوـمـ وـلـايـتـهـمـاـ إـفـرـيقـيـةـ وـالـمـسـنـدـ زـمـنـ الـمـنـصـورـ.

(١) المنـسـيـرـ بـضـمـ أـوـلـهـ وـفـتحـ ثـانـيـهـ وـسـكـونـ السـيـنـ الـمـهـمـلـةـ وـكـسـرـ التـاءـ بـينـ الـمـهـدـيـةـ وـسـوـسـةـ بـإـفـرـيقـيـةـ وـهـوـ مـوـضـعـ فـيـ خـمـسـةـ قـصـورـ يـحـيـطـ بـهـ سـوـرـ وـاحـدـ وـيـسـكـنـ هـذـهـ الـقـصـورـ قـوـمـ مـنـ أـهـلـ الـعـبـادـةـ وـالـعـلـمـ قـالـهـ يـاقـوـتـ.

للولاية بها، وعلى أن يحمل هو من إفريقية إلى الخليفة أربعين ألفاً؛ وببلغ الرشيد غناوته وكفايته فاستشار فيه أصحابه، فأشار هرشمة بن أعين بولايته، فكتب له بالعهد على إفريقية متتصف أربع وثمانين ومائة، فقام إبراهيم بالأمر وضبط البلاد فسكتت واستراحت من الفتنة وابتلى مدينة العباسية قرب القิروان، وانتقل إليها بجملته وأورث بإفريقية ملكاً لبنيه من بعده.

وفي هذه المدة انقسم المغرب إلى ثلاث ممالك فكان بنو الأغلب بإفريقية والقิروان، وبنو خزر المغراويون بالمغرب الأوسط وتلمسان، وبنو إدريس بالمغرب الأقصى.

و قبل أن نفرد الكلام عليه نذكر فصلاً نشير فيه إلى مذاهب أهل المغرب ونحلهم على الجملة والله الموفق.

القول في مذاهب أهل المغرب أصولاً وفروعًا وما يتبع ذلك

قد تقدم لنا ما قاله الشيخ ابن أبي زيد رحمه الله من أن البربر ارتدوا الثني عشرة مرة، وأنه لم تستقر كلمة الإسلام فيهم إلا لعهد موسى بن نصیر وبعد فتحه الأندلس، ثم كمل إسلامهم على يد إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر؛ وتقدم أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أرسل عشرة من التابعين يفقهون أهل المغرب في دينهم؛ فكان المغاربة في صدر الإسلام لذلك على مذهب جمهور السلف من الأمة واعتقادهم - وهو المذهب الحق - إلى أن حدثت فيهم بدعة الخارجيين لأول المائة الثانية من الهجرة. نزع إليهم بها بعض أهل النفاق من خوارج العراق وبثوها فيهم فتلقوها منهم بالقبول وحسن موقعها لديهم بسبب ما كانوا يعانونه من ثقل وطأة الخلافة القيristية وجور بعض عمالها حسبما تقدمت الإشارة إليه فلقنهم أهل البدع أن الخلافة لا تشترط فيها القيristية بل ولا العربية وأن كل من كان أتقى الله كان أحق بها ولو عبداً حشياً على ظاهر الحديث. ودسوا إليهم مع ذلك بعض

تشدیدات الخوارج وتعمقاتهم وأروهم ما هم عليه من التصلب في دینهم فظہر للبربر ببادی الرأی أن تعمقهم ذلك إنما هو أثر من آثار الخشیة الله والخوف منه وأن ذلك هو عین التقوی المأمور بها شرعاً: وغاب عنهم أن الدين يسر كما قال ﷺ وأن ملة الإسلام عرفت من بين الملل بالحنفیة السمحۃ لذلك والله تعالى يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] ومن أمعن نظره في نصوص الشريعة من الكتاب والسنۃ علم يقیناً أن طریق النجاة إنما هي سلوك الوسط وإن کلاً من التعمق والانحلال ضلال إلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَنْتَهِيُوا إِلَيْهِ الْبُشْرُوا فَنَرَقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] الآية وقد قرر جمع من الأئمة المفتدى بهم - كالغزالی في الإحياء وغيره - أن المحمدود في أمور الديانات كلها إنما هو سلوك الوسط بين الإفراط والتفریط وبه يتم مراد الله من خلقه وكلا طرفي قصد الأمور ذمیم وهذا مبحث طویل نفیس وقد رمنا إليه بهذه البذلة اليسيرة وال توفیق بید الله.

وقد رسخت هذه البدعة الخارجية في البربر زماناً طويلاً إلى أن اضمحلت في أواخر المائة الثانية وما بعدها ومع ذلك فقد بقيت منها آثار في أعقابهم من أصحاب الأطراف كما ذكره ابن خلدون والنادق بصیر.

ولما ظهر الخلفاء من بنی العباس المغرب من هذه التزعة الشیطانية أخذ أهلها بعدها بمذاهب أهل العراق في الأصول والفروع لأن ذلك المذهب يومئذ هو مذهب الخلفاء بالشرق والناس على قدم إمامهم.

قال عياض في المدارک: ظهر مذهب أبي حنیفة بآفریقیة ظهوراً كبيراً إلى قرب أربعمائة سنة فانقطع منها، ودخل منه شيء إلى ما وراءها من المغرب قدیماً بمدينة فاس وبالأندلس وكذا ظهر بالأندلس أيضاً مذهب عبد الرحمن الأوزاعی من أهل الشام.

واختلف الناس في السبب الذي انتقل به أهل المغرب عن مذهب أبي حنیفة وغيره إلى مذهب الإمام مالک بن أنس - الذي هو مذهب السلف من

أهل الحجاز - فقال ابن خلكان في ترجمة المعز بن باديس الصنهاجي المتوفى في أواسط المائة الخامسة ما نصه: «كان مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه بإفريقية أظهر المذاهب فحمل المعز المذكور جميع أهل المغرب على التمسك بمذهب الإمام مالك رضي الله عنه وجسم مادة الخلاف في المذاهب واستمر الحال من ذلك الوقت إلى الآن» اهـ.

قلت: كان المعز هذا وأسلافه من صنهاجة بإفريقية على مذهب الراضية من الشيعة أخذوه عن خلفائهم العبيديين أيام استيلائهم على المغرب في صدر المائة الرابعة وحملوا الناس عليه وامتحنوه وطارت بدعتهم في أقطار المغرب كله، فلما أفضى الأمر إلى المعز بن باديس المذكور قطع دعوة الشيعة من إفريقية. ودعا لبني العباس وحمل الناس على التمسك بمذهب مالك عالم المدينة وإمام دار الهجرة.

هذا والمعروف أن مذهب مالك ظهر أولاً بالأندلس ثم انتقل منها إلى المغرب الأقصى أيام الأدارسة، وكذا ظهر بإفريقية ظهوراً بينما قبل وجود المغرب بكثير بل قبل استيلاء صنهاجة والعبيديين على المغرب وذلك على يد أسد بن الفرات وعبد السلام بن سعيد التنوخي المعروف بسحنتون وغيرهما من أئمة المغاربة. ثم لما ظهرت دولة الشيعة بإفريقية حاولوا محوه فلم يتيسر لهم ذلك. وكان فقهاء المالكية في ذلك العصر معهم في مخنة عظيمة منهم ابن أبي زيد والقابسي وأبو عمران الفاسي وطبقتهم، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن نصره المعز المذكور جزاء الله خيراً. قالوا وكان ظهوره بالأندلس على يد الفقيه زياد بن عبد الرحمن المعروف بشيطون فهو أول من أدخله الأندلس، وكانوا قبل ذلك يتفقهون على مذهب الأوزاعي - إمام أهل الشام - لمكان الدولة الأموية منه، فلما ظهر مالك رضي الله عنه بالمدينة وعظم صيته وانتشرت فتاويه بأقطار الأرض رحل إليه جماعة من أهل الأندلس والمغرب كان من أمثلهم وأسبيقهم شيطون المذكور وقرعوس بن العباس وعيسي بن دينار وسعيد بن أبي هند وغيرهم أيام هشام بن

عبد الرحمن الداخل. فلما رجعوا وصفوا من فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره ما عظم به ذكره بالأندلس فانتشر يومئذ علمه ورأيه بها.

وكان رائد الجماعة في ذلك هو شبيطون كما قلنا وهو أول من دخل كتاب الموطأ المغرب، أتى به مكملاً متقدماً فأخذته عنه يحيى بن يحيى الليبي ثم دخل بعد ذلك إلى مالك فقرأه عليه وعاد إلى الأندلس فتم ما كان قد بقي من شهرة المذهب المالكي.

قال ابن حزم: «مذهبان انتشرتا في بدء أمرهما بالرئاسة والسلطان: مذهب أبي حنيفة فإنه لما ولى الرشيد أبا يوسف خطة القضاة كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق إلى أقصى عمل إفريقية ومذهب مالك عندنا بالأندلس فلان يحيى بن يحيى كان مكتيناً عند السلطان مقبول القول في القضاة وكان لا يليق في أقطار الأندلس إلا بمشورته واختيارة ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا فأقبلوا على ما يرجون به بلوغ أغراضهم، على أن يحيى لم يل قضاء قط ولا أجاب إليه وكان ذلك زائداً في جلالته عندهم وداعياً إلى قبول رأيه لديهم» اهـ.

ورأيت في بعض التأليف^(١) في سبب ظهور مذهب مالك بالأندلس والمغرب أن حاج المغرب والأندلس قدموا على مالك رضي الله عنه بالمدينة فسألهم عن سيرة عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل فقيل له إنه يأكل الشعير ويلبس الصوف ويجهاد في سبيل الله فقال مالك: لست الله زين حرمنا به مثله. فنقم عليه بنو العباس هذه المقالة وكان ذلك سبب توصلهم إلى ضربه في مسألة الإكراه كما هو مشهور، وبلغت مقالته صاحب الأندلس فسر بها وجمع الناس على مذهبه فانتشر في أقطار المغرب من يومئذ والله أعلم.

ومما يناسب هنا ما نقله المؤرخون أن أبا عبد الله محمد بن خيرون - الأندلسي الأصل القرطاجي الدار رحل إلى المشرق في صدر المائة الرابعة

(١) المقصود بها الديباج المذهب لابن فرحون وشرح ابن نباتة لرسالة ابن زيدون.

فأخذ عن علمائه وقرائه وعاد إلى إفريقيبة بقراءة نافع بن أبي نعيم - وكان الغالب عليهم القراءة بحرف حمزة - فشاع حرف نافع من يومئذ في أقطار المغرب بعد أن كان لا يقرأ به إلا الخواص واستمر الحال على ذلك إلى اليوم . فهذا حال أهل المغرب في الفروع .

وأما حالهم في الأصول والاعتقادات فيبعد أن طهرهم الله تعالى من نزعة الخارجية أولاً والرافضة ثانياً أقاموا على مذهب أهل السنة والجماعة مقلدين للجمهور من السلف رضي الله عنهم في الإيمان بالمتشابه وعدم التعرض له بالتأويل مع التزية عن الظاهر - وهو والله أحسن المذاهب^(١) وأسلمها والله در القائل :

عقيدتنا أن ليس مثل صفاته	ولا ذاته شيء ، عقيدة صائب
سلم آيات الصفات بأسرها	وأخبارها للظاهر المتقارب
ونؤیس عنها كنه فهم عقولنا	وتأنويتنا ، فعل الليب المراقب
ونركب للتسلیم سفننا ، فإنها	لتسلیم دین المرء خير المراكب

واستمر الحال على ذلك مدة إلى أن ظهر محمد بن تومرت مهدي الموحدين في صدر المائة السادسة ، فرحل إلى المشرق وأخذ عن علمائه مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري ومتاخري أصحابه من الجزم بعقيدة السلف مع تأويل المتشابه من الكتاب والسنة وتخرجه على ما عرف في كلام العرب من فنون مجازاتها وضرور بلاغاتها مما يوافق عليه النقل والشرع ، ويسلمه العقل والطبع . ثم عاد محمد بن تومرت إلى المغرب ودعا الناس إلى سلوك هذه الطريقة ، وجزم بتضليل من خالفها بل بتكفيه وسمى أتباعه الموحدين ، - تعرضاً بأن من خالف طريقته ليس بموحد ، - وجعل ذلك ذريعة إلى الانتزاء على ملك المغرب حسبما تقف عليه مفصلاً بعد إن شاء

(١) قد انتصر المؤلف وحمه الله لهذا المذهب في تأليفه المسمى : « تعظيم المنة بنصرة السنة » بما لا مزيد عليه .

الله، لكنه ما أتى بطريقة الأشعري خالصة بل مزجها بشيء من الخارجية والشيعية حسبما يعلم ذلك بإمعان النظر في أقواله وأحواله وأحوال خلفائه من بعده، ومن ذلك الوقت أقبل علماء المغرب على تعاطي مذهب الأشعري وتقريره وتحريره درساً وتاليفاً إلى الآن، وإن كان قد ظهر بالمغرب قبل ابن تومرت ظهوراً ما. والله أعلم.

وقد كان عبد المؤمن بن علي وبنوه من بعده منعوا الناس من التقليد في الفروع وحملوا الأئمة علىأخذ الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة مباشرة على طريقة الاجتهاد المطلق، وحرقوا شيئاً كثيراً من كتب الفروع الحديثة التصنيف، ووقع ذلك من بعض علماء عصرهم موقع الاستحسان، منهم الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي فقد ذكر في كتاب القواسم والعواصم له ما يشعر بذلك، قال بعد ذكره ما وقع بالمغرب من الفتن ما نصه: «عطفنا عنان القول إلى مصائب نزلت بالعلماء في طريق الفتوى لما كثرت البدع وذهب العلماء، وتعاطت المبتدعة منصب الفقهاء وتعلقت أطماع الجهال به فنانوه بفساد الزمان، ونفوذ وعد الصادق عليه السلام في قوله: «اتخذ الناس رفوساً جهلاً، فسئلوا فأفتووا، بغير علم، فضلوا وأضلوا» وبقيت الحال هكذا فماتت العلوم إلا عند آحاد الناس، واستمرت القرون على موت العلم وظهور الجهل وذلك بقدرة الله تعالى، وجعل الخلف منهم يتبع السلف حتى آلت الحال إلى أن لا ينظر في قول مالك وكبراء أصحابه. ويقال قد قال في هذه المسألة أهل قرطبة وأهل طلمنكة وأهل طليطلة وصار الصبي إذا عقل وسلكوا به أمثل طريقة لهم علموه كتاب الله تعالى ثم نقلوه إلى الأدب ثم إلى الموطأ ثم إلى المدونة ثم إلى وثائق ابن العطار، ثم يختتمون له بأحكام ابن سهل، ثم يقال: قال فلان الطليطي وفلان المجريطي وابن مغيث لا أغاث⁽¹⁾ الله ثراه فيرجع

(1) علق المؤلف رحمة الله في بعض أصوله التاريخية على هذه العبارة في حق ابن مغيث ما نصه: «انظر في الكلام على السماع من جامع المعيار ما أتني به عياض على ابن مغيث رحمة الله الجميع».

القهقرى، ولا يزال يمشي إلى وراء ولو لا أن الله تعالى من بطاقة تفرق في ديار العلم وجاءت بباب منه كالقاضى أبي الوليد البارى وأبي محمد الأصيلى فرשו من ماء العلم على هذه القلوب الميتة وعطرها أنفاس الأمة الذرة، لكان الدين قد ذهب ولكن تدارك البارى تعالى بقدرته ضرر هؤلاء ينفع هؤلاء وربما سكنت الحال قليلاً والحمد لله. اهـ والله تعالى ولي التوفيق.

تتمة مهمة (*)

قد ظهر ببلاد المغرب وغيرها من أعصار متزاولة - لا سيما في المائة العاشرة وما بعدها - بدعة قبيحة وهي اجتماع طائفة من العامة على شيخ من الشيوخ الذين عاصروهم أو تقدموهم من يشار إليه بالولاية والخصوصية، ويخصونه بمزيد المحبة والتعظيم، ويتمسكون بخدمته والتقرب إليه قدرًا زائدًا على غيره من الشيوخ بحيث يرتسם في خيال جلهم أن كل المشايخ أو جلهم دونه في المنزلة عند الله تعالى ويقولون نحن أتباع سيدى فلان وخدام الدار

(*) قد تصدى المؤلف رحمة الله لهذه البدعة وغيرها من البدع المحدثات في الدين، وشرحها وبين مخالفتها لما جاء عن الله ورسوله بالحجج القاطعة والأدلة الواضحة الساطعة في تأليف كبير له خصصه لهذاقصد وسماه: «تعظيم المنة بنصرة السنة» ما زال لم يطبع، رتبه على أبواب الفقه من توحيد وطهارة وصلاة وزكاة وحج وتصوف وغير ذلك واستفرغ جهده في تفنيد سائر البدع والذب عن حوزة الشرع والدين بما لا مزيد عليه، وانتقد سائر ما ظهر من المنكرات والبدع في الأقطار الإسلامية على الجملة وفي المغرب بالخصوص في سائر الأعصار والأمسكار وجاء تاليها عجيبة في بابه ودستوراً جامعاً في فنه، جزءه الله عن نصرة الإسلام والدين خيراً، وأما ما كتبه في هذه التتمة فإنما هو قل من جل ونقطة من بحر لا سيما فيما يرجع لحدوث الطوائف وأرباب الزوايا بالمغرب فقد تكفل باستقصاء ذلك وفضحه.

الفلانية، لا يحولون عن ذلك ولا يزولون خلفاً عن سلف، وينادون باسمه ويستغثون به ويفرعون في مهماتهم إليه، معتقدين أن التقرب إليه نافع والانحراف عنه قيد شبر ضار، مع أن النافع والضار هو الله وحده، وإذا ذكر لهم شيخ آخر أو دعوا إليه حاصوا حيصة حمر الوحش من غير تبصر في أحواله هل يستحق ذلك التعظيم أم لا، فضار الأمر عصيّاً وصارت الأمة بذلك طرائق قدداً، ففي كل بلد أو قرية عدة طوائف وهذا لم يكن معروفاً في سلف الأمة الذين هم القدوة لمن بعدهم، وغرض الشارع إنما هو في الاجتماع وتمام الألفة واتحاد الوجهة، وقد قال تعالى لأهل الكتاب : ﴿تَسْأَلُوا إِنَّ رَبَّكُمْ سَلَّمَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤] الآية وقد ذم قوماً فرقوا دينهم وكانوا شيئاً، وإنما الشأن في أهل الخصوصية والدين أن يكونوا عند العاقل المحافظ على دينه كأسنان المشط بحيث يحبهم الله وفي الله ويستشفع بهم إلى الله، ويسأله تعالى أن يكرمه بما أكرمه به من الخير والهدى والدين، وليرحهم حب التشريع لا حب التشيع، وليرتأدب معهم ولا يقدم على مفاضلتهم بالهوى والرجم بالغيب فإن ذلك متوقف على الاطلاع على متردتهم عند الله، وذلك محجوب عننا، وإذا نزلت به حاجة فليعن في قضائتها إلى مولاهم الذي خلقه ورزقه، مستشفعاً إليه بنبيه الذي هدأ للإيمان على يده، ثم بخواص الأمة الذين هم آياًنا في الدين، فإن المطلوب من العبد أن يصرف وجهته وقصده في جميع أموره، ويتعلق فيها بالله بحيث لا يطلبها إلا منه، ولا يتكل فيها إلا عليه قاطعاً للنظر عن كل ما سواه اللهم إلا على سبيل التوسل والاستشفاع كما قلنا، هذا هو التوحيد الذي بعث الله به محمداً ﷺ، وإليه دعا، وعليه قاتل، وسواء شرك ومتباذلاً لما جاء به : ﴿إِنَّ هَذَا لَهُ الْعَصْمَانُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٦٢] الآية .

ثم استرسل هؤلاء الطغام في ضلالهم حتى صارت كل طائفة تجتمع في أوقات معلومة من مكان مخصوص - أو غيره - على بدعتهم التي يسمونها الحضرة! فما شئت من طست وطاراً وطبل ومزمار وغناء ورقص وخرط

وفحص! وربما أضافوا إلى ذلك ناراً أو غيرها يستعملونه على سبيل الكرامة بزعمهم! ويستغرقون في ذلك الزمن الطويل حتى يمضي الوقت والوقتان من أوقات الصلوات! وداعي الفلاح ينادي على رؤوسهم - وهم في حيرتهم يعمهون - لا يرثون به رأساً! ولا يرون بما هم فيه من الضلال بأساً! بل يعتقدون أن ما هم فيه من أفضل القرب إلى الله تعالى الله عن جهالتهم علوًّا كبيراً.

ولا تجد في هذه المجاميع الشيطانية غالباً إلا من بلغ الغاية في الجفاء والجهل، ممن لا يحسن الفاتحة فضلاً عن غيرها، مع ترك الصلاة طول عمره أو من في معناه من معتهو ناقص العقل والدين، فما أحوج هؤلاء الفسقة إلى محاسب يغير عليهم ما هم فيه من المنكر العظيم واللبس المقيم، وأعظم من هذا كله أنهم يفعلون تلك الحضرة غالباً في المساجد، فإنهم يتذمرون الزاوية باسم الشيخ و يجعلونها مسجداً للصلوة بالمحراب والمنار وغير ذلك، ثم يعمرونه بهذه البدعة الشنيعة، فكم رأينا من عود ورباب ومزار على أفحش الهيات في محاريب الصلوات! .

ومن بدعهم الشنيعة محاكاتهم أضرحة الشيوخ لبيت الله الحرام من جعل الكسوة لها وتحديد الحرم على مسافة معلومة بحيث يكون من دخل تلك البقعة من أهل الجرائم آمناً وسوق الذبائح إليها على هيئة الهدي! واتخاذ الموسم كل عام! وهذا وأمثاله لم يشرع إلا في حق الكعبة، ثم يقع في ذلك الموسم - ولا سيما مواسم البداية - من المنكر والمجاوز العظام واحتلال الرجال بالنساء بadiات متبرجات - شأن أهل الإباحة وشأن قوم نوح في جاهليتهم - ما تصمم عنه الآذان ولا منكر ولا مغير ولا متعوض للدين! لا بل للحسب! فأما الدين عند هؤلاء فلا دين! فإنما الله وإنما إليه راجعون على ضيعة الدين وغفلة أهله عنه، وبالله وبإله المسلمين لهؤلاء الهمج الرعاع! الذين سلبو المروءة والحياء والغيرة والعقل والدين والإنسانية جملة! فليسوا في فطنة الشياطين! ولا في سلامه صدور البهائم! ولا في نخوة السباع فيغضبوا لديهم ومروعتهم! .

ومن جهالاتهم الفظيعة جمعهم بين اسم الله تعالى واسم الولي في مقامات التعظيم - كالقسم والاستعطاف وغيرهما - فإذا أقسموا قالوا: «وحق الله وحق سيدى فلان»! وإذا عزما على أحد قالوا: «دخلت عليك بالله وسيدي فلان»! وإذا سألا قالوا: «من يعطيانا على الله وعلى سيدي فلان»! فيعطون اسم العبد على اسم مولاه بالواو المقتضية للتشريك والتسوية التامة! في مقام قد حظر الشارع أن يتجاوز فيه اسم الله إلى غيره! وهذا هو صريح الشرك.

ومن مناكرهم الجديرة بالتغيير: اجتماعهم كل سنة للوقوف يوم عرفة بضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه! ويسمون ذلك حج المسكين! فانظر إلى هذه الطامة التي اخترعها هؤلاء العامة.

ومن اختراعاتهم: تسميتهم لبدعتهم بالحضررة - كما قلنا - أخذوا من اسم حضرة الله تعالى في إصلاح الأئمة العارفين من الصوفية! كأهل رسالة القشيري ومن في معناهم فأولئك الشياطين بهذه التسمية أنهم يكونون في حال اشتغالهم بتلك البدعة في حضرة الله تعالى؛ ثم يذهبون فيسمون جنونهم وتخطبهم على تلك الطبول والمزامير بالحال! أخذوا من الحال التي تعتري السالك إلى الله تعالى في حال ترقيه في درجات المعرفة والوصول، وهذا لعمر الله من أقبح الضلالات وأشنع الجهالات. إلى غير هذا مما أغني فيه العيان عن الخبر، وعرفه الخاص والعام في حالي الورد والصدر.

ولستنا ننكر على أولياء الله وأهل الخصوصية منهم أو على من يسلك سبيلهم على الوجه المقرر في كتب الأئمة المقتدى بهم منهم، وإنما نشرح حال هؤلاء الجهلة الذين لم يأتوا الأمر من بابه، ولا أخذوه عن أربابه، وإنما حالهم ما رأيت وعلمت، وهذه نفحة مصدر، صاحبها عند المنصف معدور، فنسأل الله العظيم، المولى الكريم، أن يحرك همة من له القدرة والتصرف إلى حسم هذه الضلالات وقطعها، عسى أن يرحمنا ربنا ويجبر كسرنا ويكتب

عدونا إذا نحن راجعنا ديننا وسنة نبينا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ بِنَحْنِ دُولَةٌ مِّنْ وَاللَّهِ [الرعد: ١١].

وقد آن نفرد الكلام على المغرب الأقصى عند ما استولى عليه المولى إدريس بن عبد الله وبنوه من بعده، واقتطعوه عن نظر الخلفاء بالشرق، وصيروه مملكة مستقلة، إذ كان ذلك من شرط كتابنا هذا، حسبما تقدمت الإشارة إليه، مقدمين لذلك ما يجب تقديمها من الإشارة إلى أمر الخلافة وتنازع أهل الصدر الأول في استحقاقها ومن هو أولى بها، ثم تتخلص منه إلى المقصود بالذات والله الموفق.

الدولة الإدريسية

الخبر عن دولة آل إدريس بالمغرب الأقصى وذكر السبب في أوليتها

اعلم أنه قد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن هذا الأمر في قريش لا يعاد لهم أحد إلا كبه الله على وجهه، ما أقاموا الدين» وفيه أيضاً أنه ﷺ قال: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان».

قال الحافظ ابن حجر: «لو فقد قرشي فكتاني ثم رجل من بني إسماعيل ثم عجمي على ما في التهذيب أو جرمي على ما في التسعة ثم رجل من بني إسحاق. وأن يكون شجاعاً ليغزو بنفسه ويعالج الجيوش ويقوى على فتح البلاد ويحمي البيضة وأن يكون أهلاً للقضاء بأن يكون مسلماً مكلفاً حزاً عدلاً ذكراً مجتهداً ذا رأي وسمع وبصر ونطق».

وتعتقد الإمامة ببيعة أهل الحل والعقد من العلماء ووجوه الناس المتيسر اجتماعهم، وباستخلاف الإمام من يعينه في حياته ويشرط القبول في حياته ليكون خليفة بعد موته، وباستيلاء متغلب على الإمامة ولو غير أهل لها كصبي وامرأة إن قهر الناس بشوكته وجنته وذلك لينظم أمر المسلمين» اهـ.

ثم نقول قد تقدم لنا أمر الخلفاء الأربعه رضي الله عنهم بعد النبي ﷺ وأن السلف أطبقوا على أن ترتيبهم في الفضل على حسب ترتيبهم في الخلافة، وتقدم لنا أيضاً ما كان من علي ومعاوية رضي الله عنهم وأن ما صدر منها كان اجتهاداً محضاً وطلبًا للحق، وأن الصواب كان مع علي رضي الله عنه والكل مأجور.

ثم لما قتل علي رضي الله عنه بايع أهل العراق ابنه الحسن رضي الله عنه وزحف إليه معاوية في أهل الشام، ورأى الحسن ما في حقن دماء المسلمين وجمع كلمتهم من الثواب عند الله والكرامة لديه، فاختار الأخرى على الدنيا

وقدم الأجل على العاجل، وسلم الأمر إلى معاوية على شروط معروفة، وأصلح الله به بين فترين عظيمتين من المسلمين كما قال جده عليه السلام. وحاز معاوية الخلافة وصفت له توارثها بنو أمية من بعده بعد مقاتلاته ومنازعات كانت من بني هاشم وغيرهم لهم يطول جلتها.

وكان السواد الأعظم من المسلمين يرون أن بني هاشم أحق بالأمر من بني أمية لأن بني هاشم هم آل بيت النبي عليه السلام وعشيرته الأقربون، وهم أهل العلم والدين والخصوصية الذين اجتباهم الله وأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، فهم أحق بمنصب رسول الله عليه السلام من غيرهم؛ وهذا الرأي صواب، غير أن ذلك ليس بطريق الوجوب عند أهل السنة بل بطريق الأحقية والأولوية إذا توفرت الشروط فيهم وفي غيرهم من سائر بطون قريش، وإنما فمن انفرد به الشروط وجب المصير إليه.

وكان شيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوجبون الخلافة لبنيه دون من عداهم ويزعمون أن ذلك كان بوصية من النبي عليه السلام لعلي رضي الله عنه، وهذه الوصية لم تثبت عند أهل السنة من طريق صحيح، ومذاهب هؤلاء الشيعة في كيفية سوق الخلافة في عقب علي رضي الله عنه متعددة لا حاجة لنا بذكرها.

وكان بنو علي رضي الله عنه في الصدر الأول كثيراً ما يثورون في النواحي شرقاً وغرباً طالبين حقهم في الخلافة، منازعين فيها لبني أمية أولاً ثم لبني العباس من بعدهم ثانياً وخبرهم في ذلك معروف، وجبله يطول إلى أن كان منهم عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه - وكان من سادة أهل البيت يومئذ - وكان له عدة أولاد، منهم محمد المعروف بالنفس الزكية وإبراهيم ويعيسى وسلامان وإدريس وغيرهم.

ولما صار أمر بني أمية إلى الاختلال أيام مروان الحمار آخر خلفائهم اجتمع أهل البيت بالمدينة وتشاوروا فيما يقدموه للخلافة، فوقع اختيارهم

على محمد بن عبد الله النفس الزكية، فباعوا له بالخلافة وسلموا له الأمر بأجمعهم، وحضر هذا العقد أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وهو المنصور، وذلك قبل أن تنتقل الخلافة إلىبني العباس، فبائع للنفس الزكية فيمن بايع له من أهل البيت وأجمعوا على ذلك لتقديمه فيهم لما علموا له من الفضل عليهم.

قال ابن خلدون: «ولهذا كان مالك وأبو حنيفة رحمهما الله يحتجان له حين خرج بالحجاج، ويريان أن إمامته أصبح من إماماً أبي جعفر المنصور لانعقاد هذه البيعة أولاً، وكان أبو حنيفة يقول بفضله ويحتاج لحقه، فتأندت إلى الإمامين المحتلة بسبب ذلك أيام أبي جعفر المنصور، حتى ضرب مالك رضي الله عنه على الفتيا في طلاق المكره، وحبس أبو حنيفة رضي الله عنه على القضاء».

ولما انقرضت دولة بني أمية وجاءت دولة بني العباس وصار الأمر إلى أبي جعفر المنصور منهم سعي عنده بالبيت، وأن محمد بن عبد الله يروم الخروج عليه، وأن دعاته قد ظهروا بخراسان فأمر المنصور عامله على المدينة رياح بن عثمان المري بحبس عبد الله بن حسن ومن إليه من آل الحسن بن علي بن أبي طالب، فحبسه جماعة من بنيه وإخوته وبني عممه، قال ابن خلدون: في خمسة وأربعين من أكابرهم، وقدم المنصور المدينة في خجة حجها فساقهم معه إلى العراق، وحبسهم بقصر ابن هبيرة من ظاهر الكوفة حتى هلكوا في حبسهم، وجد المنصور في طلب محمد بن عبد الله النفس الزكية وأخيه إبراهيم لكونهما تغيا فلم يحبسا في جملة من حبس من عشيرتهم.

ثم لما كانت سنة خمس وأربعين ومائة وأررق محمد بن عبد الله الطلب، وأعيت عليه المذاهب ظهر بالمدينة المنورة، ودعا الناس إلى بيته فباعوه. واستفتى أهل المدينة الإمام مالكاً رضي الله عنه في الخروج مع محمد بن عبد الله وقالوا في أعناقنا بيعة للمنصور، فقال إنما بايعتم

مكرهين، فتسارع الناس إلى محمد وأجابوا دعوته، ولزم الإمام ملك بيته وخطب محمد بن عبد الله على منبر رسول الله ﷺ وذكر المنصور بما نقه عليه، ووعد الناس واستنصر بهم، وتسمى بالمهدى، ولم يختلف عن بيعته من وجوه الناس إلا القليل.

وبلغ المنصور خبر محمد بن عبد الله وما كان منه بالمدينة، فأشفق من ذلك غاية الإشراق، وكتب إلى محمد كتاب أمان ويعده الجميل إن هو راجع الطاعة، فأجابه محمد بعد قبول ذلك منه، ودارت بينهما مكاتبات ومحاورات في الأقضية واستحقاق الخلافة، وقد ذكر مكاتبهما المبردة في كامله، وابن خلدون في تاريخه.

وآخر الأمر أن المنصور بعث لحرب محمد المهدى ابن عمه عيسى بن موسى العباسى. فاستعد المهدى للقتال وأدار على المدينة الخندق الذى حفره رسول الله ﷺ يوم الأحزاب، وقدمت جيوش العباسيين ونزلوا على المدينة.

وخرج إليهم محمد بن عبد الله فيمن بايده واقتتل الناس قتلاً شديداً، وأبلى محمد المهدى في ذلك اليوم بلاء عظيماً. وقتل بيده سبعين رجلاً.

ولما اشتد القتال وعاين مخايل الاختلال انصرف فاغتنى وتحنط وجمع بين الظهر والعصر ومضى فأحرق الديوان الذى كان فيه أسماء من بايده وجاء إلى السجن فقتل رياح بن عثمان عامل المنصور على المدينة، وقتل معه جماعة كانوا مسجونين عنده ثم عاد إلى المعركة وقد تفرق عنه جل أصحابه ولم يبق معه إلا نحو ثلاثةمائة فقال له بعضهم: نحن اليوم في عدة أهل بدر ثم تقدم فقاتل حتى قتل: ضرب فسقط لركبته وطعنه حميد بن قحطبة في صدره ثم احتز رأسه وأتى به عيسى بن موسى فبعث به إلى المنصور.

وكان مقتل محمد المهدى رحمة الله في منتصف رمضان سنة خمس وأربعين ومائة، وقتل معه جماعة من أهل بيته وأصحابه ولحق ابنه علي بن

محمد بالسند إلى أن هلك هناك، واختفى ابنه الآخر عبد الله الأشتر إلى أن هلك أيضاً في خبر طويل.

ثم خرج إبراهيم بن عبد الله أخو المهدي المذكور بالبصرة عقب ذلك فبعث إليه المنصور عيسى بن موسى المذكور آنفًا فقاتلته آخر ذي القعدة من السنة فانهزم إبراهيم وقتل رحمه الله بعد أن بايعه أكثر من مائة ألف.

ثم لما كانت سنة تسع وستين ومائة في أيام موسى الهادي بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، خرج بالمدينة الحسين بالتصغير بن علي بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان معه جماعة من أهل بيته منهم إدريس ويحيى وسلمان بنو عبد الله بن الحسن المثنى - وهم إخوة محمد النفس الزكية - فاشتد أمر الحسين المذكور بالمدينة وجرى بينه وبين عامل الهادي على المدينة - وهو عمر بن عبد العزيز بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب - قتال، فانهزم عمر المذكور، وبايع الناس الحسين المذكور على كتاب الله وسنة نبيه للمرتضى من آل محمد - وكانوا يكتون بذلك عن الإمام المستور إلى أن يقدر على إظهار أمره - وأقام الحسين وأصحابه بالمدينة يتجهزون أيامًا ثم خرجوها إلى مكة يوم السبت لست بقين من ذي القعدة فانتهى الحسين إلى مكة، وانضم إليه جماعة من عبيدها.

وكان قد حج تلك السنة جماعة من وجوهبني العباس وشيعتهم، فمنهم سليمان بن أبي جعفر المنصور ومحمد بن سليمان بن علي والعباس بن محمد بن علي وانضم إليهم من حج من قوادهم ومواليهم واقتتلوا مع الحسين المذكور يوم التروية - الثامن من ذي الحجة - فانهزم الحسين وأصحابه وقتل فاحتزوا رأسه وأحضروه أمامبني العباس وهو مضروب على قفاه وجبهته، ثم جمعت رؤوس أصحابه فكانت مائة ونيفاً وكان فيها رأس سليمان بن عبد الله بن الحسن المثنى في قول واختلط المنهزمون بالحجاج فذهبوا في كل وجه.

وكان مقتلهم بموضع يقال له فخ على ثلاثة أميال من مكة سنة تسع
وستين ومائة كما قلنا. وفي ذلك يقول بعض شعراء ذلك العصر:

فلا يكفين على الحسب من بعولة، وعلى الحسن
وعلى ابن عاتكة الذي واروه ليس له كفن
تركوا بفخ غدوة في غير منزلة الوطن

في أبيات.. والحسن الذي ذكره في هذه الأبيات هو الحسن بن محمد بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، وكان أسر في ذلك اليوم فضررت عنقه صبراً، وابن عاتكة الذي ذكره هو عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب. ثم حمل رأس الحسين ومعه باقي الرؤوس إلى الهايدي فأنكر عليهم حمل رأس الحسين ولم يعطهم جوائزهم غضباً عليهم.

دخول إدريس بن عبد الله أرض المغرب الأقصى

قد تقدم لنا أن يحيى وإدريس ابني عبد الله حضرا وقعة فخ مع الحسين بن علي المذكور آنفاً. فاما يحيى فإنه فر من الواقعة المذكورة إلى بلاد الديلم في جهة الشرق ودعا الناس إلى بيعته فباعوه واشتدت شوكته. ثم إن الرشيد جهز إليه الفضل بن يحيى البرمكي في جيش كثيف فكانته الفضل وبذل له الأمان وما يختاره، فأجابه يحيى بن عبد الله إلى ذلك وطلب يمين الرشيد وأن يكون بخطه ويشهد فيه الأكابر. فعل ذلك، وحضر يحيى بن عبد الله إلى بغداد فأكرمه الرشيد وأعطاه مالاً كثيراً ثم حبسه حتى مات في السجن.

وأما إدريس فإنه فر من الواقعة المذكورة ولحق بمصر، وعلى بريدتها يومئذ واضح مولى صالح بن المنصور - ويعرف بالمسكين - وكان واضح يتشبع لآل البيت، فعلم شأن إدريس وأتاه إلى الموضع الذي كان مستخفياً

به، ولم ير شيئاً أخلص له من أن يحمله على البريد إلى المغرب ففعل، ولحق إدريس بالمغرب الأقصى هو ومولاه راشد. فنزل بمدينة وليلي سنة ثنتين وسبعين ومائة، وبها يومئذ إسحاق بن محمد بن عبد الحميد أمير أوربة من البربر البرانس فأجراه وأكرمه وجمع البربر على القيام بدعوه، وخلع الطاعة العباسية وكشف القناع في ذلك وانتهى الخبر إلى الرشيد بما فعله واضح في شأن إدريس فقتله وصلبه.

وقال ابن أبي زرع في كتاب القرطاس: إن إدريس بن عبد الله لما قتلت عشيرته بفتح فر نفسه مستتراً في البلاد يريد المغرب فسار من مكة حتى وصل إلى مصر ومعه مولى له اسمه راشد، فدخلها والعامل عليها يومئذ لبني العباس هو علي بن سليمان الهاشمي فيما إدريس وراشد يمشيان في شوارع مصر إذ مرا بدار حسنة البناء فوقفا يتأملانها، وإذا بصاحب الدار قد خرج فسلم عليهما وقال: «ما الذي تنظرانه من هذه الدار» فقال راشد: «أعجبنا حسن بنائهما» قال: «وأظنكمما غريبين ليسا من هذه البلاد» فقال راشد: «جعلت فداك إن الأمر كما ذكرت» قال: «فمن أي الأقاليم أنتما» قالا: «من الحجاز» قال: «فمن أي بلاده» قالا: «من مكة» قال: «وأحالكمما من شيعة الحسينيين الفارين من وقعة فتح» فهما بالإنكار ثم توسموا فيه الخير فقال راشد: «يا سيدي أرى لك صورة حسنة وقد توسمت فيك الخير أرأيت إن أخبرناك من نحن أكنت تستر علينا؟» قال: «نعم ورب الكعبة وأبذل الجهد في صلاح حاليما» فقال راشد: «هذا إدريس بن عبد الله بن حسن وأنا مولاه راشد، فررت به خوفاً عليه من القتل ونحن قاصدون بلاد المغرب» فقال الرجل: «لتطمئن نفوسكمما فإني من شيعة آل البيت وأول من كتم سرهم فأنتما من الآمنين» ثم أدخلهما متزلاه وبالغ في الإحسان إليهما فاتصل خبرهما بعلي بن سليمان صاحب مصر، فبعث إلى الرجل الذي هما عنده، فقال له: «إنه قد رفع إلى خبر الرجلين الذين عندك، وإن أمير المؤمنين قد كتب إلي في طلب الحسينيين والبحث عنهم، وقد بث عيونه على الطرق وجعل الرصاد

على أطراف البلاد فلا يمر بهم أحد حتى يعرف نسبه وحاله، وإنني أكره أن أتعرض لدعاء آل البيت ذلك ولهم الأمان فاذهب إليهما وأعلمهما بمقالي، وامرهما بالخروج من عملي، وقد أجلتهما ثلاثة فسار الرجل فاشترى راحلتين لإدريس ومولاه واشترى لنفسه أخرى ووضع زاداً يبلغهما إلى إفريقيا وقال لراشد: «اخْرُجْ أَنْتَ مَعَ الرَّفِيقَةِ عَلَى الْجَادَةِ وَأَخْرُجْ أَنَا وَإِدْرِيسُ عَلَى طَرِيقِ غَامِضٍ لَاتَّسِلُكَهُ الرَّفِيقُ، وَمَوْعِدُنَا مَدِينَةُ بَرْقَةٍ» فخرج راشد مع الرفقـة في زي التجـار، وخرج إدريس مع المصري فسلـكا البرية حتى وصلـا إلى برقة وأقامـا بها حتى لحقـا بهـما راشـد، ثم جـدد المصري لهـما زادـاً وودعـهما وانـصرفـ.

وسار إدريس وراشد بـجـدان السـير حتى وصلـا إلى القـيرـوان فأقامـا بها مـدة، ثم خـرجـا إلى المـغربـ الأـقصـىـ.

وكان راشـدـ منـ أـهـلـ النـجـدةـ وـالـحـزـمـ وـالـدـيـنـ وـالـنـصـيـحةـ لـآلـ الـبـيـتـ، فـعـمـدـ إـلـىـ إـدـرـيسـ حـيـنـ خـرـجاـ مـنـ الـقـيرـوانـ فـأـلـبـسـهـ مـدـرـعـةـ صـوـفـ خـشـيـةـ وـعـمـامـةـ كـذـلـكـ، وـصـبـرـهـ كـالـخـادـمـ لـهـ يـأـمـرـهـ وـيـنـهـاـ، كـلـ ذـلـكـ خـوـفـاـ عـلـيـهـ وـحـيـاطـةـ لـهـ، ثـمـ وـصـلـاـ إـلـىـ مـدـيـنـةـ تـلـمـسـانـ فـأـرـاحـاـ بـهـاـ أـيـامـاـ ثـمـ اـرـتـحـلـاـ نـحـوـ بـلـادـ طـنـجـةـ فـسـارـاـ حـتـىـ عـبـرـاـ وـادـيـ مـلـوـيـةـ وـدـخـلـاـ بـلـادـ السـوـسـ الـأـدـنـيـ وـتـقـدـمـاـ إـلـىـ مـدـيـنـةـ طـنـجـةـ - وـهـيـ يـوـمـيـذـ قـاعـدـةـ بـلـادـ الـمـغـرـبـ الـأـقـصـىـ وـأـمـ مـدـنـهـ - فـأـقـامـاـ بـهـاـ أـيـامـاـ، فـلـمـ لـمـ يـجـدـ إـدـرـيسـ بـهـاـ مـرـادـهـ خـرـجـ مـعـ مـوـلاـهـ رـاشـدـ حـتـىـ اـنـتـهـيـاـ إـلـىـ مـدـيـنـةـ وـلـيلـيـ قـاعـدـةـ جـبـلـ زـرـهـونـ.

وـكـانـ مـدـيـنـةـ مـتوـسـطـةـ حـصـيـنةـ كـثـيرـةـ الـمـيـاهـ وـالـغـرـوـسـ وـالـزـيـتونـ، وـكـانـ لـهـاـ سـوـرـ عـظـيمـ مـنـ بـنـيـانـ الـأـوـاـئـلـ يـقـالـ إـنـهـ الـمـسـمـعـةـ الـبـيـوـمـ بـقـصـرـ فـرـعـونـ، فـنـزـلـ بـهـاـ إـدـرـيسـ عـلـىـ صـاحـبـهاـ اـبـنـ عـبـدـ الـحـمـيدـ الـأـوـرـبـيـ فـأـقـبـلـ عـلـيـهـ اـبـنـ عـبـدـ الـحـمـيدـ وـبـالـغـ فـيـ إـكـرـامـهـ وـبـرـهـ، فـعـرـفـهـ إـدـرـيسـ بـنـفـسـهـ وـأـفـضـيـ إـلـيـهـ بـسـرـهـ فـوـافـقـهـ عـلـىـ مـرـادـهـ وـأـنـزلـهـ مـعـهـ فـيـ دـارـهـ وـتـولـيـ خـدـمـتـهـ وـالـقـيـامـ بـشـؤـونـهـ.

وـكـانـ دـخـولـ إـدـرـيسـ الـمـغـرـبـ وـنـزـولـهـ عـلـىـ اـبـنـ عـبـدـ الـحـمـيدـ بـمـدـيـنـةـ وـلـيلـيـ

غرة ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين ومائة.

بيعة الإمام إدريس بن عبد الله رضي الله عنه

لما استقر إدريس بن عبد الله بمدينة وليلي عند كثيرها إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي أقام عنده ستة أشهر فلما دخل شهر رمضان من السنة جمع ابن عبد الحميد عشيرته من أوربة وعرفهم بنسب إدريس وقرباته من رسول الله ﷺ وقرر لهم فضله ودينه وعلمه واجتماع خصال الخير فيه، فقالوا الحمد لله الذي أكرمنا به وشرفنا بجواره وهو سيدنا ونحن العبيد، فما ترید منا؟ قال: «تباعونه» قالوا: «ما من يتوقف عن بيعته» فباعوه بمدينة وليلي يوم الجمعة رابع رمضان المعظم سنة اثنتين وسبعين ومائة.

وكان أول من باىعه قبيلة أوربة على السمع والطاعة والقيام بأمره، والاقتداء به في صلواتهم وزواجهم وسائر أحکامهم. وكانت أوربة يومئذ من أعظم قبائل البربر بالمغرب الأقصى وأكثرها عدداً، وتلتها في نصرة إدريس والقيام بأمره مغيلة وصدىقية، وهما معاً من ولد تامزيت بن ضري.

ولما بُويع إدريس رحمه الله خطب الناس فقال بعد حمد الله والصلوة على نبيه ﷺ: «أيها الناس لا تمدن الأعنق إلى غيرنا، فإن الذي تجدونه من الحق عندنا لا تجدونه عند غيرنا».

ثم بعد ذلك وفدت عليه قبائل زناتة والبربر مثل زواغة وزواوة وسدراتنة وغيبة ومحنة وغمارة وكافة البربر بالمغرب الأقصى. فباعوه أيضاً، ودخلوا في طاعته فاستتب أمره وتمكن سلطانه وقويت شوكته.

ولحق به من إخوته سليمان بن عبد الله ونزل بأرض زناتة من تلمسان ونواحيها، كذلك عند ابن خلدون في أخبار الأدارسة، والذي عنده في أخباربني العباس وكذلك عند أبي الفداء أن سليمان بن عبد الله بن حسن قتل بوقعة فخ وجمع رأسه مع رؤوس القتلى فله أعلم.

غزو إدريس بن عبد الله بلاد المغرب الأقصى وفتحه إليها

ثم إن إدريس بن عبد الله رضي الله عنه اتخد جيشاً كثيفاً من وجوه زنانة وأوربة وصنهاجة وهوارة وغيرهم، وخرج غازياً بلاد تامسنا، ثم زحف إلى بلاد تادلا ففتح معاقلها وحصونها، وكان أكثر أهل هذه البلاد لا زالوا على دين اليهودية والنصرانية وإنما الإسلام بها قليل، فأسلم جميعهم على يده.

وقفل إلى مدينة وليلي مؤيداً منصوراً فدخلها أواخر ذي الحجة سنة اثنين وسبعين ومائة، فأقام بها شهر محرم فاتح سنة ثلث وسبعين ريثما استراح الناس، ثم خرج برسم غزو من كان بقى من قبائل البربر بالمغرب على دين الماجوسية واليهودية والنصرانية وكان قد بقى منهم بقية متحصنون في المعاقل والجبال والمحصون المنيعة، فلم يزل إدريس رحمة الله يجاهدهم في حصونهم ويستنزلهم من معاقلهم حتى دخلوا في الإسلام طوعاً وكرهاً ومن أئبي الإسلام منهم أباده قتلاً وسيماً.

وكانت البلاد التي غزاها في هذه المرة حصون فندلاوة ومحصون مدينة وبهلولة وفلاح غيانة وبلاط فازاز ثم عاد إلى مدينة وليلي فدخلها في النصف من جمادى الآخرة من السنة المذكورة.

غزو إدريس بن عبد الله أرض المغرب الأوسط وفتح مدينة تلمسان

لما قفل إدريس رضي الله عنه من غزو بلاد المغرب الأقصى سنة ثلاثة وسبعين ومائة أقام بوليلي بقية جمادى الآخرة ونصف رجب التالي لها ريشما استراح جيشه ثم خرج منتصف رجب المذكور برسم غزو مدينة تلمسان ومن بها من قبائل مغراوة وبني يفرن فانتهى إليها ونزل خارجها فخرج إليه صاحبها محمد بن خزر من ولد صولات المغراوي مستأمناً ومبائعاً له فأمنه إدريس وقبل بيته.

ودخل مدينة تلمسان فأمن أهلها ثم أمن سائر زناتة وبني مسجد تلمسان وأنقنه وأمر بعمل منبر نصبه فيه وكتب عليه: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أمر به الإمام إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم وذلك في شهر صفر سنة أربع وسبعين ومائة»، قال ابن خلدون: (واسم إدريس مخطوط في صفحة المنبر لهذا العهد) اهـ ثم رجع إدريس رحمة الله إلى مدينة وليلي فدخلها مؤيداً منتصراً.

وفاة إدريس بن عبد الله والسبب في ذلك

لما حصل لإدريس رحمه الله ما حصل من التمكן والظهور اتصل خبر ذلك بال الخليفة ببغداد وهو هارون الرشيد العباسي، وبلغه أن إدريس قد استقام له أمر المغرب وأنه قد استفحلا أمره وكثرت جنوده وقد فتح مدينة تلمسان وبني مسجدها وأنه عازم على غزو إفريقية فخاف الرشيد عاقبة ذلك وأنه إن لم يتدارك أمره الآن ربما عجز عنه في المستقبل مع ما يعلم من فضل إدريس خصوصاً ومحبة الناس في آل البيت عموماً. فقلق الرشيد من ذلك واستشار وزيره يحيى بن خالد البرمكي وقال: «إن الرجل قد فتح تلمسان وهي باب

إفريقيية ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار وقد هممت أن أبعث إليه جيشاً ثم فكرت في بعد الشقة وعظم المشقة فرجعت عن ذلك» فقال يحيى: «الرأي يا أمير المؤمنين أن تبعث إليه برجل ذاهية يحتال عليه ويغتاله وتستريح منه» فأعجب الرشيد ذلك؛ فوقع اختيارهما على رجل من موالي المهدى والد الرشيد - واسم الرجل سليمان بن جرير - ويعرف بالشماخ - فأحضره يحيى وأعلمته بما يريد منه، ووعلمه على قتل إدريس الرفعة والمنزلة العالية عند الرشيد، وزوده مالاً وطرقاً يستعين بها على أمره وأصحابه الرشيد كتاباً منه إلى واليه على إفريقيية إبراهيم بن الأغلب. كذا عند ابن خلدون وابن الخطيب وفيه أن ابن الأغلب لم يكن والياً على إفريقيية في هذا التاريخ وإنما ولها سنة أربع وثمانين ومائة حسبما سبق فوصل الشماخ إلى والي إفريقيية بكتاب الرشيد فأجازه إلى المغرب.

وقدم الشماخ على إدريس بن عبد الله مظهراً التزوع إليه فيمن نزع إليه من وحدان العرب متبرئاً من الدعوة العباسية متخللاً للدعوة الطالبية فاختصه إدريس رحمة الله وحلاً بعينيه وعظمت منزلته لديه.

وكان الشماخ ممثلاً من الأدب والظرف والبلاغة عارفاً بصناعة الجدل فكان إذا جلس الإمام إدريس إلى رؤساء البربر ووجوه القبائل تكلم الشماخ فذكر فضل أهل البيت وعظيم بركتهم على الأمة ويقرر ذلك ويحتاج لإمامية إدريس وأنه الإمام الحق دون غيره فكان ذلك يعجب إدريس ويقع منه الموقع فاستولى الشماخ عليه حتى صار من ملازميه ولا يأكل إلا معه.

وكان راشداً كالثأر لإدريس ملازماً له أيضاً، قلما ينفرد عنه لأنه كان يخاف عليه من مثل ما وقع فيه لكثره أعداء آل البيت يومئذ وكان الشماخ يترصد الغرة من راشد ويترقب الفرصة في إدريس إلى أن غلب راشد ذات يوم في بعض حاجاته فدخل الشماخ على إدريس فجلس بين يديه على العادة وتحدى ملياً.

ولعل لم ير الشماخ راشداً بالحضور انتهز الفرصة في إدريس فقيل إنه

كانت مع الشماخ قارورة من طيب مسموم فأخرجها وقال لإدريس: «هذا طيب كنت استصحبه معي وهو من جيد الطيب فرأيت أن الإمام أولى به مني وذلک من بعض ما يجب له عليّ» ثم وضع القارورة بين يديه. فشكراً إدريس وتناول القارورة ففتحها واشتم ما فيها، فصعد السم إلى خشاشمه وانتهى إلى دماغه فغشي عليه، وقام الشماخ للحين كأنه يريد حاجة الإنسان. فخرج وأتى منزله فركب فرساً له عتيقاً كان قد أعده لذلك، وذهب لوجهه يريد المشرق وافتقد الناس الإمام إدريس فإذا هو مغشي عليه لا يتكلم ولا يعلم أحد ما به وقيل إن الشماخ سمه في سنون - والستون بوزن صبور ما يستاك به - وكان إدريس يشتكي وجع الأسنان والله وقيل سمه في الحوت الشابل وقيل في عنبر أهداه إليه في غير إيانه والله أعلم.

ولما اتصل خبر إدريس بمولاه راشد أقبل مسرعاً فدخل عليه وهو يحرك شفتيه لا يبين كلاماً قد أشرف على الموت فجلس عند رأسه متاجراً لا يدرى ما دهاء واستمر إدريس على حالته تلك إلى عشي النهار فتوفي في مهل ربيع الآخر سنة سبع وسبعين ومائة وتفقد راشد الشماخ فلم يره فعلم أنه الذي اغتال إدريس.

ثم جاء الخبر بأن الشماخ قد لقي على أميال من البلد فركب راشد في جمع من البربر واتبعوه وتقطعت الخيل في التواحي وطلبوه ليلتهم إلى الصباح فلتحقه راشد بوادي ملوية عابراً فشد عليه راشد بالسيف وضربه ضربات قطع في بعضها يمناه وشجه في رأسه شجاجاً ونجا الشماخ بجريعاء الذقن وأعني فرس راشد عن اللحاق به فرجع عنه ويقال إن الشماخ رئي بعد ذلك بيغداد وهو مقطوع اليد.

ولما راجع راشد إلى منزله أخذ في تجهيز الإمام رضي الله عنه وصلى عليه ودفنه بصحن رابطة عند باب وليلي ليبارك الناس بتربته رحمه الله ورضي عنه.

أمر البربر بعد وفاة إدريس بن عبد الله رحمه الله

قالوا إن الإمام إدريس لما توفي لم يترك ولداً إلا حملأً من أمة له ببربرية اسمها كنزة، فلما فرغ راشد من جهازه ودفعه جمع رؤساء البربر ووجوه الناس فقال لهم: إن إدريس لم يترك ولداً إلا حملأً من أمته كنزة وهي الآن في الشهر السابع من حملتها، فإن رأيتم أن تصبروا حتى تضع هذه الجارية حملتها فإن كان ذكرًا أحسنا تربيته حتى إذا بلغ مبلغ الرجال بايعناه تمسكاً بدعوة آل البيت وتبركاً بذرية رسول الله ﷺ، وإن كان جارية نظرتم لأنفسكم فقالوا له: أيها الشيخ المبارك ما لنا رأي إلا ما رأيت، فإنك عندنا عوض من إدريس تقوم بأمرورنا كما كان إدريس يقوم بها وتصلي بنا وتنقضي بيننا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ونصير حتى تضع الجارية حملتها ويكون ما أشرت به، على أنها إن وضعت جارية كنت أحق الناس بهذا الأمر لفضلك ودينك وعلمه فشكراً لهم راشد على ذلك ودعوا لهم وانصرفوا فقام راشد بأمر البربر تلك المدة.

ولما تمت للجارية أشهر حملتها وضحت غلاماً أشبه الناس بأبيه إدريس فأخرجه راشد إلى رؤساء البربر حتى نظروا إليه فقالوا: هذا إدريس بعينيه كأنه لم يتم فسماه راشد إدريس ونشأ الصبي نشأة حسنة إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن دولة إدريس بن إدريس رحمة الله

كانت ولادة إدريس بن عبد الله يوم الاثنين ثالث رجب سنة سبع وسبعين ومائة فكفله راشد مولى أبيه، وقام بأمره أحسن قيام فأقرأه القرآن حتى حفظه وهو ابن ثمان سنين ثم علمه الحديث والسنّة والفقه في الدين والعربية ورواه الشعر وأمثال العرب وحكمها، وأطلّعه على سير الملوك وعرفه أيام الناس، ودربه على ركوب الخيل والرمي بالسهام وغير ذلك من مكاييد الحرب، فلم يمض له من العمر مقدار إحدى عشرة سنة إلا وقد اضططع بما حمل وترشح للأمر، واستحق لأن يبايع، فباعه البربر واتوه صفتهم عن طاعة منهم وإخلاص.

قال ابن خلدون: بايع البربر إدريس الأصغر حملاً ثم رضيّاً ثم فصيلاً إلى أن شب فباعوه بجامع مدينة وليلي سنة ثمان وثمانين ومائة وهو ابن إحدى عشرة سنة.

وكان إبراهيم بن الأغلب صاحب إفريقيا قد دس إلى بعض البربر الأموال واستمالهم حتى قتلوا راشداً مولاهم سنة ست وثمانين ومائة، وحملوا إليه رأسه وقام بكفالة إدريس من بعده أبو خالد يزيد بن إلياس العبدلي، ولم يزل على ذلك إلى أن بايعوا لإدريس فقاموا بأمره وجددوا لأنفسهم رسوم الملك بتجديد طاعته، وفي القرطاس أن مقتل راشد كان في السنة التي بُويع فيها إدريس بن إدريس، قال: «وكان بيعة إدريس يوم الجمعة غرة ربيع الأول سنة ثمان وثمانين ومائة بعد مقتل راشد بعشرين يوماً وإن إدريس يومئذ ابن إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر، قاله عبد الملك الوراق في تاريخه، وفيه بعض مخالفة لتأريخ الولادة المتقدم».

وفي قتل راشد يقول إبراهيم بن الأغلب في بعض ما كتب به إلى الرشيد يعرفه بتصحه وكمال خدمته.

ألم ترني بالكيد أردبت راشداً وإن بأخرى لابن إدريس راصد

تناوله عزمي - على بعد داره - بمحتومة، يحظى بها من يكайд
ففاه أخو عك بمقتل راشد وقد كنت فيه شاهداً وهو راقد
يريد بأخي عك محمد بن مقاتل العكي والملي إفريقية فإنه لما حاول ابن
الأغلب قتل راشد وتم له ذلك كتب العكي إلى الرشيد يعلمه أنه هو الذي فعل
ذلك فكتب صاحب البريد إلى الرشيد بحقيقة الأمر، وأن ابن الأغلب هو
الفاعل لذلك والمتولي له فثبتت عند الرشيد كذب العكي وصدق ابن الأغلب
فعزل الرشيد العكي عن إفريقيا وولى ابن الأغلب عليها وإنما كان قبل ذلك
عاملأً للعكي على بعض كورها هكذا حكم صاحب القرطاس هذا الخبر وفيه
أن عزل العكي عن إفريقية وتولية ابن الأغلب عليها كان في سنة أربع وثمانين
قبل وفاة راشد بستين أو بأربع سنتين على الخلاف المقدم.

وقال البكري والبرنسى: إن راشداً لم يمت حتى أخذ البيعة لإدريس
بالمغرب وإن إدريس لما تم له من العمر إحدى عشرة سنة ظهر من وفور
عقله ونباهته وفصاحته ما أذهل عقول الخاصة وال العامة فأخذ له راشد البيعة
على البرير يوم الجمعة سابع ربيع الأول من السنة المذكورة فصعد إدريس
المذبح وخطب الناس فقال: «الحمد لله أحمده وأستغفره وأستعين به وأنوكل
عليه وأعوذ به من شر نفسي ومن شر كل ذي شر، وأشهد أن لا إله إلا الله
وأن محمداً عبده ورسوله القبيعوthe إلى الثقلين بشيراً ونديراً، وداعياً إلى الله
بإذنه وسراجاً منيراً صلى الله عليه وعلى آل بيته الطاهرين الذين أذهب الله
عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، أيها الناس إنما قد ولينا هذا الأمر الذي
يضاعف فيه للمحسن الأجر، وعلى المسيء الوزر، ونحن والحمد لله على
قصد، فلا تمدوا الأعنق إلى غيرنا، فإن الذي تطلبونه من إقامة الحق إنما
تجدونه عندنا»، ثم دعا الناس إلى بيته، وحضرهم على التمسك بطاعته،
فعجب الناس من فصاحته وقوته جائش على صغر سنّه، ثم نزل فتسارع الناس
إلى بيته وزاد حماؤه عليه يقبلون يده فباعه كافة قبائل المغرب من زناتة وأوربة
وصنهاجة وغمارة وسائر قبائل البرير فتمنت له البيعة وبعد بيته بقليل توفي
مولاه راشد والله أعلم.

وفود العرب على إدريس بن إدريس رحمه الله

لما استقام أمر المغرب لإدريس بن إدريس وتوطد ملكه وعظم سلطانه وكثرت جيوشه وأتباعه، وفدت عليه الوفود من البلدان، وقصد الناس حضرته من كل صقع ومكان، فاستمر بقية سنة ثمان وثمانين يصل الوفود ويبذل الأموال، ويستميل الرؤساء والأقبائل.

ولما دخلت سنة تسع وثمانين وماة وفدت عليه وفود العرب من إفريقيا والأندلس نازعين إليه وملتفين عليه، فاجتمع لديه منهم نحو خسمائة فارس من قيس والأزد ومذحج وبحصب والصادف وغيرهم، فسر إدريس بوفادتهم وأجزل صلتهم وأدنى منزلتهم وجعلهم بطانة دون البربر، فاعتز بهم وأنس بقربهم، فإنه كان غريباً بين البربر فاستوزر منهم^(١) عمير بن مصعب الأزدي المعروف بالملجموم، من ضربة ضربها في بعض حربهم وسمته على الخرطوم.

وكان عمير من فرسان العرب وسادتها ولأبيه مصعب مأثر بإفريقيا والأندلس، وموافق في غزو الفرنج. واستقضى منهم عامر بن محمد بن سعيد القيشي، وكان من أهل الورع والفقه والدين، سمع من مالك بن أنس وسفيان الثوري وروى عنهما كثيراً وكان قد خرج إلى الأندلس برسم الجهاد، ثم أجاز إلى العدوة فوفد بها على إدريس فيمن وفد عليه من العرب فاستقضاه، واستكتب منهم أبو الحسن عبد الله بن مالك الخزرجي.

ولم تزل الوفود تقدم عليه من العرب والبربر حتى كثر الناس لديه، وضاقت بهم مدينة وليلي.

(١) هو أول تنظيم عرف للمخزن (الحكومة المغربية) والمخزنية في التاريخ بالمغرب الأقصى.

وانتهى إلى ابن الأغلب ما عليه إدريس من الاستفحال، فأرهف عزمه للتضليل بين البرير واستفسادهم على إدريس، فكان منهم بهلول بن عبد الواحد المضغري من خاصة إدريس ومن أركان دولته، فكتابه ابن الأغلب واستهواه بالمال حتى بايع الرشيد وانحرف عن إدريس، واعتزله في قومه فصالحة إدريس وكتب إليه يستعطفه بقرباته من رسول الله ﷺ فكشف عنه، وكان فيما كتب به إدريس إلى بهلول المذكور قوله:

أبهلول قد حملت نفسك خطة
أصلك إبراهيم مع بعد داره
كأنك لم تسمع بمكر ابن أغلب
ومن دون ما منتك نفسك خالية
تبدلت منها ضلة برشاد
فأصبحت منقاداً، بغير قياد
وقدماً رمى بالكيد كل بلاد
ومناك إبراهيم شوك قتاد

ثم أحسن إدريس من إسحاق بن محمد الأوربي بانحراف عنه، وموالاة لابن الأغلب فقتله سنة ثنتين وتسعين ومائة وصفا له المغرب، وتمكن سلطانه به. والله غالب على أمره.

بناء مدينة فاس

لما كثرت الوفود من العرب وغيرهم على إدريس رحمه الله وضاقت بهم مدينة وليلي أراد أن يبني لنفسه مدينة يسكنها هو وخاصة ووجه دولته فركب يوماً في جماعة من حاشيته وخرج يتخير البقاع فوصل إلى جبل زالغ فأعجبه ارتفاعه وطيب هوائه وتربيته، فاختط بستنه مدينة مما يلي الجوف وشرع في بنائها فبني بعضاً من الدور و نحو الثلث من السور فاتى السيل من أعلى الجبل في بعض الليالي فهدم السور والدور، وحمل ما حول ذلك من الخيام والزروع وألقاها في نهر سبو فكشف إدريس عن البناء، واستمر الحال على ذلك مدة يسيرة؛ ثم خرج ثانية يتصيد ويرتاد لنفسه موضعًا يبني فيه ما قد عزم عليه، فانتهى إلى نهر سبو حيث هي اليوم حمة خولان فأعجبه الموضع

لقربه من الماء ولأجل الحمة التي هناك (والحمة كما في القاموس كل عين فيها ماء حار ينبع منها ويستشفى به) فعزم إدريس على أن يبني هناك مدينة وشرع في حفر الأساس وعمل العجيار وقطع الخشب وابتدأ بالبناء ثم فكر في نهر سبو وما يأتي به من الممدود والسيول زمان الشتاء وما يحصل بذلك منضرر العظيم للناس فكف عن البناء ورجع إلى وليلي.

ثم بعث وزيره عمير بن مصعب الأزدي يرثاد له موضعًا يبني فيه المدينة التي عزم عليها، فسار عمير في جماعة يقص الجهات ويختبر البقاع والترب والمياه؛ حتى انتهى إلى فحص سايس، فأعجبه المحل فنزل هناك على عين ماء تطرد في مرج أخضر، فتوصل إلى الظهر هو وجماعة القوم الذين معه، ثم دعا الله تعالى أن يسر عليه مطلبها، ثم ركب وحده وأمر الجماعة أن ينتظروه حتى يعود إليهم، فثبتت العين إليه من يومئذ ودعى عين عمير إلى الآن - وعمير هذا هو جدبني الملجمون من بيوتات فاس وكبارائهم - فأوغل عمير في فحص سايس حتى انتهى إلى العيون التي ينبع منها وادي فاس، فرأى بها من عناصر الماء ما ينفي على الستين عنصراً، ورأى مياها تطرد في فسيح من الأرض وحول العيون شعراء من شجر الطرفاء والطخش والعرعار والكلخ وغير ذلك، فشرب من الماء فاستطابه، ونظر إلى ما حوله من المزارع التي ليست على نهر سبو فأعجبته؛ فانحدر مع مسيل الوادي حتى انتهى إلى موضع مدينة فاس اليوم، فنظر فإذا ما بين الجبلين غيبة ملتفة الأشجار، مطردة العيون والأنهار، وفي جانب منها خيام من شعر يسكنها قوم من زواقة يعرفون بيتي الخير، وقوم من زناته يعرفون بيبي يرغش وكان بنو يرغش على دين المجوسية، وكان بيت نارهم بالموضع المعروف بشبوية، وكان البعض منهم على دين اليهودية، والبعض على دين النصرانية.

وكان يبنو الخير ينزلون بعدها القرويين وينبئون بعدها الأندلس، وكانوا قلما يفتررون عن القتال لاختلاف أهوائهم وتبادر أديانهم.

فرجع عمير إلى إدريس وأعلم بما رأى من الغيبة وساكنيها وما وقع عليه اختياره فيها فجاء إدريس ليتظر إلى البقعة فألفي بني الخير وبني يرغش يقتلون؛ فأصلاح بينهم وأسلموا على يده.

واشتري منهم الغيبة بستة آلاف درهم فرضوا بذلك ودفع لهم الثمن وأشهد عليهم بذلك على يد كتابه أبي الحسن عبد الله بن مالك الخزرجي. ثم ضرب أبنيته بكررواوة وشرع في بناء المدينة فاختط عدوة الأندلس غرة ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين ومائة.

وفي سنة ثلات بعدها اختط عدوة القرويين وبني مساكنه بها وانتقل إليها. وقد كان أولاً أدار السور على عدوة الأندلس وبنى بها الجامع المعروف بجامع الأشياخ وأقام فيه الخطبة ثم انتقل ثانياً إلى عدوة القرويين كما قلنا ونزل بالموضع المعروف بالمقرمدة وضرب فيه قيطونه وأخذ في بناء جامع الشرفاء وأقام فيه الخطبة أيضاً ثم شرع في بناء داره المعروفة الآن بدار القيطون التي يسكنها الشرفاء الجوطيون من ولده، ثم بنى القيسارية إلى جانب المسجد الجامع، وأدار الأسواق حوله وأمر الناس بالبناء، وقال لهم: «من بنى موضعاً أو اغترسه قبل تمام السور فهو له». فبني الناس من ذلك شيئاً كثيراً واغترسوا، ووفد عليه جماعة من الفرس من أرض العراق فأنزلتهم بغيبة هناك كانت على العين المعروفة بعين علون.

وكان علون عبداً أسود يأوي إلى تلك الغيبة ويقطع الطريق بها على المارة فتحامي الناس غيضته وتناذروها فأعلم إدريس رحمة الله بشأنه فبعث في طلبه خيلاً قبضوا عليه، وجاؤوا به إليه فأمر بقتله وصلبه على شجرة كانت على العين فأضيقـتـ إـلـيـهـ العـيـنـ مـنـ يـومـئـذـ وـقـيلـ عـيـنـ عـلوـنـ.

ثم أدار إدريس السور على عدوة القرويين وكانت من لدن باب السلسلة إلى غدير الجوزاء.

قال عبد الملك الوراق: كانت مدينة فاس في القديم بلدين لكل بلد منها سور يحيط به، وأبواب تختص به، والنهار فاصل بينهما؛ وسميت

إحدى العدوتين عدوة القروريين لنزول العرب الوافدين من القิروان بها، وكانوا ثلاثة أهل بيت وسميت الأخرى عدوة الأندلس لنزول العرب الوافدين من الأندلس بها، وكانوا جمأً غفيراً يقال أربعة آلاف أهل بيت.

وكان الحكم بن هشام الأموي صاحب الأندلس صدرت منه لأول إمارته هنات أوجبت قيام جماعة من أهل الورع عليه وكان فيهم يحيى بن يحيى الليبي صاحب مالك وراوي الموطاً عنه وطالوت الفقيه وغيرهما فخلعوا الحكم وبايعوا بعض قرابته وكانت بالريض الغربي من قرطبة فقاتلهم الحكم وكثروه وكادوا يأتون عليه، ثم أظفره الله بهم ووضع فيهم السيف ثلاثة أيام وهدم دورهم ومساجدهم وفر الباقيون منهم فلتحقوا بفاس المغرب الأقصى وبالإسكندرية من أرض مصر، فأما اللاحقون بفاس فأذلهم إدريس رحمة الله بعدة الأندلس فأضيفت إليهم، وأما اللاحقون بالإسكندرية فشاروا بها بعد حين فزحف إليهم عبد الله بن طاهر الخزاعي صاحب مصر من قبل المأمون بن الرشيد فقاتلهم وتفاهم إلى جزيرة إقريطش فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الفرنج^(١) من أيديهم بعد مدة.

وذكر ابن غالب في تاريخه أن الإمام إدريس لما فرغ من بناء مدينة فاس وحضرت الجمعة الأولى صعد المنبر وخطب الناس ثم رفع يديه في آخر الخطبة فقال: «اللهم إنك تعلم أني ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا رياء ولا سمعة ولا مكابرة، وإنما أردت أن تعبد بها ويتلى بها كتابك وتقام بها حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك محمد ﷺ ما بقيت الدنيا. اللهم وفق سكانها وقطنانها للخير وأعنهم عليه واكفهم مؤنة أعدائهم وأدر عليهم الأرزاق وأغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق إنك على كل شيء قادر».

(١) المقصود بالفرنج هنا فرنج القسطنطينية وهو البيزنطيون وكان امتلاكهم لها من بد المسلمين سنة 350هـ موافق 961 مسيحية على يد «نيسيفور فوكاص» إمبراطور القسطنطينية (انظر ابن خلدون صصفحة 211 من الجزء الرابع).

فأمن الناس على دعائه فكثرت الخيرات بالمدينة وظهرت بها البركات . ومن محسن فاس أن نهراها يشقها بنصفين وتشعب جداوله في دورها وحماماتها وشوارعها وأسواقها وتطنح به أرحاؤها ثم يخرج منها ، وقد حمل أقدارها وأزيالها ، إلى غير ذلك من عيون الماء التي تتبع بداخلها وتتفجر من بيوتها تجاوز الحصر كثرة وقد مدحها الفقيه الزاهد أبو الفضل ابن النحوي بقوله :

يا فاس منك جميع الحسن مسترق
هذا نسيمك ، أم روح لراحتنا
أرض تخللها الأنهر داخلها
حتى المجالس والأسوق والطرق
وساكنوك ليهنهم بما رزقاوا
وما ذاك السلسل الصافي ، أم الورق ؟
وقال الفقيه الكاتب أبو عبد الله المغيلي يتשוק إلى فاس (وكان يلي
خطة القضاء بمدينة آزمور) :

يا فاس حبا الله أرضك من ثرى
يا جنة الدنيا التي أريت على
غرف على غرف ويجري تحتها
ويساتن من سندس قد زخرفت
وبجامع القروين شرف ذكره
ويصحيه زمن المصيف محسان
واجلس إزاء الخصة الحسنا به
وسقاك من صوب الغمام المسبل
حمص بمنظرها البهي الأجمل
ماء ألد من الرحيق السلسل
يجداول كالأيم أو كالمقصل^(١)
أنس بذكره يهيج تململ
فمع العشي الغرب منه استقبل
واكرع بها عنى - فديتك - وانهل

(١) المقصل السيف الصقيل .

غزو إدريس بن إدريس المغاربيين واستيلاؤه عليهمما

لما فرغ إدريس من بناء مدينة فاس وانتقل إليها بمحلته واستوطنها بحاشيته وأرباب دولته واتخذها دار ملكه، أقام بها إلى سنة سبع وتسعين ومائة فخرج غازياً بلاد المصامدة فانتهى إليها واستولى عليها، ودخل مدينة نفيس^(١) ومدينة أغمات^(٢) وفتح سائر بلاد المصامدة. وعاد إلى فاس فأقام بها إلى سنة تسع وتسعين ومائة، فخرج في المحرم برسم غزو قبائل نفزة من أهل المغرب الأوسط ومن بقي هناك على دين الخارجية من البربر، فسار حتى غلب عليهم ودخل مدينة تلمسان. فنظر في أحوالها وأصلاح سورها وجماعها وصنع فيها منيراً. قال أبو مروان عبد الملك الوراق: «دخلت مدينة تلمسان سنة خمس وخمسين وخمسمائة فرأيت في رأس منبرها لوحًا من بقية منبر قديم قد سمر عليه هناك مكتوبًا فيه: «هذا ما أمر به الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن علي رضي الله عنهم»، في شهر المحرم سنة تسع وتسعين ومائة» اهـ. وقد تقدم لنا ما يخالف هذا والله أعلم. وأقام إدريس بمدينة تلمسان وأحوازها يدير أمرها ويصلح أحوالها ثلاثة سنين ثم رجع إلى مدينة فاس.

قال داود^(٣) بن القاسم الأوربي: شهدت مع إدريس بن إدريس بعض

(١) قال البكري: نفيس مدينة حصينة أولية افتتحها عقبة بن نافع وذكر أنها كانت عامرة في زمانه، أما اليوم فلا يعرف لها أثر.

(٢) أغمات وصفها البكري بأنها كانت مدينة كبيرة، أما اليوم فهي قرية صغيرة خاملة بها بقية عمارة.

(٣) هو داود بن القاسم بن إسحاق بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الجعفري يكنى أبا هاشم المترفى سنة إحدى وستين ومائتين انظر ترجمته في صحيفة 65 من كتاب طلعة المشتري في النسب الجعفري للمؤلف فقد بسطها هناك.

غزواته مع الخوارج الصفرية من البرير، فلقيناهم وهم ثلاثة أضعافنا فلما تقارب الجماعان نزل إدريس فتوضاً وصلى ركعتين ودعا الله تعالى ثم ركب فرسه وتقدم للقتال، قال: فقاتلناهم قتالاً شديداً، فكان إدريس يضرب في هذا الجانب مرة! ويكر في هذا الجانب الآخر مرة! ولم يزل كذلك حتى ارتفع النهار، ثم رجع إلى رايته فوقف بيازائها والناس يقاتلون بين يديه، فطافت أتمامه وأديم النظر إليه وهو تحت ظلال البنود يحرض الناس ويشجعهم. فأعجبني ما رأيت من ثباته وقوته جأشه! فالتفت نحوه وقال: «يا داود ما لي أراك تديم النظر إليّ؟» قلت: «أيها الإمام إنه قد أعجبني منك خصال لم أرها اليوم في غيرك». قال: «وما هي؟» قلت: «أولاًها ما أرأه من ثبات قلبك وطلقة وجهك عند لقاء العدو! قال: «ذاك ببركة جدنا صلى الله عليه وسلم ودعائه لنا وصلاته علينا، ووراثة من أبيينا على بن أبي طالب» قلت: وأراك تبصر بصاقاً مجتمعاً وأنا أطلب قليل الريق في فمي فلا أجده، قال: «يا داود ذاك لقوه جashi واجتماع لبي عند الحرب، وعدم ريقك لطيش عقلك وافتراق لبك» قلت: وأنا أيضاً أتعجب من كثرة تقلبك في سرجك! وقلة قرارك عليه! قال: «ذاك مني زمع إلى القتال وصرامة فيه، فلا تظنه رعباً». وأشار بيقول^(١):

اليس أبونا هاشم شد أزره وأوصى بنيه بالطعان، وبالضرب
فلسنا ثمل الحرب حتى تملينا ولا نشتكى مما يؤول من التصب

= وأما قوله الأوزبي هنا فصوابه الجعفري وإنما تصحفت على صاحب تاريخ القرطاس الذي ساق المؤلف نقله هنا.

(1) يعني متمثلاً وأصل البيتين لأبي طالب (انظر كتاب الاكتفاء للكلاعي في خبر نقض صحيفة قريش).

وفاة إدريس بن إدريس رحمه الله

قال ابن خلدون: انتظمت لإدريس بن إدريس كلمة البرير وزناته ومحى دعوة الخوارج منهم واقتطع المغاربة عن دعوة العباسين من لدن السوس الأقصى إلى وادي شلف، ودافع إبراهيم بن الأغلب عن حماه بعد ما ضايقه بالمكايد واستفساد الأولياء حتى قتلوا راشد مولاه. وارتباط إدريس بالبرير صالح ابن الأغلب وسكن من غربه وضرب السكة باسمه.

وعجز الأغالبة بعد ذلك عن مدافعة هؤلاء الأدارسة ودافعوا خلفاءبني العباس بالمعاذير الباطلة. وصفا ملك المغرب لإدريس واستمر بدار ملكه من فاس ساكناً وادعاً مقتعداً أريكته، مجتنباً ثمرته إلى أن تفاه الله ثاني جمادى الآخرة سنة ثلاثة عشرة ومائتين، وعمره نحو ست وثلاثين سنة، ودفن بمسجده بإزار الحائط الشرقي منه. وقال البرنسى إنه توفي بمدينة وليلي^(١) ودفن إلى جنب أبيه.

وكان سبب وفاته أنه أكل عنباً فشرق بحجة منه فمات لحيته، وخلف من الولد اثنى عشر ذكراً أولهم محمد، وعبد الله، وعيسي، وإدريس وأحمد، وجعفر، ويسحى، والقاسم، وعمر، وعلى، وداود، وحمزة كلها في القرطاس. وزاد ابن حزم، الحسن، والحسين، وولي الأمر منهم بعده محمد وهو أكبرهم.

(١) كذا عند البكري في مسالكه من أنه توفي بوليلي واقتصر على هذا القول، وكذا عند الرشاطي والتنبيسي ونقل هذا الخلاف عن البرنسى صاحب الأنبياء والجندة. والله أعلم بالحقيقة.

الخبر عن دولة محمد بن إدريس رحمة الله

لما توفي إدريس بن إدريس رحمة الله . قام بالأمر بعده ابنه محمد بعهد منه إليه ، ولما ولـي قسم بلاد المغرب بين إخوته - وذلك بإشارة جدته كنزة - أم إدريس فاختص القاسم منها بطنجة وسبـة وقصر مصمودة وقلعة حجر النسر وتتطوان وما انضم إلى ذلك من القبائل والبلاد . واختص عمر منها بتـكسـاس وترغـة وما بينهما من قبائل صنهاجـة وغمـارـة . واختـص داود بـلـاد هـوارـة وـتسـول وـتـازـا وما بين ذلك من قبائل مـكـنـاسـة وـغـيـاثـة . واختـص يـحيـى بـأـصـيـلاـ وـالـعـرـاـيـشـ وـالـبـصـرـةـ^(١) وـبـلـادـ وـرـغـةـ وـمـاـ وـالـىـ ذـلـكـ . واختـص عـيـسـى بـسـلاـ وـشـالـةـ وـأـزـمـورـ وـتـامـسـناـ وـمـاـ انـضـمـ إـلـىـ ذـلـكـ منـ القـبـائـلـ . واختـص حـمـزةـ بـمـدـيـنـةـ وـلـيلـىـ وـأـعـمـالـهـ . واختـص أـحـمـدـ بـمـدـيـنـةـ مـكـنـاسـةـ وـمـدـيـنـةـ تـادـلـاـ وـمـاـ بـيـنـهـماـ منـ بـلـادـ فـازـازـ . واختـص عـبـدـ اللهـ بـأـغـمـاتـ وـبـلـدـ نـفـيسـ وـجـبـالـ الـمـصـامـدـةـ وـبـلـادـ لـمـطـةـ وـالـسـوـسـ الـأـقـصـىـ . وأـبـقـىـ الـآـخـرـينـ فـيـ كـفـالـةـ وـكـفـالـةـ جـدـتـهـمـ كـنـزـةـ لـصـغـرـهـمـ .

ويقيـت تـلـمـسانـ لـوـلـدـ عـمـهـ سـلـيـمانـ بـنـ عـبـدـ اللهـ ، فـإـنـ إـدـرـيسـ بـنـ إـدـرـيسـ لـمـاـ غـزـاـ تـلـمـسانـ وـأـقـامـ بـهـ ثـلـاثـ سـنـينـ كـمـاـ سـبـقـ وـدـوـخـ بـلـادـ زـنـاتـةـ وـاستـوـسـتـ لـهـ طـاعـتـهـمـ . عـقـدـ عـلـيـهـاـ لـبـنـيـ عـمـهـ سـلـيـمانـ بـنـ عـبـدـ اللهـ . فـلـمـاـ تـوـفـيـ إـدـرـيسـ وـاقـتـسـمـ بـنـوـهـ أـعـمـالـ الـمـغـرـبـ كـانـتـ تـلـمـسانـ فـيـ سـهـمـ عـيـسـىـ بـنـ إـدـرـيسـ بـنـ

(١) البصرة كانت مدينة كبيرة بال المغرب تأسست مع آصيلا أوائل القرن الثالث الهجري وعمرت وكان لها شأن ثم خربت قبل أو اخر القرن الرابع . وموقعها بقبيلة العرب بنواحي حد كورت في حدود المنطقة الأسبانية ولم يبق لها أثر اليوم . وحد كورت كانت أيضاً مدينة عظيمة في ذلك التاريخ ثم خربت واندثرت . وقد ذكر هذه المدن كلها ياقوت في معجمه ، والبكري في مسالكه ، وابن حوقل وابن عذاري وغيرهم .

محمد بن سليمان بن عبد الله، واستمرت بأيديهم إلى أن تلاشى أمرهم بدخول العبيدين عليهم قاله ابن خلدون.

وأقام محمد بن إدريس بدار ملكه من فاس مقعداً على أريكته، وإخوته ولاة على بلاد المغرب قد ضبطوا أعمالها وسدوا ثغورها وأمنوا سبلها وحسن سيرتهم في ذلك إلى أن كان ما ذكره.

حدوث الفتنة بين بنى إدريس

ثم خرج على محمد بن إدريس أخوه عيسى بن إدريس بمدينة آزمور ونبد طاعته وطلب الأمر لنفسه، فكتب محمد إلى أخيه القاسم صاحب طنجة يأمره بحرب عيسى فامتنع من ذلك، فكتب محمد إلى أخيه عمر صاحب تيكساس بمثل ما كتب به إلى القاسم فامثل أمره وزحف إلى عيسى في قبائل البرير وأمده محمد بآلف فارس من زنانة فأوقع عمر عيسى وهزمه وطرده عن عمله، وكتب إلى الأمير محمد بالفتح، فشكراه على ذلك وولاه على ما فتحه من عمل عيسى وأمره مع ذلك بالمسير إلى قتال القاسم الذي عصى أمره أولاً، فزحف عمر إلى القاسم ونزل عليه بظاهر طنجة فخرج إليه القاسم ودارت بينهما حرب شديدة هزم فيها القاسم واستولى عمر على ما بيده من البلاد، فصار الريف البحري كله في عمل عمر من تيكساس وببلاد غمارة إلى سبتة ثم إلى طنجة وهذا ساحل البحر الرومي، ثم ينبعطف إلى آصيلا والعرایش ثم إلى سلا ثم آزمور وببلاد تامسنا وهذا ساحل البحر المحيط. وتزهد القاسم بعد هذه الحرب فيبني مسجداً بساحل البحر قرب آصيلا بموضع يعرف بناهارات على ضفة النهر هناك، وأعرض عن الدنيا وأقام بعد الله إلى أن مات رحمة الله.

وانتشرت ولاية عمر بن إدريس وخلقت طويته لأخيه محمد الأمير إلى أن توفي عمر بموضع يعرف بفتح الفرس من بلاد صنهاجة في دولة أخيه محمد

سنة عشرين ومائتين، فحمل إلى فاس وصلى عليه الأمير محمد ودفن مع أبيه (وعمر هذا هو جد الأشراف الحمويين المالكين للأندلس بعد بنى أمية). وعقد الأمير محمد على عمله لولده علي بن عمر إلى أن كان من أمره ما ذكره. وأما عيسى فيقال إنه توفي بآيت عتاب وله بها ذرية والله أعلم.

وفاة محمد بن إدريس رحمة الله

وأقام الأمير محمد بن إدريس بعد وفاة أخيه عمر سبعة أشهر وتوفي بمدينة فاس في ربيع الثاني سنة إحدى وعشرين ومائتين ودفن بشرقى جامعها مع أبيه وأخيه بعد أن عهد بالأمر لابنه علي بن محمد المعروف بحيدرة على ما سيأتي.

الخبر عن دولة علي بن محمد بن إدريس

لما توفي محمد بن إدريس بايع الناس لابنه علي بن محمد بعهد منه إليه، ويلقب علي هذا بحيدرة على لقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو جد الأشراف العلميين - أهل جبل العلم - ومنهم المشيشيون أولاد مولانا عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه، والوزانيون أولاد مولانا عبد الله الشريف، وينتهي نسب هؤلاء إلى المولى يملح بن مشيش أخي المولى عبد السلام بن مشيش.

وكان سن علي حيدرة يوم بويع تسع سنين وأربعة أشهر فقام بأمره الأولياء والحاشية من العرب والبربر، وأحسنوا كفالته وطاعته، وكانت أيامه خير أيام.

وقال ابن أبي زرع: ظهر لعلي هذا من الذكاء والفضل ما يقتضيه شرفه ،

وسار بسيرة أبيه وجده في العدل، فكان الناس في أيامه في أمن ودعة، إلى أن توفي في شهر رجب سنة أربع وثلاثين ومائتين وعهد بالأمر لأخيه يحيى بن محمد على ما سيأتي.

الخبر عن دولة يحيى بن محمد بن إدريس

قال ابن خلدون: «قام يحيى بن محمد بن إدريس بالأمر وامتد سلطانه... وعظمت دولته وحسنت آثار أيامه واستبحر عمران فاس وبنيت بها الحمامات والفنادق للتجار وبنيت خارجها الأرياض، ورحل إليها الناس من الشغور القاصية».

وقال ابن أبي زرع: «قصد إليها الناس من الأندلس وإفريقياً وجميع بلاد المغرب».

بناء مسجد القرويين بفاس

قال ابن أبي زرع: كان موضع مسجد القرويين أرضاً بيضاء لرجل من هوارة كان والده قد حازها أيام بناء فاس، ولما قدم وفد القيروان على إدريس الأصغر - حسبما تقدم - كان فيهم امرأة اسمها فاطمة بنت محمد الفهري - وتكنى أم البنين - فنزلت في أهل بيتها بالقرب من موضع المسجد المذكور، ثم مات زوجها وإخوتها فورثت منهم مالاً جسيماً وكان من حلال، فأرادت أن تنفقه في وجوه الخير وكانت لها نية صالحة فعزمت على بناء مسجد تجد ثوابه عند الله. فاشترطت البقعة من ربها وشرعت في حفر أساس المسجد وبناء جدرانه، وذلك يوم السبت فاتح رمضان المعظم سنة خمس وأربعين ومائتين فبنته بالطابية والكدان.

وكانت الطريقة التي سلكتها في بنائه أنها التزمت أن تأخذ التراب وغيره من مادة البناء من نفس البقعة دون غيرها مما هو خارج عن مساحتها، فحفرت في أعماقها كهوفاً وجعلت تستخرج منها التراب الجيد والحجر الكدان وتبني به، وأنبطة بها بترأً يستقى منها الماء للبناء والشرب وغير ذلك وكان ذلك كله تحرياً منها أن لا تدخل في بناء المسجد شبهة فعادت بركة نيتها وورعها على المسجد المذكور حتى كان منه ما ترى.

قالوا ولم تزل فاطمة المذكورة صائمة من يوم شرع في بنائه إلى أن تم وصلت فيه شكرأً لله تعالى.

وكانت مساحة المسجد يوم بني أربع بلاطات وصحناً صغيراً، وجعلت محرابه في موضع الشريا الكبري، وجعلت طوله من الغرب إلى الشرق مائة وخمسين^(١) شبراً، وبنت به صومعة غير مرتفعة بموضع القبة التي على رأس العترة اليوم.

واستمر الحال على ذلك إلى أن انقضت دولة الأدارسة، وجاءت دولة زناتة من بعدها وأداروا السور على العدوتين معاً: القرويين والأندلس وزادوا في مسجديهما زيادة كبيرة، فنقلوا الخطبة من مسجد الشرفاء إلى مسجد القرويين، ومن مسجد الأشياخ إلى مسجد الأندلس، وذلك صدر المائة الرابعة.

ثم لئن استولى عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس على فاس وببلاد العدوة استعمل على فاس عاماً له اسمه أحمد بن أبي بكر الزناتي ثم اليفرني فاستأذن الناصر في إصلاح مسجد القرويين والزيادة فيه فأذن له، ويعث إليه بممال من خمس الفنانيم، فزاد فيه زيادة بينة، وأزال الصومعة القديمة عن موضعها وبنى الصومعة الموجودة الآن، وكتب على بابها في مربعة بالجص واللازورد: (هذا ما أمر به أحمد بن أبي بكر الزناتي هداه

(١) وذلك نحو خمسة وثلاثين متراً.

الله ووفقه، ابتغاء ثواب الله وجزيل إحسانه).

وابتدأ العمل في هذه الصومعة يوم الاثنين غرة رجب سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وفرغ من بنائها في شهر ربيع الآخر سنة خمس وأربعين وثلاثمائة.

وركب في أعلى المئارة سيف الإمام إدريس بن إدريس تبركاً به، وذلك أن بعض حفدة إدريس رحمة الله تنازعوا في السيف المذكور، وأراد كل أن يحوزه لنفسه، فقال لهم الأمير أحمد بن أبي بكر: «هل لكم في أن تباعوني هذا السيف؟» قالوا: «وما تصنع به؟» قال: «أجعله في أعلى المئارة» فقالوا: «أما إذا أردت هذا فتحن نبه لك مجاناً» فوهبوا له فركبه في أعلى المئارة. وكانت مبنية من الحجر المنجور وفيها ثقب يعيش فيها الطير من الحمام والزرزور وغيرهما، ويتأذى المسجد والناس بها، واستمر الحال على ذلك إلى أن كانت سنة ثمان وثمانين وستمائة، أيام السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني، فاستأذن القاضي أبو عبد الله بن أبي الصبر السلطان يوسف المذكور في تلبيس المئارة وتبييضها فأذن له فلبسها وبيضاها ودلّكها حتى صارت كالمرأة الصقيلة.

وقال ابن خلدون: «ثم أوسع في خطة المسجد المذكور المنصور بن أبي عامر صاحب الأندلس، وأعد له السقاية والسلسلة بباب الحفة، ثم أوسع في خطته علي بن يوسف اللتواني، ثم ملوك الموحدين وبني مرин، واستمرت العمارة به وانصرفت همهمهم إلى تشييده والمنافسة في الارتفاع به، فبلغ الاحتفال فيه ما شاء حسبما هو مذكور في تواريخ المغرب» اهـ.

وفي أيام يحيى بن محمد صاحب الترجمة وذلك في سنة سبع وثلاثين ومائتين، قام رجل مؤذن بناحية تلمسان يدعى النبوة، وتأول القرآن على غير وجهه، فاتبعه خلق كثير من الغوغاء.

وكان من بعض شرائعه أنه ينهى عن قص الشعر وتقليم الأطفال وتنف الإبطين والاستحداد وأخذ الزينة، ويقول: «لا تغيير لخلق الله» فأمر أمير

تلمسان بالقبض عليه فهرب وركب البحر من مرسى هنين^(١) إلى الأندلس فشاع بها أيضاً خبره وتبعه من سفهاء الناس أمة عظيمة فبعث إليه ملك الأندلس فاستتابه فلم يتبع فقتله وصلبه، وهو يقول: «أقتلون رجلاً أن يقول ربى الله».

الخبر عن دولة يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس

لما توفي يحيى بن محمد الذي بني مسجد القرويين في أيامه ولد الأمر من بعده ابنه يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس، فأساء السيرة وكثُر عيشه في الحرم ودخل على جارية من بنات اليهود في الحمام - وكانت بارعة في الجمال - فراودها عن نفسها فاستغاثت وبادر الناس إليه بالإنكار وثبتت العامة عليه، وتولى كبر ذلك عبد الرحمن بن أبي سهل الجذامي وكانت زوجة يحيى المذكور - وهي عاتكة بنت علي بن عمر بن إدريس صاحب الريف والسوائل - وأشارت عليه بالاختفاء بعدوة الأندلس ريثما تسكن الفتنة، فتوارى بها فمات من ليلته أسفًا على ما صنع بنفسه وما وقع فيه من العار.

واستولى عبد الرحمن بن أبي سهل على فاس وقام بأمرها، فكتبت عاتكة بنت علي إلى أبيها تعلمه بالخبر، واستدعاه مع ذلك أهل الدولة من العرب والبربر والموالي فجمع حشمه وجيشه وجاء إلى فاس فاستولى عليها.

وانقطع الملك من عقب محمد بن إدريس وصار بعد هذا تارة يكون في عقب عمر بن إدريس صاحب الريف، وتارة يكون في عقب القاسم بن إدريس الزاهد على ما ذكره.

(١) هنين بضم أوله وفتح ثانية حصن على مرسى جيد من مراسي البحر المتوسط وقريبه بلدية يقال لها تاجورة منها كان عبد المؤمن بن علي ذكره ياقوت والبكري.

الخبر عن دولة علي بن عمر بن إدريس

لما دخل علي بن عمر مدينة فاس واستقر بها بايده الناس ودخلت الكافة في طاعته وخطب له على جميع منابر المغرب، واستقام له الأمر إلى أن ثار عليه عبد الرزاق الفهري - وكان من الخوارج الصفرية وأصله من وشقة بلد بالأندلس - فقام بجبال مدرونة من أعمال فاس على مسيرة يوم ونصف منها، فتبعه خلق كثير من البربر من مدرونة وغائة وغيرهم، فبني قلعة منيعة ببعض جبال مدرونة وسموها وشقة باسم بلده. قال ابن أبي زرع: «وهي باقية بتلك الناحية حتى الآن».

ثم زحف إلى قرية صفرون^(١) فدخلها وبايده كافة البربر الصفرؤنية ثم زحف بهم إلى فاس فخرج إليه علي بن عمر بن إدريس في عسكر ضخم فكانت بينهم حرب شديدة كان الظفر في آخرها لعبد الرزاق، فانهزم علي بن عمر وقتل خلق كثير من جنده وفر بنفسه إلى بلاد أوربة. فدخل عبد الرزاق مدينة فاس وملك عدوة الأندلس وخطب له بها، وامتنع منه أهل عدوة القرويين وبعثوا إلى يحيى بن القاسم الزاهد وكان ما ذكره.

الخبر عن دولة يحيى بن القاسم بن إدريس

لما فر علي بن عمر عن فاس واستولى عبد الرزاق الصفرى على عدوة الأندلس بعث أهل فاس إلى يحيى بن القاسم بن إدريس - ويعرف يحيى هذا بالعدام - فوصل إليهم فبايعوه وولوه على أنفسهم. ويحيى العدام هذا هو جد الأشراف الجوطيين بفاس فإنهم أولاد يحيى الجوطي بن محمد بن يحيى العدام، وإنما قيل له الجوطي نسبة إلى جوطة بضم الجيم وبالطاء

(١) هي مدينة صفرو الموجودة اليوم، وبينها وبين فاس ثلاثين كيلومتراً.

المهملة قرية كانت على نهر سبو بالعدوة الجنوبيّة منه، نزلها يحيى بن محمد فنسب إليها وقبره معروفة بها إلى الآن.

ولما استقل يحيى بن القاسم بالأمر قاتل عبد الرزاق حتى أخرجه من عدوة الأندلس فدخلها وبايده أهلها وجميع من نزل بها من أهل الأندلس الريضيين ريض قرطبة. واستعمل يحيى بن القاسم عليهم ثعلبة بن محارب بن عبد الله الأزدي من ولد المهلب بن أبي صفرة وهو ربيسي أيضاً، فلم يزل والياً على عدوة الأندلس إلى أن توفي، فاستعمل يحيى مكانه ولده عبد الله بن ثعلبة المعروف بعبيود إلى أن توفي أيضاً فاستعمل الأمير يحيى مكانه ولده محارب بن عبود بن ثعلبة.

وخرج الأمير يحيى بن القاسم إلى قتال الصفرية فكانت له معهم حروب ووقائع كثيرة، ولم يزل أميراً على فاس وأعمالها إلى أن اغتاله الربيع بن سليمان سنة ثلاثين وتسعين ومائتين. وكانت في أيام هؤلاء الأمراء أحداث نذكرها:

ففي سنة ثلاثة وخمسين ومائتين كان ببلاد العدوة والأندلس قحط شديد نضبت منه المياه واستمر إلى سنة ستين.

وفي سنة أربع وخمسين كسف القمر كله من أول الليل حتى أصبح ولم ينجل.

وفي سنة ستين ومائتين عم القحط والغلاء جميع بلاد الأندلس والمغرب وإفريقية ومصر والحجاز حتى رحل الناس عن مكة إلى الشام ولم يبق بها إلا نفر يسير مع سدنة الكعبة، ثم كان بالمغرب والأندلس وباء عظيم مع غلاء في الأسعار وعدمت الأقوات فهلك خلق كثير.

وفي سنة ست وستين ومائتين كانت بالسماء حمرة شديدة من أول الليل إلى آخره لم يعهد قبلها مثلها، وذلك ليلة السبت لتسع بقين من صفر من السنة المذكورة.

وفي سنة سبع وستين ومائتين في يوم الخميس الثاني والعشرين من

شوال منها كانت زلزلة عظيمة لم يسمع بمثلها تهدمت منها القصور وانحاطت منها الصخور من الجبال، وفر الناس من المدن إلى البرية من شدة اضطراب الأرض، وتساقطت السقوف والجיטان، وفرت الطيور عن أوكرارها وماجت في السماء زماناً حتى سكتت الزلزلة، وعمت هذه الرجمة جميع بلاد الأندلس سهلها وجبالها وجميع بلاد العدوة من تلمسان إلى طنجة، ومن البحر الرومي إلى أقصى المغرب، إلا أنها لم يمت فيها أحد لطفاً من الله تعالى بخلقه.

وفي سنة ست وستين ومائتين طبقة الفتنة جميع آفاق الأندلس والمغرب وإفريقية.

وفي سنة خمس وثمانين ومائتين كانت المجاعة الشديدة التي عمّت جميع بلاد الأندلس وببلاد العدوة حتى أكل الناس بعضهم بعضًا ثم عقب ذلك وباء ومرض وموت كبير هلك فيه من الخلق ما لا يحصى، فكان يدفن في القبر الواحد عدد من الناس لكتلة الموتى وقلة من يقوم بهم، وكانوا يدفنون من غير غسل ولا صلاة والأمر الله وحده.

الخبر عن دولة يحيى بن إدريس

لما قتل يحيى العدام في التاريخ المتقدم ولـي الأمر من بعده يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس، فباعيه أهل عدوة فاس وخطب له بهما، وأمتد ملـكه على جميع أعمال المغرب، وخطب له على سائر منابرـه.

وكان يحيى هذا واسطة عقد البيت الإدريسي: أعلامـهم قدرـاً وأبعـدهـم ذـكراً وأكـثـرـهم عـدـلاً وأغـزـرـهم فـضـلاً وأوسـعـهم مـلـكاً، وـكـانـ فـقـيـها حـافـظـاً للـحـدـيـثـ ذـاـ فـصـاحـةـ وـبـيـانـ، بـطـلـاًـ شـجـاعـاًـ حـازـمـاًـ ذـاـ صـلاحـ وـدـينـ وـورـعـ.

قال ابن خلدون: «لم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه في الدولة والسلطان إلى أن طما على ملـكه عـبـابـ العـيـدـيـنـ القـائـمـيـنـ بـإـفـرـيقـيـةـ فـأـغـرـقـهـ».

استيلاء العبيديين من الشيعة على المغرب الأقصى وقدوم قائدتهم مصالحة بن حبوس إلى فاس

قد قدمنا عند ذكر ولاة المغرب أن إبراهيم بن الأغلب كان آخرهم، وأنه أورث بإفريقيا ملكاً لبنيه فاستمرت دولتهم بها إلى أواخر المائة الثالثة، وانقرضت على يد أبي عبد الله المحتسب داعية العبيديين من الشيعة، فإن المحتسب حج في بعض السنين واجتمع بمكة بحجاج كثامة من أهل المغرب فتعرف إليهم، ووعدهم بظهور المهدي من آل البيت على يدهم، ويكون لهم به الملك والسلطان، فتبعوه على رأيه وصحبهم إلى بلادهم ورأساً منهم رئاسة دينية وقرر لهم مذهب الشيعة فاتبعوه وتمسكوا به، ثم بايعوا مولاهم عبيد الله المهدي أول خلفاء العبيديين فاستولى على إفريقيا في خبر طويل.

ثم سمت همته إلى تملك المغرب الأقصى فأغراه قائد مصالحة بن حبوس المكناسي صاحب تاهرت والمغرب الأوسط، فزحف مصالحة إلى المغرب الأقصى سنة خمس وثلاثمائة وانتهى إلى فاس فبرز إليه يحيى بن إدريس لمدافعته في جموع العرب والبربر والموالي، والتلقوا بقرب مكناسة فأنهزم يحيى وعاد مفلولاً إلى فاس، ثم تقدم مصالحة إلى فاس وحاصرها إلى أن صالحه يحيى على مال يؤديه إليه، وعلى البيعة لعبيد الله المهدي فقبل يحيى الشرط وخرج عن الأمر وأنفذ بيته إلى المهدي وأبقى عليه مصالحة في سكني فاس وعقد له على عملها خاصة، وعقد لابن عممه موسى بن أبي العافية المكناسي على ما سوى ذلك من بلاد المغرب.

وكان موسى هذا صاحب تسول وببلاد تازا وكان كبير مكناسة بالمغرب الأقصى على الإطلاق، وكان قد خدم مصالحة حين قدم المغرب وتعرف إليه وهاده وقاتل معه في جميع حروبه بالمغرب، فحسنت منزلته لديه وولاه بلاد المغرب كلها عدى فاساً وأعمالها فإنه تركها للأمير يحيى كما قلنا.

وصار المغرب الأقصى في ملكة العبيدين واندرجت دولة الأدارسة في دولتهم. فكان موسى بن أبي العافية بعد ذهاب مصالحة كلما أراد الظهور بالمغرب والاستبداد به غمره يحيى بن إدريس بحسبه ونسبه وفضله ودينه، فقطع به كلما كان يريد فكران على قلب موسى منه حمل ثقيل. فلما قدم مصالحة المغرب في كرتة الثانية - وذلك سنة تسع وثلاثمائة - سعى موسى بن أبي العافية عنده بيحبي بن إدريس حتى، أوغر صدره عليه! فلما قرب مصالحة من فاس خرج إليه يحيى للقاءه والسلام عليه في جماعة من وجوه دولته، فقبض مصالحة عليهم وقיד يحيى بالحديد وتقدم إلى فاس فدخلها ويحيى بين يديه موثقاً على جمل، ثم عذبه بأنواع العذاب حتى استصفى أمواله وذخائره، ثم نفاه إلى نواحي آصيلاً وقد ساءت حاله وانقض جمعه. فأقام عندبني عمه ببلاد الريف مدة فأعطيه مالاً ووصلوه بما يقيم به أوده ويستعين به على أمره، فلم يرض ذلك وارتحل عنهم يريد إفريقية فعرض له موسى بن أبي العافية في طريقه فقبض عليه وسجنه بمدينة لكاي^(١) قريباً من عشرين سنة ثم أطلقه بعد ذلك. قالوا: وكان أبوه إدريس بن عمر قد دعا عليه أن يميته الله جائعاً غريباً، فاستجيب له فيه. فخرج يحيى من سجن ابن أبي العافية إلى إفريقية وهو في فقر وذلة قد بلغ سوء الحال منه كل مبلغ، فوصل إلى المهدية على تلك الحال فوافت بها فتنة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى وحصاره إياها فمات بها جائعاً غريباً سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة رحمه الله.

(١) الذي في البكري لكاي بدون همزة، فليحرر.

عود المغرب الأقصى إلى الأدارسة وظهور الحسن الحجام بن محمد بن القاسم بن إدريس

لما قبض مصالحة على يحيى بن إدريس واستصفى أمواله - كما قلنا - استعمل على فاس ريحان الكتامي وعاد إلى القิروان، فأقام ريحان عاملاً على فاس وأحوازها نحو ثلاثة أشهر، وثار عليه الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف بالحجام، وعرف بذلك لأنه كان بينه وبين عمه أحمد بن القاسم بن إدريس حرب فحمل الحسن على فارس من أصحاب عمه فطعنه في موضع المحاجم، ثم فعل ذلك بثان وثالث لا يطعنهم إلا في موضع المحاجم! فقال عمه أحمد: إن ابن أخي الحجام، فلزميه ذلك اللقب وفي ذلك يقول بعضهم:

وسميت حجاماً ولست بحاجم ولكن لطعن في مكان المحاجم
وكانت ثورة الحجام على ريحان سنة عشر وثلاثمائة أتى إلى فاس في جمع من شيعته وأنصاره وكان مقداماً شجاعاً، فدخلها على حين غفلة من أهلها فاستولى عليها وقتل ريحان وقيل نفاه عنها. واجتمع الناس على بيته ودخل في طاعته أكثر قبائل البربر بالمغرب، وملك عدة مدن مثل مدينة لوانة وصفرون ومدين ومدائن مكناسة والبصرة. واستقام له الأمر بالمغرب إلى أن كان منه مع موسى بن أبي العافية ما ذكره.

خروج الحسن الحجام إلى قتال موسى بن أبي العافية

قال في القرطاس: وفي سنة إحدى عشرة وثلاثمائة خرج الأمير الحسن الحجام إلى قتال موسى بن أبي العافية، فالتقى معه بفحص الزاد على مقربة من وادي المطاحن ما بين فاس وتازا، فأوقع الحجام بابن أبي العافية وقعة عظيمة لم يقع في دولة الأدارسة مثلها، قتل فيها من عسكر ابن أبي العافية نحو ألفين وثلاثمائة من جملتهم ابنه منهال بن موسى بن أبي العافية، وقتل من عسكر الحجام نحو السبعمائة. ثم كانت العاقبة لموسى على الحجام فانقض عسكر الحجام وعاد مفلولاً إلى فاس، فعجل الحجام ودخل فاساً وحده وترك عسركه خارج المدينة فغدر به عامله عليها حامد بن حمدان الهمданى، ويقال الأوربى من قرى إفريقيا: دخل عليه ليلاً في داره فقيده وأخذه إليه وأغلق المدينة في وجه الجند، وطير إلى موسى بن أبي العافية يستدعيه إلى فاس وكان ما ذكره.

الخبر عن دولة آل أبي العافية المكتناسين الناسخة لدولة آل إدريس بفاس وأعمالها

كان موسى بن أبي العافية متمسكاً في هذه المدة بدعاوة العبيديين من الشيعة، فلما قبض حامد بن حمدان على الحسن الحجام واستدعي ابن أبي العافية بادر نحوه فدخل عذرة القرويين واستولى عليها، ثم قاتل أهل عدوة الأندلس حتى ملكها، فلما ملك المدينتين معاً طالب حامد بن حمدان بإحضار الحسن الحجام وقال أقتله بولدي منهال.

وكان حامد قد ندم على فعلته تلك، فدافع موسى وسوفه وكره المجاهرة بسفك دماء آل البيت، ولما جن الليل خالف حامد إلى الحسن ففك عنه قيده

وأرسله فتدلى الحسن من السور فسقط وانكسرت ساقه فتحامل حتى انتهى إلى عدوة الأندلس فاختفى بها إلى أن مات لمضي ثلث من سقطته رحمة الله وذلك سنة ثلاثة عشرة وثلاثمائة وأراد ابن أبي العافية قتل حامد بن حمدان لعدم تعكينه إياه من الحجمام ففر إلى المهدية وكانت دولة الحسن الحجام بفاس نحو ستين.

وانقرضت دولة آل إدريس من فاس وأعمالها وتداول المغرب الأقصى العبيديون أصحاب إفريقية والمروانيون أصحاب الأندلس، مرة لهؤلاء ومرة لهؤلاء، وتجددت للأدارسة دولة أخرى ببلاد الريف نذكرها عن قريب إن شاء الله.

وصفت فاس وأعمالها لابن أبي العافية وملك معها كثيراً من أعمال المغرب وبايته القبائل والأشياخ، وهو في ذلك كله متمسك بدعوة الشيعة كما قلنا فكان كالنائب عنهم بالمغرب. والله غالب على أمره.

طرد موسى بن أبي العافية آل إدريس من أعمال المغرب وحصره إياهم بحجر النسر

لما استولى موسى بن أبي العافية على فاس والمغرب شمر لطرد الأدارسة عنه فأخرجهم من ديارهم وأجلفهم عن بلادهم من شالة وأصيلا وغيرهما من البلاد التي كانت في أيديهم. ولجئوا بأجمعهم إلى قلعة حجر النسر مغلوبين على ملتهم مطرودين عن دار عزهم التي أنسها سلفهم.

وكانت قلعة حجر النسر حصناً منيعاً بناء^(١) محمد بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس، شامخاً في عنان السحاب، فنزل عليهم

(١) كان بناء هذا الحصن سنة سبع عشرة وثلاثمائة. (البكري).

موسى بن أبي العافية وشدد عليهم الحصار وأراد استئصالهم وقطع دابرهم، فعذله على ذلك أكابر دولته، وقالوا له: أتريد أن تقطع دابر أهل البيت من المغرب وتخليه منهم؟ هذا شيء لا نوافقك عليه! ولا نترك لك له! فاستحبا عند ذلك وارتحل عنهم إلى فاس، وخلف على حصارهم قائده أبا الفتح التسولي في ألف فارس، يمنعهم من التصرف وكان ذلك سنة سبع عشرة وثلاثمائة.

استيلاء موسى بن أبي العافية على تلمسان وأعمالها

لما ارتحل موسى بن أبي العافية عن حجر النسر سار إلى فاس فأقام بها أياماً، وقتل عامله على عدوة الأندلس عبد الله بن ثعلبة بن محارب بن عبود الأزدي، وولى مكانه أخيه محمد بن ثعلبة ثم عزله، وولى مكانه طوال بن أبي بزید فلم يزل عاماً عليها إلى أن خرجت فاس عن يد ابن أبي العافية.

واستعمل موسى على المغرب الأقصى ولده مدين بن موسى بن أبي العافية، وأنزله بعدوة القرقوين، ثم نهض إلى تلمسان سنة تسعة عشرة وثلاثمائة فملكتها وأعمالها، وكانت بيد الحسن بن أبي العيش من أعقاب سليمان بن عبد الله أخي إدريس الأكبر وفر الحسن إلى مدينة مليلة من جزائر ملوية وبني هناك حصناً وتحصن به، ثم زحف ابن أبي العافية إلى مدينة نكور^(١) فملكتها أيضاً، وحاصر الحسن في حصنه مدة ثم عقد له سلماً على حصنه. وكان ذلك في شعبان سنة عشرين وثلاثمائة ثم عاد إلى فاس وقد دوخ البلاد والأقطار وانتظم المغاربة الأقصى والأوسط في ملكه.

(١) نكور هذه كانت مدينة مهمة أسسها سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور الحميري كما عند البكري، وقال ابن خلدون: إن والده إدريس كان اختطها في عدوة الوادي ولم يكملها ثم كملها ابنه سعيد المذكور من بعده، وذلك في حدود سنة ثلاث وأربعين ومائة. وكانت تعرف في عهد ابن خلدون بالمزمزة.

انحراف موسى بن أبي العافية عن الشيعة إلى بني مروان وما نشأ عن ذلك

كان عبد الرحمن الناصر الأموي صاحب الأندلس قد سما له أهل في التملك على المغرب الأقصى، لما بلغه من تراجع أمر بني إدريس به وإشراف دولتهم على الهرم، فملك سبعة من يد بني عاصم القائمين بها بالدعوة الإدريسية.

ولما استولى موسى بن أبي العافية على المغرب خاطبه الناصر في القيام بدعوته ووعده الجميل على ذلك، وأثناء من بين يديه ومن خلفه حتى أجابه إلى مراده، ونقض طاعة الشيعة وخطب للناصر على منابر عمله، فاتصل الخبر بعبيد الله المهدى صاحب إفريقية، فسرح إليه قائد حميد بن يصليتين المكناسى صاحب تاهرت في عشرة آلاف فارس - وهو ابن أخي مصالحة بن حبوس المقدم الذكر - فالتحق حميد وموسى بفحص مسون فكانت بينهم حرب سجال، ثم إن حميداً بيت موسى ليلة فضرب في عسكره فانهزم موسى وأصحابه ومضى إلى عين إسحاق^(١) من بلاد تسول فتحصن بها.

وتقصد حميد إلى فاس فلما شارفها فر عنها مدين بن موسى ولحق بأبيه؛ فدخلها حميد واستعمل عليها حامد بن حمدان الهمданى. وكان في جملته ثم عاد إلى إفريقية وقد قضى إربه من المغرب وكان ذلك سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة.

ولما اتصل ببني إدريس المحصورين بحجر النسر خبر هزيمة موسى بن أبي العافية وفرار ابنه عن فاس وولادة حامد بن حمدان عليها قويت نقوسهم،

(١) عين إسحاق هي مدينة تسول قاعدة موسى بن أبي العافية وكانت كبيرة مهمة انظر ما قاله في حقها البكري.

وتطاهموا على أبي الفتح التسولي ، فنزلوا إليه وقاتلوه وهزموه ونهبوا معسكره وخرجوا إلى الفضاء بعد انحصارهم بالقلعة المذكورة أربع سنين .

ثورة أحمد بن بكر الجذامي بدعوة المرتادين بفاس وما نشأ عن ذلك

وأقام حامد بن حمدان والياً على فاس من قبل الشيعة إلى أن ثار عليه أحمد بن بكر بن عبد الرحمن بن سهل الجذامي ، وذلك عقب وفاة عبيد الله المهدي سنة اثنين وعشرين وثلاثمائة فقتل حامد بن حمدان وبعث برأسه وبولده إلى موسى بن أبي العافية ، فبعث به موسى إلى عبد الرحمن الناصر بقرطبة ، واستولى على المغرب وعادت الدعوة به إلىبني مروان .

ولما اتصل الخبر بصاحب إفريقية أبي القاسم بن عبيد الله المهدي - المتولى بعد أبيه - سرح قائد ميسوراً الخصي إلى المغرب ، فقدمه ميسور سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وخام ابن أبي العافية عن لقائه واعتتصم بحصن الگای .

وتقدم ميسور إلى فاس فحاصرها أياماً إلى أن خرج إليه أحمد بن بكر مبايعاً ، وقدم بين يديه هدية نفيسة ومالاً جليلاً ، فقبض ميسور الهدية والمال ، ثم تقبض على أحمد بن بكر وقيده وبعث به إلى المهديه .

ولما نذر أهل فاس بغدره امتنعوا عليه وأغلقوا أبوابهم دونه ، وقدموا على أنفسهم حسن بن قاسم اللواتي ، فحاصرهم ميسور سبعة أشهر ولما طال عليهم الحصار رغبوا في السلم فصالحهم على أن أعطوه ستة آلاف دينار وأنطاعاً ولبيداً وقرباً للماء وأثنائنا ، وكتبوا بيعتهم إلى أبي القاسم الشيعي وكتبوا اسمه في سكتهم وخطبوا له على منابرهم ، فقبل ميسور ذلك منهم ، وأقر عليهم حسن بن قاسم اللواتي ، وارتاح عنهم واستمر حسن عاملاً على فاس إلى أن قدم أحمد بن بكر من المهديه مطلقاً مكرماً ، فتخلى له عن ما

كان بيده وذلک في سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة، فكانت ولاية حسن بن القاسم على فاس ثمان عشرة سنة قاله في القرطاس. وقال ابن خلدون: «إن أحمد بن بكر الجذامي قدم من إفريقية سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة فسار إلى فاس وأقام بها متذمراً إلى أن وثب بعامتها حسن بن قاسم اللواتي فتخلى له عن العمل». والله أعلم.

حرب ميسور مع موسى بن أبي العافية

لما صالح ميسور أهل فاس نهض إلى حرب ابن أبي العافية فدارت بينهم حروب كان الظهور في آخرها لميسور، وأسر البوري بن موسى بن أبي العافية وغريبه إلى المهدية، وطرد موسى على أعمال المغرب إلى نواحي ملوية ووطاط وما وراءها من بلاد الصحراء ثم قفل إلى القيروان.

وقال ابن أبي زرع في كتاب القرطاس: «إنبني إدريس تولوا معظم الحروب التي دارت بين ميسور وبين ابن أبي العافية، وإنهم قاتلوا ابن أبي العافية حتى فر أمامهم إلى الصحراء» قال: «وتملك الأدارسة أكثر ما كان بيده ابن أبي العافية قائمين بدعوة الشيعة، فلم يزل ابن أبي العافية شريداً في الصحراء وأطراف البلاد التي بقيت بيده، وذلك من مدينة آكرسيف إلى مدينة نكور إلى أن قتل ببعض بلاد ملوية، وذلك سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة، وقيل: إنه قتل سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة قاله البرنسي» اهـ كلام ابن أبي زرع.

وقال ابن خلدون: «إن موسى ابن أبي العافية رجع من الصحراء إلى أعماله بالمغرب فملكها، وولى على عدوة الأندلس أبا يوسف بن محارب الأزدي» قال: «وهو الذي مدن عدوة الأندلس، وكانت حصوناً ثم زحف إلى تلمسان سنة خمس وعشرين وثلاثمائة فاستولى عليها» قال: «واستفحل أمر ابن أبي العافية بالمغرب الأقصى واتصل عمله بعمل محمد بن خرز ملك

مغراوة وصاحب المغرب الأوسط، وبشوا دعوة الأموية في أعمالها» والله أعلم.

بقية أخبار آل أبي العافية بالمغرب

قال ابن أبي زرع: «لما هلك موسى بن أبي العافية ولد ابنه إبراهيم إلى أن توفي سنة خمسين وثلاثمائة فولدي بعده ابنه عبد الله ويقال عبد الرحمن بن إبراهيم بن موسى بن أبي العافية إلى أن توفي سنة ستين وثلاثمائة فولدي عمله من بعده ابنه محمد وعليه انقرضت دولة آل أبي العافية سنة ثلاث وستين وثلاثمائة». وذكر بعض المؤرخين لأيامهم: «أنه لما توفي محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن موسى بن أبي العافية ولد ابنه القاسم بن محمد المحارب للمنتونة، فكانت بينه وبينهم حروب إلى أن غالب عليه يوسف بن تاشفين فقتلته واستأصل شافة ذرية موسى بن أبي العافية بالمغرب وكانت دولتهم مائة وأربعين سنة من سنة خمس وثلاثين إلى سنة خمس وأربعين وأربعين» اهـ ولكن دولتهم بفاس انتهت إلى قيود ميسور الشخص كما مر وبقيت رياستهم بالأطراف إلى دولة اللمنتونيين والله أعلم. وكان في هذه المدة من الأحداث ما نذكره:

ففي يوم الأربعاء التاسع والعشرين من شوال سنة تسع وتسعين ومائتين كسفت الشمس كسوفاً كلياً، وكان ذلك بعد صلاة العصر فغاب القرص كله وظهرت النجوم وأذن أكثر الناس بالمساجد للمغرب ثم تجلت مضيئه بعد ذلك ومكثت مقدار ثلث ساعة ثم غربت.

وفي سنة ثلاث وثلاثمائة كان بإفريقية والمغرب والأندلس فتن كثيرة ومجاعة عظيمة أشبهت مجاعة سنة ستين ومائتين شم وقع الموت في الناس حتى عجزوا عن دفن موتاهم.

وفي سنة خمس وثلاثمائة أحرقت النار أسواق مدينة فاس، وأأسواق

تاهرت قاعدة زناتة وأحرقت أسواق قرطبة وأرياض مكناسة من بلاد جوف الأندلس، وكان ذلك كله في شوال من السنة المذكورة فسميت سنة النار.

وفي سنة سبع وثلاثمائة كان بافريقيا والمغرب والأندلس رخاء مفرط وطاعون ووباء كثير، وفيها كانت الريح السوداء الشديدة الهبوب التي قلعت الأشجار، وهدمت الدور بفاس فتاب الناس ولزموا المساجد وارتدعوا عن كثير من الفواحش.

وفي سنة ثلات عشرة وثلاثمائة ظهر حاميم المتبنى بجبل غمارة. قال ابن خلدون: «كانت غمارة غريبة في الجهة والبعد عن الشرائع بسبب البداؤة والانتباذ عن مواطن الخير، وتبنّاً فيهم من قبيلة يقال لها محكسة حاميم بن من الله يكنى أبياً محمد، ويكنى أبوه من الله أبياً يخلف، وكان ظهوره بجبل حاميم المشتهر به قريباً من تطوان، واجتمع إليه كثير من غمارة وأقرروا بنبوته وشرع لهم شرائع وعبادات وصنع لهم قرآنًا كان يتلوه عليهم بلسانه. فمما شرع لهم صلاتان في كل يوم، واحدة عند طلوع الشمس والأخرى عند غروبها: ثلاث ركعات في كل صلاة. ويستجدون وبطون أيديهم تحت وجوهم. ومن قرائهم الذي كانوا يقرؤونه بعد تهليل يهاللون به بلسانهم: خلني من الذنوب يا من خلى النظر ينظر في الدنيا، أخرجني من الذنوب يا من أخرج يومني من بطん الحوت وموسى من البحر، ثم يقول في ركوعه آمنت بحاميم وبأبيه أبي يخلف من الله، وأمن رأسى وعقلى وما يكنه صدري وما أحاط به دمي ولحمي، وأمنت بتالية عمة حاميم أخت أبي يخلف من الله ثم يسجد - وكانت تالية هذه امرأة كاهنة ساحرة - وكان حاميم يلقب المفتري، وكانت أخته دبو كاهنة ساحرة أيضاً وكانوا يستغثشون بها في الحرروب والقحط، وفرض عليهم صوم الاثنين وصوم الخميس إلى الظهر وصوم الجمعة وصوم عشرة أيام من رمضان ويومين من شوال، ومن أفتر في يوم الخميس عمداً فكفارته أن يتصدق بثلاثة أثوراً، ومن أفتر في يوم الاثنين فكفارته أن يتصدق بثورين وفرض عليهم في الزكاة العشر في كل

شيء، وأسقط عنهم الحج والوضوء والغسل من الجنابة، وأحل لهم أكل الأثني من الخنزير، وقال: إنما حرم قرآن محمد الخنزير الذكر، وأمر أن لا يؤكل الحوت إلا بذكاة، وحرم عليهم أكل البيض وأكل الرأس من كل حيوان، فبعث إليه عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس عسيراً فالتقوا بقصر مصمودة من أحواز طنجة فقتلوه، وقتلوا أتباعه وصلبوا شلوه بالقصر المذكور، وبعثوا برأسه إلى الناصر بقرطبة، ورجع من بقي من أتباعه إلى الإسلام وذلك سنة خمس عشرة وثلاثمائة. قال ابن خلدون: «وكان لابنه عيسى بن حاميم من بعده قدر جليل في غماره».

وفي سنة سبع وعشرين وثلاثمائة ظهر ببلاد المغرب غمام كثيف دام خمسة أيام لم ير الناس فيها شمساً وكان الشخص لا يرى من الأرض فيه إلا موضع قدميه فتاب الناس وأخرجوا الصدقات فكشف الله عنهم ما بهم وسميت سنة الغمام.

وفي سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة نزل برد عظيم الواحدة منه تزن رطلاً وأكثر، قتل الطير والوحش والبهائم وكثيراً من الناس وكسر الأشجار وأفسد الشمار كان ذلك بأثر قحط شديد وغلاء عام.

وفي سنة التسع وأربعين وثلاثمائة نزل أيضاً برد كثير لم يعهد مثله كثرة قتل المواشي وأفسد الشمار، وجاءت السيول العظيمة بجميع بلاد المغرب وكان بها رعد قاصفة وبروق خاطفة، ودام ذلك أيامأً واستسقى الناس واستصحوا في هذه السنة، وفيها أيضاً كانت ريح شديدة هدمت المباني.

وفي سنة أربع وأربعين وثلاثمائة كان الوباء العظيم بالغرب والأندلس هلك فيه أكثر الخلائق.

وفي هذه المدة كان الشيخ أبو سعيد المصري المعروف بأبي سلهامة موجوداً وهو من كبار صلحاء المغرب، وقبره شهير قرب مشروع الحضر على ساحل البحر وعليه قبة عجيبة الصنعة محكمة العمل بالنقش والأصباغ والزليج الملون. قال أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في مرآة المحاسن: «كان على

رأس قبر الشيخ أبي سلهامة لوح مذهب مكتوب عليه: «هذه القبور الثلاثة التي أخفى الله تعالى فيها قبر الشيخ أبي سعيد المكنى أبي سلهامة وكانت وفاته سنة نيف وأربعين وثلاثمائة» قال أبو عبد الله المذكور: «ثم إن النصارى نزلوا مرة هناك فاقتتلعوا اللوح وذهبوا به» قال: «وكان النيف الزائد على الأربعين مسمى في اللوح ولكنني أنسيته ومع ذلك فهو لا يزيد على السبع» والله تعالى أعلم.

الخبر عن الدولة الثانية للأدارسة ببلاد الريف

هذه الدولة التي كانت للأدارسة ببلاد الريف لم تكن لهم على سبيل الاستقلال والاستبداد كما كانت لهم أولاً بفاس والمغرب، إنما كانوا فيها تحت نظر المتغلب على بلاد المغرب إما من الشيعة أصحاب إفريقية، وإما من المروانيين أصحاب الأندلس كما ستفعل عليه.

واعلم أنا قد قدمنا أنبني إدريس كانوا قد اقتسموا أعمال المغرب بعد وفاة أبيهم إدريس رحمة الله وذلك بإشارة جدتهم كنزة، وأن بلاد الريف منها كانت في سهم عمر بن إدريس، وأنه قاتل أخيه عيسى والقاسم، وأضاف أعمالهما إلى عمله، فبقيت بلاد الريف بيدبني عمر بن إدريس يتوارثونها خلفاً عن سلف، فلما انقرضت دولة آل إدريس بفاس على يد موسى بن أبي العافية انحازوا إلىبني عمهم وعشيرتهم ببلاد الريف وتحصروا بقلعة حجر النسر كما سبق.

ولما قدم ميسور الخصي من إفريقية وأجلى موسى بن أبي العافية إلى الصحراء، أقام بنو إدريس بريفهم يتداولون رياسته تحت نظر الشيعة تارة، وتحت نظر المروانيين أخرى، إلى أن انقرضت دولتهم وذهبت رياستهم من المغرب بالكلية. والله غالب على أمره.

الخبر عن رياسة القاسم كنون بن محمد بن القاسم بن إدريس

لما فر موسى بن أبي العافية أمام القائد ميسور إلى الصحراء صارت الرياسة في المغرب بعده لابني محمد بن القاسم بن إدريس. وهما: القاسم الملقب بكنون، وشقيقه إبراهيم، وهما معًا أخوان للحسن الحجام الذي تقدم ذكره، فاجتمع بنو إدريس وباعيوا القاسم المذكور، فملك أكثر بلاد المغرب إلا فاساً فإنه لم يملكتها، وكان سكانه بقلعة حجر النسر، واستمر على إمارته مقىًّا لدعوة الشيعة إلى أن توفي سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة فولى بعده ابنه أبو العيش.

الخبر عن دولة أبي العيش أحمد بن القاسم كنون

كان أبو العيش هذا فقيهاً ورعاً حافظاً للسير عارفاً بأخبار الملوك وأيام الناس وأنساب قبائل العرب والبربر شجاعاً جواداً، وكان يعرف فيبني إدريس بأحمد الفاضل وكان مائلاً إلىبني مروان.

ولما ولّي بعد أبيه قطع دعوة العبيديين في جميع عمله، وباع عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس وخطب له على جميع منابر عمله، وباعي أبو العيش كافة أهل المغرب إلى سجلماسة. وكان السواد الأعظم من أهل المغرب الأقصى لهم محبة من جانب آل إدريس وإيثار لهم لا يغون بهم بدلاً مهما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

تغلب عبد الرحمن الناصر على بلاد المغرب ومضايقته لأبي العيش بها

لما بايع أبو العيش لعبد الرحمن الناصر وخطب له اقترح عليه أن يتزل له عن طنجة ليضيفها إلى سبتة التي كان استولى عليها من قبل، فامتنع أبو العيش من ذلك فبعث إليه الناصر بالأسطول والمقاتلة، فحاصره وضيق عليه، ولما رأى أبو العيش أنه لا طاقة له بحربه أجابه إلى ما سأله ونزل له عن طنجة.

ويقي أبو العيش مع إخوته وبني عمه من الأدارسة بمدينة البصرة وأصيلا تحت بيعة الناصر وفي كنفه متسلكين بدعوه، وكانت قواد الناصر وجبوشه تجيز من الأندلس إلى العدوة، يقاتلون من خالف الأدارسة من البربر ويستألفونهم، والناصر ممد لمن عجز منهم برجاته، مقو لمن ضعف بماله، حتى ملك أكثر بلاد المغرب وبايته قبائله من زناتة والبربر، وخطب له على منابره من تاهرت إلى طنجة - ما عدا سجلماسة - فإنه قام بها في ذلك الوقت منادر البربرى .

وباييع الناصر أهل فاس فيمن بايعه من بلاد العدوة فولى عليهم محمد بن الخير المغراوى، وكان من أبسط ملوك زناتة يداً وأعظمهم شأناً وأحسنهم إلى ملوك بني أمية انحياشاً وأخلصهم طوية .

وكان لبني يفرن ومغراوة من زناتة ولاية للأمويين وتشيع لهم، وذلك بولاية عثمان بن عفان رضي الله عنه لجدهم صولات بن وزمار المغراوى الذي وفدى عليه وأسلم على يده كما سبق في أخبار الفتح والله أعلم. فسرت تلك الولاية في عقب زناتة للأمويين عموماً كما كان لصنهاجة من البربر ولاية آن علي بن أبي طالب^(١) رضي الله عنه، فأقام محمد بن الخير والياً على

(١) قال ابن خلدون: لا يعرف سبب هذه الولاية ولا أصلها (جزء ١ صفحة 195 طبع الجزائر).

مدينتي فاس نحو سنة وارتحل عنها إلى الأندلس برسم الجهاد، واستخلف عليها ابن عمه أحمد بن أبي بكر بن أحمد بن عثمان بن سعيد الزناتي وهو الذي بني صومعة مسجد القرويين سنة أربع وأربعين وثلاثمائة كما سبق. وفي سنة سبع وأربعين وثلاثمائة ولـي الناصر على مدينة طنجة وأحوازها يعلى بن محمد اليفريني فنزلها في قبائل يفرن وأمضى أمره ونهيه فيها.

هجرة أبي العيش إلى الأندلس بقصد الجهاد

لما رأى أبو العيش غالبة الناصر على بلاد العدو هانت عليه رياستها، فكتب إليه بقرطبة يستأذنه في الجهاد فأذن له، وأمر أن يبني له في كل متزل ينزله قصراً - وذلك من الجزيرة الخضراء إلى الشغر - وأن يجري له فيها ألف دينار في كل يوم ضيافة له، ومن الفرش والأثاث والطعام والشراب ما يقوم بالقصر، فلم يزل على ذلك حتى وصل إلى الشغر فكانت منازله من الجزيرة إلى الشغر ثلاثين متزلاً ومات أبو العيش رحمة الله شهيداً في جهاد الفرنج سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة.

الخبر عن دولة الحسن بن كنون

لما خرج أبو العيش من الأندلس برسم الجهاد استختلف على عمله أخاه الحسن بن كنون، وهو القاسم بن محمد بن القاسم بن إدريس، وهو آخر ملوك الأدارسة بالمغرب ولم يزل مواليًّا للمرورانيين متمسكاً بدعوتهم إلى أن كان ما ذكره.

قدوم القائد جوهر الشيعي من إفريقيا إلى المغرب واستيلاؤه عليه

لما اتصل بخليفة الشيعة - وهو المعز لدين الله معد بن إسماعيل العبيدي، غلبة الناصر على بلاد العدوة وأن جميع من بها من قبائل زناته والبربر رفضوا دعوتهم ودخلوا في دعوةبني أمية، عظم الأمر عليه، وبعث قائده جوهر بن عبد الله الرومي - المعروف بالكاتب - في جيش كثيف يشتمل على عشرين ألف فارس من قبائل كتامة وصنهاجة وغيرهم، وأمره أن يطأ بلاد المغرب ويدللها ويستنزل من بها من الثوار ويسد وطأته عليهم.

فخرج جوهر من القيروان سنة سبع وأربعين وثلاثمائة يوم بلاد المغرب فاتصل خبره بيعلى بن محمد اليفرنى صاحب طنجة وخليفة الناصر على بلاد العدوة، فحشد قبائل زناته ونهض إلى القائد جوهر فكان اللقاء على تاهرت، فالتحمت الحرب بين الفريقين فأخرج القائد جوهر الأموال ويدلّلها في قواد كتامة فضمنوا له قتل أمير زناته يعلى بن محمد، فلما اشتد القتال صممت عصابة من قواد كتامة وأنجادها وقصدوا إلى يعلى بن محمد فقتلوه واحتزوا رأسه وأتوا به إلى جوهر فبذل لهم مالاً جليلًا بشارة عليه وبعث بالرأسم إلى مولاهم المعز فطيف به بالقيروان.

وذكر ابن خلدون أن يعلى بن محمد بادر إلى لقاء جوهر عند قدومه وأذعن له وبايعه فأظهر جوهر القبول ثم دس إليه من اغتاله وتفرق بنو يفرن وزناته بعد مقتل أميرهم، وبعد مدة التأم ملكهم على ولده يدو بن يعلى بن محمد اليفرنى .

ثم تقدم جوهر إلى سجلماسة، وكان قد قام بها محمد بن الفتح بن ميمون بن مدرار المعروف بالشاكر لله، وقد تقدم لنا أنه ادعى الخلافة وتسمى بأمير المؤمنين وضرب السكة باسمه وكتب عليها «تقدست عزة الله» وكانت سكته تعرف بالشاكرة وكانت في غاية الطيب، وكان سنيناً مالكي

المذهب قد خالف سلفه في مذهب الصفرية، فنزل عليه جوهر وحاصره بسجلماسة ثم اقتحمها عنوة بالسيف، وأفلت الشاكر ثم عاد بعد يومين أو ثلاثة فدخل سجلماسة متذمراً فعرف وبقى عليه وأتي به إلى جوهر فأوثقه في الحديد وساقه أسيراً بين يديه حتى نزل على فاس بعد أن أفنى حماة الصفرية ورجالها بالسيف.

وكان نزوله على فاس سنة تسع وأربعين وثلاثمائة فحاصرها وأدار بها القتال من كل جهة قريباً من نصف شهر، ثم اقتحمها عنوة بالسيف على يد زيري بن مناد الصنهاجي، فإنه تسمى أسوارها ليلاً ودخلها فقتل بها خلقاً كثيراً، وبقى على أميرها أحمد بن أبي بكر الزناتي^(١) الذي ولاه الناصر عليها، ونهب المدينة وقتل حماتها وشيوخها وسي أهلها، وهدم أسوارها وكان الحادث بها عظيماً، وكان دخول جوهر إليها ضحوة يوم الخميس الموفي عشرين من رمضان سنة تسع وأربعين وثلاثمائة.

ثم سار جوهر في بلاد المغرب يقتل أولياء المروانيين ويسبى ويفتح البلاد والمعاقل، وخفافته البربر وفرت أمامه قبائلها، فأنفذ الأمر في المغرب الأقصى ثلاثة شهراً وانتهى إلى البحر المتوسط وصاد من سمه وجعله في قلال الماء وأرسله إلى مولاه المعز، ثم انصرف راجعاً بعد أن دوخ البلاد وأثخن فيها وقتل حماتها وقطع دعوة المروانيين منها، وردها إلى العبيدلين فخطب لهم على جميع منابر المغرب، وانتهى القائد جوهر إلى المهدية - دار المعز لدين الله، وقد حمل معه أحمد بن أبي بكر اليفرني أمير فاس، وخمسة عشر رجلاً من أشياخها، وحمل أيضاً محمد بن أبي الفتح أمير سجلماسة، ودخل بهم أسارى بين يديه في أقفاص من خشب على ظهور الجمال وجعل على رؤوسهم قلائنس من ليد مستطيلة منبطة بالقرون، فطيف بهم في بلاد إفريقية وأسواق القيروان، ثم ردوا إلى المهدية وحبسو بها حتى ماتوا في سجنها.

(١) وقيل أحمد بن بكر الجنادي وهو أصح اهـ. (مؤلف).

قدوم بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي الشيعي من إفريقيا إلى المغرب

كان الأمير الحسن بن كنون قد بايع العبيديين فيمن بايعهم عند غلبة جوهر على المغرب، فلما انصرف جوهر إلى إفريقيا أواخر سنة تسع وأربعين وثلاثمائة نكث الحسن بن كنون بيعة العبيديين وعاد إلى المروانيين فتمسك بدعوة الناصر ثم بدعوة ابنه الحكم المستنصر خوفاً منهم، لا محابة فيهم، لقرب بلاده من بلادهم. وأقام على ذلك إلى أن قدم الأمير بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي من إفريقية إلى المغرب لأخذ ثار^(١) أبيه فقتل زناته واستأصلهم وملك المغرب بأسره وقطع أيضاً منه دعوة الأمويين وقتل أولياءهم وأخذ البيعة على جميع أهل المغرب للمعز معد بن إسماعيل كما فعل جوهر قبله، فكان أول من سارع إلى بيته ونصرته وقتال أولياء المروانيين معه الحسن بن كنون صاحب مدينة البصرة، وكشف وجهه في ذلك وأعمل فيه جده فاتصل خبره بالحكم المستنصر فحقد عليه لذلك.

فلما انصرف بلكين بن زيري إلى إفريقية بعث الحكم المستنصر صاحب الأندلس قائده محمد بن القاسم بن طملس في جيش كثيف إلى قتال الحسن ابن كنون، فأجاز إليه من الجزيرة الخضراء إلى سبتة في عدد كثير وعدة كاملة، وذلك في شهر ربيع الأول سنة اثنين وستين وثلاثمائة فزحف الحسن إلى قتاله في قبائل البرير، فكان اللقاء بأحواز طنجة بموضع يعرف بمحضبني مصرخ، فكانت بينهما حرب شديدة قتل فيها محمد بن القاسم قائد الحكم المستنصر وقتله خلق كثير من أصحابه، وفر الباقون فدخلوا سبتة

(١) لأن زيري بن مناد والد بلكين هذا كانت زناته قد قتلتة سنة ٣٦١ وحمل رأسه إلى الخليفة الأموي بقرطبة وهو الحكم المستنصر بن الناصر.

وتحصنا بها وكتبوا إلى الحكم يستغيثون به فبعث إليهم صاحب حرثه غالباً مولاه - البعيد الصيت المعروف بالشهامة والنجدة والدهاء - وأعطيه الحكم أموالاً جليلة وجيوشاً كثيرة، وعدداً وافراً وأمره بقتال آل إدريس واستئصالهم من معاقلهم، وقال له عند دادعه: يا غالب سر مسير من لا إذن له في الرجوع إلا حيأً منصوراً أو ميتاً معذوراً، ولا تشح بالمال وابسط يدك به يتبعك الناس.

قدوم غالب الأموي إلى المغرب وتغريب آل إدريس إلى الأندلس

ثم خرج غالب من قرطبة في آخر شوال سنة اثنين وستين وثلاثمائة فاتصل خبر قدومه بالحسن بن كنون فخاف منه وأخلى مدينة البصرة وحمل منها حرمته وأمواله وذخائره إلى قلعة حجر النسر القريبة من سبعة واتخذها معلقاً يتحصن بها، وأجاز غالب البحر من الجزيرة الخضراء إلى قصر مصمودة، فلقيه الحسن بن كنون هناك في جموع البرير، وقاتلته أياماً وسرب غالب الأموال إلى رؤساء البرير الذين مع الحسن بن كنون ووعدهم ومناهم، فانقضوا عن الحسن حتى لم يبق معه إلا خاصته ورجاله، فلما رأى ذلك سار إلى حجر النسر فتحصن به، واتبعه غالب فحاصره به ونزل عليه بجميع جيوشه وقطع عنه المواد، وأمده الحكم بعرب الدولة الذين بالأندلس ورجال الشغور، فوصل المدد إلى غالب غرة المحرم سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، فاشتد الحصار على الحسن بن كنون، فطلب من غالب الأمان على نفسه وأهله وماله ورجاله وينزل إليه فيسیر معه إلى قرطبة فيكون بها، فأجابه غالب إلى ذلك وعاهده عليه، فنزل الحسن بأهله وماله ورجاله وأسلم الحصن إلى غالب فملكه، واستنزل غالب جميع العلوبيين الذين بأرض العدوة من معاقلهم وأخرجهم عن أوطانهم ولم يترك بالعدوة رئيساً منهم.

وسار إلى مدينة فاس فملكها واستعمل عليها محمد بن أبي علي بن

فتشوش بعدها القرطبيين، وعبد الكريم بن ثعلبة بعدها الأندلس، فلم تزل فاس يهدى بنى أمية إلى أن غلب عليها زيري بن عطيه المغراوى. وانصرف غالب إلى الأندلس وساق معه الحسن بن كنون وجميع ملوك الأدارسة، وقد وطأ جميع بلاد المغرب وفرق العمال في نواحيه وقطع دعوة بنى عبيد من جميع آفاقه ورد الدعوة إلى الأموية، فخرج بهم غالب من فاس آخر رمضان سنة ثلاثة وستين وثلاثمائة ووصل إلى سبتة فركب البحر منها واستقر بالخضراء.

وكتب إلى مولاه الحكم المستنصر بالله يعلمبه بقدومه وبمن قدم معه من العلوين فلما وصل كتابه إلى الحكم أمر الناس بالخروج إلى لقائهم وركب هو في جمع عظيم من وجوه دولته، فتلقاهم فكان يوم دخولهم قرطبة يوماً مشهوداً وذلك أول يوم من المحرم سنة أربع وستين وثلاثمائة وسلم الحسن بن كنون على الحكم فأقبل عليه وعفا عنه ووفى له بعهده وأوسع له ولرجاله في العطاء وأجرى عليهم الجرایات الكثيرة وخلع عليهم الخلع الرفيعة، وأثبت جميع أهله ورجاله في ديوان العطاء وكانوا سبعمائة رجل أنجاد يعدون بسبعة آلاف وأسكنه قرطبة. وأقام الحسن وعشيرته في كنف الحكم في أمن وغبطة إلى أن كان ما ذكره.

حدوث النفرة بين الحكم والحسن والسبب في ذلك

لما استقر الحسن بن كنون وعشيرته بقرطبة تحت كنف الحكم المستنصر بالله الأموي على ما وصفناه استمر الحال على ذلك إلى سنة خمس وستين وثلاثمائة.

وكان للحسن قطعة عنبر غريبة الشكل كبيرة الحجم ظفر بها في بعض سواحله من بلاد العدوة أيام ملكه بها فسرارها منشورة يتوضدها ويرتفق بها فبلغ أمير المؤمنين الحكم خبراً عنها فسألها حملها إليه وضمها إلى ذخائره. على أن له حكمه مسمطاً، فامتنع الحسن من ذلك وأبى أن يسلمها إليه، فنكبه

عليها وسلبه جميع أمواله وسلبه القطعة أيضاً، فبقيت في خزانة الأمويين إلى أن غلب ابن حمود الإدريسي على ملك الأندلس، ودخل قرطبة واستقر بالقصر منها فألفى تلك العنبر لا زالت قائمة العين قد عقبتها الأيام حتى صارت إلى أيدي العلوية أربابها.

ولما نكب الحكم الحسن أمر بإخراجه وإخراج عشيرته من قرطبة وإجلائهم إلى المشرق، فركبوا البحر من المرية إلى تونس سنة خمس وستين وثلاثمائة، وكان قصد الحكم بتغريبهم التخفف منهم والراحة من نفقاتهم مع ما كان قومه يعذلونه عليهم فسار الحسن بن كنون وعشيرته إلى مصر فنزلوا بها على خليفة الشيعة وهو العزيز بالله نزار بن المعز العبيدي - وكان العبيديون قد ملكوا مصر يومئذ ونقلوا كرسي خلافتهم إليها - فأقبل العزيز نزار على الأدارسة وبالغ في إكرامهم ووعد الحسن النصر والأخذ بثأره من غلبه على ملك سلفه.

عود الحسن بن كنون إلى المغرب وما كان من أمره إلى مقتله وانقراض دولته

لما استقر الحسن بن كنون بمصر عند العزيز نزار أقام عنده مدة طويلة إلى أن دخلت سنة ثلاط وسبعين وثلاثمائة في أيام هشام المؤيد بالله الأموي فكتب نزار للحسن بعهده على المغرب وأمر عامله على إفريقية بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي أن يقويه بالجيوش فسار الحسن إلى بلكين فأعطاه عسكراً يشتمل على ثلاثة آلاف فارس، فاقتصر بهم بلاد المغرب فسارعت إليه قبائل البربر بالطاعة فشرع في إظهار دعوته.

واتصل خبره بالمنصور بن أبي عامر - حاجب هشام المؤيد والقائم بملكته - فبعث إليه ابن عمه الوزير أبو الحكم عمرو بن عبد الله بن أبي عامر - المعروف ب العسكرية - في جيش كثيف وقلده أمر المغرب وسائر أعماله وأمره

بقتال الحسن بن كنون فنفذ لوجهه وركب البحر إلى سبتة وخرج إلى حرب الحسن فأحاط به وحاصره أياماً، ثم أجاز^(١) المنصور بن أبي عامر ولده عبد الملك في أثر الوزير أبي الحكم في جيش كثيف مبدأ له.

فلما رأى ذلك الحسن بن كنون سقط في يده، ولم يجد حيلة فطلب الأمان على نفسه على أن يسير إلى الأندلس كمثل حالته الأولى، فأعطاه الوزير أبو الحكم من ذلك ما وثق به، وكتب إلى ابن عمه المنصور يخبره بذلك فأمر بتعجيله إلى قرطبة موكلًا به فبعث به إليه.

ولما انتهى الخبر إلى المنصور بقدوم الحسن لم يمض أمان ابن عمه، وأنفذ إليه من قتله من طريقه وأتاه برأسه، ودفن شلوه بمكان مقتله، وذلك في جمادى الأولى سنة خمس وسبعين وثلاثمائة. وركدت ريح العلوية بال المغرب، وتفرق جمعهم، وانقرضت دولتهم، وتفرقت الأدارسة في قبائل المغرب ولاذوا بالاختفاء إلى أن خلعوا شارة ذلك النسب الشريف واستحالوا صبغتهم منه إلى البداوة.

واستمر الحال إلى أن أشرفت دولة بنى أمية بالأندلس على الانقراض وكان بالأندلس رجالان من آل إدريس دخلوها في جملة البربر الذين كانوا هناك، وهم علي والقاسم ابنا حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس فطارا لهما ذكر في الشجاعة والإقدام، ثم ترقى بهم الأحوال إلى أن ورثوا خلافة الأندلس من يد الأمويين بها في خبر طويل.

ولما قتل الحسن بن كنون هبت ريح عاصف احتملت رداءه فلم يوجد بعد. قالوا: وكان الحسن هذا فطاً غليظاً قاسياً القلب، كان إذا ظفر بعدو أو

(١) قد فند المؤرخ ضوزي هذا القول في تاريخ مسلمي إسبانيا (جزء ثالث صفحة 200) وقال: إن عبد الملك لم يكن له من العمر إذ ذاك إلا اثنتا عشرة سنة ولم يجز المنصور ابنه المذكور إلى المغرب إلا بعد أن حصل التفوق بينه وبين زيري بن عطية سنة 387 - أي بعد هذا الحادث بحوالي 14 سنة - أهـ.

٦٦١ سارق أو قاطع طريق أمر به فطرح من ذروة قلعته المسممة بحجر النسر فيهوي منها إلى الأرض مد البصر: يدفع الرجل بخشبة تمد إليه فلا يصل إلى الأرض إلا وقد تقطّع.

قال ابن أبي زرع: كانت مدة ملك الأدارسة بالمغرب - من يوم بويع إدريس بن عبد الله وذلك يوم الخميس السابع من ربيع الأول سنة اثنين وسبعين ومائة إلى أن قتل الحسن بن كنون وذلك في جمادى الأولى سنة خمس وسبعين وثلاثمائة - مائتي سنة وثلاث سنتين سوى شهرين تقريباً. وكان عملهم بالمغرب من السوس الأقصى إلى مدينة وهران. وقاعدة ملتهم مدينة فاس ثم البصرة. وكانت يكابدون دولتين عظيمتين: دولة العبيديين بإفريقية ودولة بنى أمية بالأندلس. وكانتا يزاجمون الخلفاء إلى ذروة الخلافة ويقعد بهم عنها ضعف سلطانهم وقلة مالهم، فكان سلطانهم إذا امتد وقوى ينتهي إلى مدينة تلمسان، وإذا اضطرب الحال عليهم وضعفوا لا يتجاوز سلطانهم البصرة وأصيلا وحجر النسر إلى أن انقضت أيامهم وانقرضت ملتهم والبقاء لله وحده.

وكان في هذه المدة من الأحداث أنه في سنة خمس وخمسين وثلاثمائة كانت ريح شديدة قلعت الأشجار وهدمت الديار وقتلت الرجال.

وفي ليلة الثلاثاء الثامن عشر من رجب منها ظهر في البحر شهاب ثاقب مائل كالعمود العظيم أضاء الليل لسطوع نوره، وأشبهت تلك الليلة ليلة القدر وقارب ضوءها ضوء النهار.

وفي هذا الشهر أيضاً كسف النيران فخسف القمر ليلة أربع عشرة منه وطلعت الشمس كاسفة في اليوم الثامن والعشرين منه.

وفي سنة إحدى وستين وثلاثمائة كان العجراد بالمغرب.

وفي سنة اثنين وستين بعدها دخل مغراوة المغرب وملكته وتعرف هذه السنة بسنة لقمان المغراوي. وفيها توفي الشيخ الفقيه الصالح الفاضل أبو ميمونة دراس بن إسماعيل وهو أول من دخل مدونة سجتون مدينة فاس

وذكر الرشاطي أن وفاته كانت سنة سبع وخمسين وثلاثمائة ولعله أصح . وفي سنة سبع وسبعين وثلاثمائة عم الجراد بلاد المغرب كلها . وفي سنة ثمان وسبعين بعدها كان الفيض الذي فاضت منه جميع أودية المغرب .

وفي سنة تسع وسبعين بعدها كانت الريح الشرقية بال المغرب ودامت ستة أشهر فأعقبت وباء عظيماً وأمراضاً كثيرة .

وفي سنة شمائلن وثلاثمائة تدارك الله عباده وكان الرخاء المفرط بال المغرب فكان الزرع لا يوجد من يشتريه لكثرته وكان الفلاحون وأصحاب الحرث يتركونه قائماً في محاقيقهم لا يحصدونه لرخصه .

الخبر عن دولة زناتة من مغراوة وبني يفرن بفاس والمغرب

ينبغي أن نقدم هنا كلاماً يكون كالتوطئة لأخبار هذه الدولة المغراوية فنقول: إن هذه الدولة لم يكن لها استقلال بالمغرب وفاس، وإنما كانت رياستها تحت نظر الأمويين بالأندلس، ثم إن مغراوة وبني يفرن قبيلتان من أعيان قبائل زناتة، وكان مغراوة ويفرن أخوين شقيقين؛ وهما ابنا يصليتين بن مسرى بن زاكيا بن ورسيلك بن الدبدبيت بن زانا وهو أبو زناتة.

وقد تقدم لنا في أخبار الفتح أن الصحابة رضي الله عنهم أسروا صولات بن وزماراً كبيراً مغراوة لذلك العهد، وبعثوا به إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه فأسلم على يده وولاه على قومه، وقيل إن صولات هاجر إلى عثمان رضي الله عنه طائعاً من غير أسر فأكرمه وولاه فكان بيت صولات بسبب هذه المزية نبيها في قومه مغراوة وسائل زناتة .

ولما مات صولات ورث رياسته من بعده ابنه حفص بن صولات ثم من بعده خزر بن حفص بن صولات ثم ابنه محمد بن خزر وهو الذي غزا إدريس بن عبد الله بمدينة تلمسان وانقاد له وأجاب دعوته ودخل إدريس معه تلمسان وأصلاح شأنها وبني مسجدها حسبما نقدم الخبر عن ذلك مستوفى ثم

لم تزل ذرية محمد بن خزر هذا توارث رياضة سلفهم من بعدهم إلى أن كان منهم في صدر المائة الرابعة أربعة إخوة وهم: محمد بن خزر وعبد الله بن خزر ومعبد بن خزر وفلفل بن خزر، وكلهم رئيس شريف في قومه ولهم أخبار مع خلفاء الشيعة بإفريقية والمروانيين بالأندلس يطول ذكرها مع أنها ليست من موضوعنا.

ولما كانت سنة تسع وستين وثلاثمائة زحف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي صاحب إفريقية بعد العبيديين إلى المغرب الأقصى، وأناخ على مديتها فاس وقتل عامليها محمد بن أبي علي بن قشوش صاحب عدوة القرويين وعبد الكريم بن ثعلبة صاحب عدوة الأندلس واستعمل عليها محمد بن عامر المكتاسي، وأجفلت ملوك زناتة من بني خزر المغاروبين وبني محمد بن صالح اليفرنيين أمامه وانحازوا جميعاً إلى سبتة.

وعبر محمد بن الخير من آل خزر البحر إلى المنصور بن أبي عامر صريحاً فخرج المنصور في عساكره إلى الجزيرة الخضراء ممداً لهم بنفسه، وعقد لجعفر بن علي بن حمدون على حرب بلكين الصنهاجي وأجازه البحر وأمده بمائة حمل من المال فاجتمعت إليك ملوك زناتة وضربوا مصافهم بساحة سبتة وجاء بلكين الصنهاجي حتى صعد جبال تطوان^(١) وتتسنم هضابها وأطل على عساكر زناتة وأهل الأندلس بساحة سبتة فرأى ما لا قبل له به ويقال إنه لما عاين ذلك قال: «هذه أفعى فغرت علينا فاهماً» وكر راجعاً على عقبه فاجتاز على مدينة البصرة وكان بها حامية أهل الأندلس وبها يومئذ عمارة عظيمة فهدمها ثم صمد إلى برغواطة ببلاد تامسنا فجاهدهم وقتل ملكهم عيسى بن أبي الأنصار^(٢)، واستولى على المغرب

(١) تطوان يعني القديمة.

(٢) راجع ما قاله ابن خلدون عند الكلام على غزو بلكين للمغرب فقد بسط القول أكثر مما هو عند المؤلف صفحة 200 من الجزء الأول من قسم تاريخ المغرب المطبوع بالجزائر.

أجمع ومحى دعوة بنى أمية من نواحيه.

ثم لما كانت سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة وقدم الحسن بن كنون الإدريسي من مصر إلى المغرب يطلب ملك سلفه انضم إليه يدو بن يعلى بن محمد بن صالح اليفريني في قومه وشايده عل مراده وسرح المنصور بن أبي عامر صاحب الأندلس إليه ابن عمه أبا الحكم الملقب عسكلاجة وانضم إليه آل خزر المغراويون وهم: محمد بن الخير الأصغر وخزرون بن فلفل بن خزر ومقاتل وزيري ابنا عطية بن عبد الله بن خزر، وانضم إليهم سائر مغراوة وظاهروا أبا الحكم عسكلاجة على شأنه في حصار الحسن بن كنون حتى طلب الأمان لنفسه حسبما استوفينا خبره آنفاً. ثم تقدم عسكلاجة إلى فاس فدخلتها واستولى على عدوة الأندلس سنة خمس وسبعين وثلاثمائة وخطب بها لبني أمية وبقي محمد بن عامر المكناسي عامل الشيعة بعدوة القرويين إلى سنة ست وسبعين وثلاثمائة فأتى أبو بياش فدخل عدوة القرويين بالسيف وقبض على محمد بن عامر المكناسي فقتله وخطب بها لبني أمية أيضاً. هكذا في القرطاس.

وقال ابن خلدون: إن المنصور بن أبي عامر عقد على المغرب بعد انصراف عسكلاجة عنه للوزير حسن بن أحمد بن عبد الوود السلمي وأطلق يده في الأموال والرجال، وأرسله إليه سنة ست وسبعين وثلاثمائة وأوصاه بالإحسان إلى مغراوة ولا سيما مقاتل وزيري ابنا عطية لحسن انحياشهم إلى المراديين وصدق طاعتهم لهم. وأغراء بيدو بن يعلى اليفريني لتعريضه في الطاعة وقيامه مع الحسن بن كنون، فنفذ الوزير حسن بن أحمد بن عبد الوود لعمله وتزل بفاس وضبط المغرب أحسن ضبط واجتمعت عليه مغراوة.

ثم هلك مقاتل بن عطية سنة ثمان وسبعين وورث رياسته على بادية قومه أخيه زيري بن عطية وحسنت صحبه للوزير حسن بن أحمد بن عبد الوود ومعاملته له.

ثم إن المنصور بن أبي عامر استدعي زيري بن عطية للوفادة عليه بقرطبة فوفد عليه وأحسن المنصور إليه ورفع منزلته ثم عاد إلى المغرب وأمره بقتل يدو بن يعلى اليفرنى فاجتمع عليه هو والوزير ابن عبد الوذود فقاتلوه فانتصر عليهم يدو بن يعلى وقتل الوزير ابن عبد الوذود.

ثم عقد المنصور بن أبي عامر لزيري بن عطية من بعده على المغرب وفاس، وكان ذلك سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة. هذا ملخص ما عند ابن خلدون في هذا الخبر، ثم حكى بعده ما يخالفه مما نذكره مبسوطاً عن قريب وتوقف في أيهما الصواب والله أعلم.

الخبر عن دولة زيري بن عطية المغراوي بفاس والمغرب

هو زيري بن عطية بن عبد الله بن خزر المغراوي وعبد الله المذكور هو أحد الإخوة الأربع من بنى خزر. قال في القرطاس: ملك على زناتة سنة ثمان وستين وثلاثمائة، فقام في المغرب بدعاوة هشام المؤيد بالله وحاجبه المنصور بن أبي عامر، وذلك بعد انقراض دولة الأدارسة منه وبني أبي العافية المكناسيين فغلب زيري أولاً على جميع بوادي المغرب ثم ملك مدineti فاس بعد عسكلاجة وأبي بياش: دخلها سنة سبع وسبعين وثلاثمائة فاستوطنها وصبرها دار ملكه واستقام له أمر المغرب فعلاً قدره وقوى سلطانه وارتفع شأنه وهو في ذلك متمسك بدعوة بنى مروان أصحاب الأندلس. والله غالب على أمره.

حديث أبي البهار الصنهاجي مع المنصور ابن أبي عامر وما نشأ عن ذلك

كان أبو البهار بن زيري بن مناد الصنهاجي قد خالف على ابن أخيه منصور بن بلکین ابن زيري بن مناد الصنهاجي أمير إفريقية وظهور الدولة العبيدية وخلع دعوة الشيعة ومال إلى دعوة المروانيين وغلب على المهدية وتونس وشلشال^(١) وتلمسان ووهران وشلف وكثير من بلاد الزاب، وخطب للمؤيد وحاجبه المنصور بن أبي عامر وبعث بيعته إليهم وذلك في سنة سبع وسبعين وثلاثمائة فلما وصلت بيعته إلى المنصور بن أبي عامر بعث إليه بعده على ما بيده من البلاد وبهدية وخلع وبأربعين ألف دينار، فلما قبض أبو البهار المال والهدية أقام على بيعتهم نحو الشهرين ثم خلعهم وعاد إلى العبيديين فبلغ ذلك المنصور فغاظه وكتب إلى زيري بن عطية بعده على بلاد أبي البهار وأمره بقتاله عليها، فسار إليه زيري بن عطية من فاس في جيوش لا تحصى من قبائل زناتة وغيرهم ففر أبو البهار أمامه ولحق بابن أخيه منصور بن بلکین وترك له البلاد فملك زيري بن عطية تلمسان وسائر أعمال أبي البهار فأنبغ سلطانه بال المغرب من السوس الأقصى إلى الزاب، وكتب بالفتح إلى المنصور بن أبي عامر وبعث له بهدية عظيمة فيها مائتا فرس من عتاق الخيل وخمسون جملًا مهريًا سابقة وألف درقة من جلود اللحم وأحمال كثيرة من قسي الزان، وقطوط الغالية والزرافة وأصناف الوحش الصحراوية كاللنمط وغيره وألف حمل من التمر الجيد في جنسه، وأحمال كثيرة من ثياب الصوف الرقيقة فسر بها المنصور وكافأه عليها، وكتب له بتجديد عهده على المغرب وذلك سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، وأقام زيري بن عطية بفاس وأسكن قبيله بأنحائها وبالقرب منها في قياطينهم ودفعبني يفرن عن فاس وأحوازها إلى نواحي سلا فاستولوا عليها كما سيأتي.

(١) الذي في البكري أنها شرشال بالرائى عرضًا عن اللام.

وفادة زيري بن عطية على المنصور بن أبي عامر بالأندلس

لما كانت سنة الثنتين وثمانين وثلاثمائة استدعي المنصور بن أبي عامر زيري بن عطية أن يقدم عليه بقرطبة فاستخلف على المغرب ولده المعز بن زيري وأمره بسكنى تلمسان، واستخلف على عدوة الأندلس من فاس عبد الرحمن بن عبد الكريم بن ثعلبة، وعلى عدوة القرقيبين منها علي بن محمد بن أبي علي بن قوشش، وولى قضاء المدينتين الفقيه الفاضل أبي محمد قاسم بن عامر الأزدي. وسار إلى الأندلس وقدم بين دواب عظيمة، من جملتها طائر فصيبح يتكلم بالعربية والبربرية، ودابة من دواب المسك، ومهاة وحشية تشبه الفرس، وحيوانات غريبة، وأسدان عظيمان في قفصين من حديد، وشيء كثير من التمر في غاية الكبر الواحدة منه تشبه الخيار عظماً، وحمل معه من قومه وعيده ثلاثة فارس وثلاثمائة راجل، فاحتفل المنصور لقدرمه احتفالاً عظيماً، وبرز الخاصة والعامة للقائه، وأنزله بقصر جعفر الحاجب وتوسيع له في الجرایات والإكرام ولقبه باسم الوزير وأفاض عليه أموالاً جسمية وخلعاً نفيسة، وعجل بسراحه إلى عمله بعد أن جدد له عهده على المغرب وعلى جميع ما غالب عليه منه. فعبر البحر واحتل بمدينة طنجة، فلما استقر بها وضع يده على رأسه وقال: «الآن علمت أنك لي» فاستقل ما وصله به المنصور واستيقع اسم الوزارة الذي سماه به. ولقد خاطبه به بعض رجاله فنهاه عن ذلك، وقال: «وزير من يالكع! لا والله إلا أمير ابن أميراً واعجباً لابن أبي عامر ومخرقه؛ لأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه! والله لو كان بالأندلس رجل ما تركه على حاله، وإن له هنا ليوماً» وبلغت مقالته المنصور فصر عليها أذنه، وزاد في اصطناعه إلى أن كان ما نذكره.

استيلاء يدو بن يعلى اليفرنى على فاس ومقتله

تقدمنا أن بني يفرن من أعيان قبائل زناتة، وكان يدو بن يعلى بن محمد بن صالح اليفرنى قد قام بأمر بني يفرن بعد مقتل أبيه يعلى بن محمد حين قتل جوهر الكاتب قائد الشيعة سنة سبع وأربعين وثلاثمائة فملك يدو كثيراً من بوادي المغرب واتصلت رياسته إلى هذا التاريخ.

وتقدم لنا أن مغراوة دفعوا بني يفرن إلى سلا وأحوازها فاستولوا عليها وكان الأمير يدو بن يعلى مضاهياً لزيري بن عطية في الحسب والفضل والمال.

ولما استدعا المنصور بن أبي عامر زيري بن عطية للوفادة المتقدمة أراد أن يفعل بيدو بن يعلى مثل ذلك، وكان قصده أن يمكر به لأنه كان لا يطمئن إليه اطمئنان زيري بن عطية، فأساء يدو بن يعلى إجابة المنصور، وقال: «عنتى عهد المنصور حمر الوحش تقاد للبياطرة!» فأقصر عن المنشور.

وكانت بين زيري ويدو بن يعلى منافسات ومنازعات على الرياسة بال المغرب، فكان يدو بن يعلى إذا غالب على زيري دخل مدينة فاس واستولى عليها. وإذا غالب عليه زيري أخرجه عنها وملكها وكانت الحرب بينهما سجالاً، وسئمت الرعية بفاس كثرة تعاقبهم عليها.

ثم لما سافر زيري بن عطية إلى الأندلس انتهز يدو بن يعلى الفرصة في غيبته فرحف إلى فاس ودخل منها عدوة الأندلس بالسيف في ذي القعدة سنة اثنين وثمانين وثلاثمائة وقتل بها خلقاً كثيراً من مغراوة، فلما نزل زيري بن عطية بطنجة اتصل به خبر يدو بن يعلى واستيلاؤه على فاس، فأسرع السير نحوه حتى نزل قريباً من فاس فكانت بينهما حرب شديدة هلك فيها خلق كثير من القبيلتين: مغراوة وبني يفرن إلى أن هزمه زيري واقتصر عليه فاساً عنوة فقتله ومثل به وبعث برأسه إلى المنصور بن أبي عامر بقرطبة وذلك سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة.

بناء مدينة وجدة

لما قتل زيري بن عطية يدو بن يعلى صفا له أمر المغرب ولم يبق له به منازع، وهابته الملوك ويقي الأمر مستقيماً بينه وبين المنصور في الظاهر فسمت همه إلى بناء مدينة تكون خاصة به ويقومه وأرباب دولته، فبني مدينة وجدة^(١) وشيد أسوارها وأحکم قصبتها وركب أبوابها وسكنها بأهله وحشمه، ونقل إليها أمواله وذخائره وجعلها قاعدة ملكه لكونها واسطة البلاد وثغراً للعمالتين: المغرب الأقصى والأوسط. وكان اختطاطه إليها في شهر رجب سنة أربع وثمانين وثلاثمائة. ولم يزل زيري بن عطية في علو سلطان وارتفاع شأن إلى سنة ست وثمانين وثلاثمائة ثم حدث ما ذكره.

حدث النفرة بين زيري بن عطية والمنصور بن أبي عامر وما نشأ عن ذلك

ثم فسد ما بين المنصور وبين زيري بن عطية، واتصل بالمنصور أن زيري يتنقصه ويعرض في شأنه وحجره على المؤيد، ويتكلّم فيه بالقبيح، فقطع المنصور عنه رزق الوزارة الذي كان يجريه عليه في كل سنة، ومحى اسمه من ديوانه، ونادى بالبراءة منه فعم زيري على خلافة، فقطع ذكره من الخطبة، واقتصر على ذكر هشام المؤيد، وطرد عماله من المغرب وألجمهم إلى سبعة فأنفذ إليه المنصور بن أبي عامر مولاه وأضحك الفتى في جيش عظيم وأمدده بالحمة من سائر الطبقات وأراح عليهم وأفاض عليهم الأموال للنفقات

(١) في البكري أن وجدة مدینتان مسورةتان أحدها يعلی بن بلکین الورتغفیني بعد أربعين وأربعمائة (انظر بقية كلامه في صفحة 87 طبع الجزائر).

وأنواع السلاح والكسى ، فعبر واضح البحر واستقر بمدينة طنجة فانضم إليه بعض قبائل البربر من غمارة وصنهاجة وغيرهم . وباياده على قتال زيري بن عطية ومن معه من قبائل زناتة فأفاض عليهم الخلل والأموال .

ثم أمد المنصور بمن كان معه بالأندلس من ملوك البربر النازعين عن زيري بن عطية إليه فتكاملت جيوشة وخرج بهم واضح من طنجة يوم فاساً ، فاتصل خبره بزيري بن عطية فخرج إليه من فاس في عساكر زناتة فالتحقى الجمعان بوادي زادات^(١) فكانت بينهما حروب بعد العهد بمثلها مدة من ثلاثة أشهر إلى أن انهزم واضح وقتل أكثر جيشه وفر واضح إلى طنجة فدخلها منهزاً وكتب إلى المنصور يطلب منه المدد .

وقال ابن خلدون : إن واضحاً حين بوز من طنجة وزحف إليه زيري بن عطية توافقاً ثلاثة أشهر ثم تناول واضح آصيلاً ونكور فضبطهما ، واتصلت الواقعة بينه وبين زيري ثم بيت واضح معسكر زيري بنواحي آصيلاً وهم غارون فأوقع بهم .

وخرج المنصور من قرطبة فوصل إلى الجزيرة الخضراء ثم أجاز ابنه عبد الملك المظفر بجميع عسکر الأندلس وقادها حتى بقي المنصور وحده وأمره بمحاربة زيري بن عطية فركب المظفر البحر من الجزيرة الخضراء إلى سبتة .

واتصل خبر المظفر بزيري بن عطية فخافه وأخذ في الاستعداد لملاقاته ، وكتب إلى جميع قبائل زناتة يستصرخهم فأتته الوفود من بلاد مليوية وتلمسان والزاب وسائر بوادي زناتة ، فنهض بهم إلى قتال عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر ويرز عبد الملك من طنجة ومنعه واضح الفتى في جيوش لا تحصى ، والتلى الجمعان بوادي مني من أحواز طنجة فكانت بينهم

(١) في النسخة الصحيحة من ابن خلدون وادي رداد وكذلك في مسالك البكري .

حرب أعظم من الأولى ودام القتال بينهم يوماً إلى الليل .
 وكان في عسكر زيري بن عطية غلام أسود اسمه سلام ، كان زيري قد قتل أخيه فوجد الفرصة إليه فانتهزها وضربه بسكين في نحره ثلاثة ضربات فأشواه - أي لم يصب مقتله - ومر الأسود يشتد نحو المظفر وبشره بقتل زيري فاستكذبه ، ثم سقط إليه الخبر الصحيح بأن زيري قد أثبت ، فشد عليهم عبد الملك - وهم في حال دهشة من جرح أميرهم - فهزمهم واستمرت الهزيمة على زيري وأصحابه وأئخن فيهم عبد الملك بالقتل وملك محله زيري بأسرها واحتوى على جميع ما فيها من المال والسلاح والكراع والإبل والعدة فاستولى من ذلك على ما لا يأخذة الحصر .

ومضى زيري على وجهه حتى انتهى إلى موضع يعرف بمضيق الحياة بالقرب من مكناسة فعسكر به ، واجتمع إليه الفل من قومه وعزم على الرجوع لمناجزة المظفر فاتصل الخبر بالمظفر فانتخب من عسكره خمسة آلاف فارس وقدم عليهم واضحاً الفتى ونهضوا إلى زيري بن عطية فضربوا في محلته ليلاً بمضيق الحياة وهو آمنون ، فأوقعوا بهم وقعة عظيمة أسر فيها من أشرف مغاروة نحو ألفي رجل ، وذلك في منتصف رمضان سنة سبع وثمانين وثلاثمائة فامتن عليهم عبد الملك المظفر وأركبهم معه فكانوا من جنده ، وفر زيري بن عطية في شردة من أصحابه وبيني عمه فانتهى إلى فاس فأغلق أهلها الأبواب دونه فسألهم أن يخرجوا إليه عياله وأولاده فأخرجوهم إليه . وأعطوه مع ذلك الزاد والدواب فأخذهم وانصرف إلى الصحراء فنزل بلاد صنهاجة . وكان ما ذكره إن شاء الله تعالى .

قدوم عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر مدينة فاس وما كان من شأنه بها

لما انهزم زيري بن عطية من مضيق الحية إلى الصحراء نهض عبد الملك المظفر من معسكره يوم فاساً، فدخلها يوم السبت منسلخ شوال سنة سبع وثمانين وثلاثمائة فاستقبله أهلها مستبشرين به فأحسن لقاءهم وكتب إلى أبيه المنصور بالفتح فقرأ الكتاب على منبر جامع الزهراء من قربة وعلى منابر مساجد الأندلس كلها شرقاً وغرباً وأعشق المنصور ألفاً وخمسة مملاوك وثلاثمائة مملوكة شكرأ الله تعالى وفرق أموالاً كثيرة على الفقراء وذوي الحاجات، وكتب إلى ولده المظفر بعهده على المغرب وأوصاه بحسن السيرة والعدل، فقرأ كتابه على منبر مسجد القرويين وذلك يوم الجمعة آخر ذي القعدة من السنة المذكورة.

وانصرف وأصبح إلى الأندلس واستوطن عبد الملك مدينة فاس وعدل فيها عدلاً لم يعهدوا من أحد قبله وأقام بها ستة أشهر ثم صرفه والله عنها إلى الأندلس وبعث إليها عوضاً عنه عيسى بن سعيد صاحب الشرطة، فأقام والياً عليها إلى صفر سنة تسع وثمانين وثلاثمائة فعزله المنصور عنها وعما كان ولاه من بلاد العدوة، وولى عليها وأضحك الفتى وانصرف عيسى بن سعيد إلى الأندلس من السنة المذكورة.

بقية أخبار زيري بن عطية

لما نزل زيري بن عطية ببلاد صنهاجة وجدهم قد اختلفوا على ملكهم باديس بن منصور بن بلکین بن زيري بن مناد صاحب إفريقيـة فأرسل زيري بن عطية في قبائل زناته حاشـرين، فأـنـىـنـهـمـ خـلـقـ كـثـيرـ مـغـراـوـاـ

وغيرهم فاغتنم زيري تلك الفرصة من صنهاجة فزحف إليهم وأوغل في بلادهم وهزم جيوشهم ودخل مدينة تاهرت وجملة من بلاد الزاب وملك مع ذلك تلمسان وشلف والمسيلة وأقام بها الدعوة للمؤيد، وحاصر مدينة آشير قاعدة بلاد صنهاجة وكتب إلى المنصور بن أبي عامر بذلك يسترضيه ويشرط على نفسه الرهن والاستقامة إن أعيد إلى ولايته. وبينما هو محاصر لآشير يباكرها ويرواحها بالقتال انقضت عليه جراحاته التي كان جرحه الأسود فمات منها سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة.

الخبر عن دولة المعز بن زيري بن عطية المغراوي

لما هلك زيري بن عطية اجتمع آل خزر وكافة مغراوة من بعده على ابنه المعز بن زيري فباعوه وضبط أمرهم وأقصر عن محاربة صنهاجة، وصالح المنصور بن أبي عامر وقام بدعوته ورجع إلى طاعته، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي المنصور وولي ابنه بعده عبد الملك المظفر فباعه المعز أيضاً ودعا له على منابرها، فعزل المظفر واضحأ الفتى عن فاس وسائر بلاد المغرب وصرفه إلى الأندلس وكتب إلى المعز بن زيري بعهده على فاس وسائر أعمال المغرب حواضره وبواديه وذلك سنة ثلث وتسعين وثلاثمائة وشرط له المعز أن يؤدي إليه في كل سنة مالاً معلوماً وخياراً ودرقاً يوصل ذلك إلى قربطة وأعطاه مع ذلك ولده معنصر بن المعز رهناً، وكانت نسخة كتاب العهد:

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وآلـهـ

من الحاجب المظفر سيف الدولة، دولة الإمام الخليفة هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين أطال الله بقاءه عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر إلى كافة أهل مدینتي فاس وكافة أهل المغرب سلمهم الله. أما بعد: أصلح الله

شأنكم، وسلم أنفسكم وأديانكم، فالحمد لله علام الغيوب، وغفار الذنوب
ومقلب القلوب، ذي البطش الشديد، المبدىء المعيد، الفعال لما يريد لا
راد لأمره، ولا معقب لحكمه، بل له الملك والأمر، وبيده الخير والشر إيماء
نعبد وإيماء نستعين، وإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن، فيكون، وصلى الله
على سيدنا محمد سيد المرسلين، وعلى آله الطيبين، وجميع الأنبياء
والمرسلين، والسلام عليكم أجمعين، وإن العز بن زيري بن عطية أكمله
الله تابع رسالته لدينا وكتبه، متنصلًا من هنات دفعته إليها ضرورات، ومستغفراً
من سينات حطتها من توبته حسنات، والتوبة ممحاة الذنب، والاستغفار منقذ
من العتب، وإذا أذن الله بشيء يسره، وعسى أن تكرهوا شيئاً ولكن في
خيره، وقد وعد من نفسه استشعار الطاعة، ولزوم الجادة واعتقاد الاستقامة،
وحسن المعونة وحفة المؤنة، فوليناه ما قبلكم، وعهدنا إليه أن يعمل بالعدل
فيكم، وأن يرفع أعمال الجور عنكم، وأن يعمر سبلكم، وأن يقبل من
محسنكم، ويتجاوز عن مسيئكم، إلا في حدود الله تبارك وتعالى، وأشهدنا
الله عليه بذلك، وكفى بالله شهيداً، وقد وجهنا الوزير أبي علي^(١) بن حذيم
أكرمه الله وهو من ثقاتنا، ووجوه رجالنا، ليأخذ بشأنه، ويؤكد العهد فيه عليه
بذلك وأمرناه بإشراككم فيه، ونحن بأمركم معتون، ولأحوالكم مطلعون،
وأن يقضي على الأعلى للأدنى، ولا يرضى فيكم بشيء من الأدنى^(٢)، فشقوا
بذلك واسكتناه إليه، ولم يمضن القاضي أبو عبد الله أحکامه مشدوداً ظهره بنا،
معقوداً سلطانه بسلطاننا، ولا تأخذه في الله لومة لائم، فذلك ظننا به إذ
وليناه، وأملنا فيه إذا قلدناه، والله المستعان، وعليه التكلان، لا إله إلا هو،
ولتبلغوا منا سلاماً طيباً جزيلاً. ورحمة الله وبركاته^(٣).

(١) الذي في ابن خلدون أنه أبو محمد علي بن جذلم.

(٢) في ابن خلدون «الأدنى».

(٣) زاد ابن خلدون: «كتب في ذي القعدة من سنة ست وتسعين وثلاثمائة».

ولما وصل إلى المعز بن زيري العهد بولايته على المغرب، ما عدا كورة سجل ماسة فإنها كانت لبني خزرون بن فلفل ضم نشره وثاب إليه نشاطه وبيث عماله في جميع كور المغرب وجبا خراجها، لم تزل ولايته متسترة وطاعة رعاياه منتظمة إلى أن افترق أمر الجماعة بالأندلس واختل رسم الخلافة بها فاضطررت أمر المغرب على المعز، وأقام على ذلك إلى أن هلك سنة سبع عشرة وأربعينات كما عند ابن خلدون.

وفي القرطاس: «لم تزل بلاد المغرب أيام المعز في غاية الهدنة والعافية والرخاء والأمن إلى أن توفي في جمادى الأولى سنة اثنين وعشرين وأربعينات» والله أعلم.

وأما ابنه معندر فإنه أقام بقرطبة إلى أن قامت الفتنة بالأندلس وانقرضت الدولة العاميرية فانصرف معندر إلى أبيه وعشيرةه بفاس.

وحكي في القرطاس: أنه لما كانت سنة تسعة وسبعين وثلاثمائة وتوفي عبد الملك المظفر وولي بعده أخيه عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر بعث إليه المعز بن زيري بهدية نقيسة فيها خمسون فرساً، وكان ولده معندر مرتهناً عنده بقرطبة كما قلنا، فأحضر الحاجب عبد الرحمن معندر بن المعز حين وصلت إليه هدية أبيه فخلع عليه وعلى الرسل الذين قدموه عليه بالهدية وبعث به إلى أبيه مكرماً، فجمع المعز كل فرس كان عنده وبعث به إلى قرطبة، وكان مبلغ عدد الخيول تسعمائة فرس ولم تصل من المغرب إلى الأندلس هدية أعظم منها.

الخبر عن دولة حمامة بن المعز بن عطية المغراوى

لما توفي المعز بن زيري بن عطية ولد ابن عمه حمامة بن المعز بن عطية، وليس بابن له كما زعم بعض المؤرخين وإنما هو ابن عم، وقع الانفاق في بعض الأسماء فنشأ الغلط، واستولى حمامة على عمل فاس والمغرب واستفحلا ملكه وقصده الأمراء والعلماء وأئته الوفود ومدحه الشعراء.

وكانت الدولة بالأندلس قد تداعت إلى الاحتلال، فكان ذلك من أسباب استفحال الدولة المغراوية بفاس والمغرب واستقلالها بالأمر، فكان لحمامة من الظهور ما ذكرناه إلى أن أصابته عين الكمال بمنزلة أبي الكمال على ما نذكره.

الخبر عن دولة أبي الكمال تميم بن زيري اليفرنى واستيلانه على فاس وأعمالها

قد تقدم لنا أنبني يفرن كانوا قد تحيزوا إلى نواحي سلا فاستولوا عليها وعلى مدينة شالة ثم ملكوا تادلا وما والاها من البلاد.

ثم لما كانت سنة أربع وعشرين وأربعين كان الأمير علىبني يفرن أبا الكمال تميم بن زيري بن يعلى بن محمد بن صالح اليفرنى، فزحف من سلا إلى فاس في قبائلبني يفرن ومن انصاف إليهم من زناتة، ويرز إليه حمامة في جموع مغراوة ومن إليهم، فكانت بينهم حرب شديدة أجلت عن هريرة حمامة، ومات من مغراوة أصم، واستولى تميم على فاس وأعمال المغرب، ودخلها في جمادى الآخرة من السنة المذكورة، واستباح يهود فاس فقتل منهم أكثر من ستة آلاف يهودي، وسيبي حرمهم واصطلم نعمتهم بالمرة، ولحق حمامة بوجدة فاستمد من كان هنالك من قبائل مغراوة وزناتة.

وأجاد قبائل ملوية وانتهى إلى تنس⁽¹⁾ فاستقر من هنالك من زناتة، وبعث الحاشدين في قياطينهم إلى جميع بلاد المغرب الأوسط، وكاتب من بعد عنه من رجالاتهم فاجتمع له من ذلك جمٌّ غفير، ثم زحف إلى فاس سنة تسع وعشرين وأربعين وألف فأخرج عنها أبو الكمال، ولحق بيده ومقر ملكه من شالة، وأقام بها إلى أن هلك سنة ست وأربعين وأربعين وألف، وكانت مدة استيلاته على فاس وأعمالها خمس سبعين وقيل سبع سبعين.

وكان أبو الكمال اليفري يغلب عليه الجفاء والجهل ومع ذلك فقد كان صلباً في دينه مستقيماً فيه مولعاً بجهاد برغواطة، كان يغزوهم مرتين في السنة إلى أن توفي. ولما كانت سنة الثنتين وستين وأربعين وألف قتل ابنه في حرب لمتونة جاؤوا به ليدفنوه إلى جانب قبر أبيه أبي الكمال فسمعوا من قبره تكبيراً وتشهداً كثيراً، فنبشوا قبره فألفوه لم يتغير منه شيء، ثم رأه بعض قرابته في النوم، فقال له: «ما هذا التكبير والتشهد الذي سمعناه من قبرك؟» قال: «تلك الملائكة وكلهم الله بقيري يكثرون ويهللون ويسبحون ويكون ثواب ذلك لي إلى يوم القيمة» قال: «ويم نلت ذلك؟» قال: «بجاهادي برغواطة» حكى هذا الخبر في القرطاس. والله على كل شيء قدير. وأقام حمامـة في سلطـان فـاس والمـغرب إلى إن تـوفي سـنة إـحدـى وـثـلـاثـين وأـرـبعـائـةـ وـقـيلـ غـيرـ ذـلـكـ.

(1) تنس أسسها البحريون من أهل الأندلس سنة 262 وخرابها الماء سنة نيف وعشرين وستمائة (ذكرها البكري وياقوت).

الخبر عن دولة دوناس بن حمامه ابن المعز بن عطية المغراوي

لما توفي حمامه بن المعز ولی بعده ابنته دوناس بن حمامه ويکنی أبا العطاف، واستولى على فاس وسائر ما كان لأبيه من مدن المغرب وأعماله، وخرج عليه لأول دولته ابن عمه حماد بن معنصر بن المعز بن عطية، فجرت له معه حروب وخطوب وكثرت جموع حماد وغلب على ضواحي فاس وحاصرها حصاراً شديداً، وقطع عن عدوة القرويين جريمة الوادي، واحتفر السياج^(١) المعروف بسياج حماد، ويقال إن دوناس خندق به على نفسه واستمر حماد محاصراً لفاس إلى أن هلك سنة خمس وثلاثين وأربعين، فاستقامت دولة دوناس وانفتحت أيامه. وصار الناس في هدنة ودعة ورخاء كثير.

وفي أيامه عظمت فاس وعمرت وكثرت أرباضها وقصدتها الناس والتجار من جميع النواحي، فأدار دوناس سور على أرباضها، وبنى بها المساجد والحمامات والفنادق واستبحر عمرانها، فصارت حاضرة المغرب من يومئذ، ولم يشتعل دوناس من يوم ولی إلى أن توفي إلا بالبناء والتشييد، وكانت وفاته في شوال سنة اثنين وخمسين وأربعين.

الخبر عن دولة فتوح بن دوناس المغراوي

لما توفي دوناس بن حمامه ولی بعده ابنته الفتوج بن دوناس ونزل بعده الأندلس، ونازعه الأمر أخيه الأصغر - واسمها عجيبة - وكان شهماً محرباً،

(١) هذا المحل هو المعروف اليوم بحومة السياج بفاس.

فاستولى على عدوة القرويين واستبد على أخيه، وافتراق أمر فاس وأعمالها بافتراقهما، وقامت الحرب بينهما على ساق، وبين الفتوح بعدها الأندلس قصبة منيعة بالموضع المعروف بالكدان وبين عجيسة أيضاً قصبة مثلها برأس عقبة السعتر من عدوة القرويين، وكثرت العداوة بينهما واستحكمت فكانا لا يفتران عن القتال ليلاً ونهاراً، وعظم الخوف بالمغرب وكثير الهرج وغلت الأسعار واشتدت المجائعة، وظهرت لمتونة على أطراف البلاد فملوكها والأمر لازال والحال ما حال وليس لأهل فاس شغل إلا القتال، واستمر الأمر على ذلك ثلاث سنين إلى أن بيت الفتوح عجيسة فاقتصر عليه عدوة القرويين ليلاً فقتله، واستولى على العدوتين معاً.

والفتوح بن دوناس هذا هو الذي بنى باب الفتوح من مدينة فاس بسورها القبلي وبه عرف إلى الآن، وأخوه عجيسة هو الذي بنى باب عجيسة برأس عقبة السعتر من عدوة القرويين من ناحية الجوف وبه عرف أيضاً إلى الآن، فلما ظفر الفتوح بعجيسة وقتله أمر بتغيير اسم الباب المنسوب إليه فأسقط الناس العين من عجيسة وعواضوا عنها ألف ولام فقالوا باب الجيسة قاله في القرطاس. وقال ابن خلدون: «خفقوه لكثره الاستعمال».

ولم يزل الفتوح مستولياً على فاس إلى أن دهم المغرب ما دهمه من أمر المرابطين من لمتونة، وخشي الفتوح مغبة ذلك فأخرج عن فاس وتخلى عنها وزحف صاحب القلعة بلكين بن محمد بن حماد الصنهاجي إلى المغرب سنة أربع وخمسين وأربعين ودخل فاساً واحتمل من أكابرها وأشرافها عدداً رهناً على الطاعة ووقف إلى قلعته.

الخبر عن دولة منتصر بن حماد بن منتصر بن المعز بن عطية المغراوي

لما تخلى الفتوح بن دوناس عن ملك فاس وأعمالها قام بالأمر بعده

قريبه معنصر بن حماد بن معنصر بن المعز بن عطية فبأيته قبائل مغراوة الذين بفاس وأحوازها، وذلك في رمضان سنة خمس وخمسين وأربعين. وكان معنصر ذا حزم ورأي وشجاعة وإقدام، وشغل بحرب لمتونة وكانت له عليهم الورقة المشهورة.

ثم غلب يوسف بن تاشفين على فاس وخلف عليها عامله وارتحل إلى عمارة وفتح الكثير من بلادها حتى أشرف على طنجة، ثم رجع إلى حصار قلعة فازاز. فخالفة معنصر إلى فاس وملكتها وقتل العامل ومن معه من لمتونة ومثل بهم بالحرق والصلب، واتصل الخبر بيوسف بن تاشفين وهو محاصر لقلعة فازاز فاستدعي مهدي بن يوسف الكزنائي صاحب مكناة ليستجيش به على فاس، فاستعرضه معنصر في طريقه قبل أن تتصل أيديهما، وناجزه الحرب فقضى جموعه وقتله، وبعث برأسه إلى وليه الحاجب سكوت البرغواطي صاحب سبطة.

واستصرخ أهل مكناة بيوسف بن تاشفين فسرح عساكر لمتونة إلى حصار فاس فأخذوا بمخنفها، وقطعوا المرافق عنها وألحوا بالقتال عليها حتى اشتد بأهلها الحصار، ومسهم الجد، ويرز معنصر لإحدى الراحتين فكانت الدائرة عليه، وقد في الملحمه ذلك اليوم سنة ستين وأربعين، فلم يدر ما فعل الله به سبحانه وتعالى.

الخبر عن دولة تميم بن معنصر المغراوي

لما فقد معنصر بن حماد في الملحمه التي كانت بينه وبين الل متونيين بايع أهل فاس من بعده لابنه تميم بن معنصر فكانت أيامه أيام حصار وفتنة وجهد وغلام.

وشغل يوسف بن تاشفين عنهم بفتح بلاد عمارة حتى إذا كانت سنة ثنتين وستين وفرغ من فتح عمارة صعد إلى فاس فحاصرها أياماً، ثم اقتحمتها عنوة، وقتل بها زهاء ثلاثة آلاف من مغراوة وبني يفرن ومكناة وغيرهم،

وهلك تميم بن معننصر في جملتهم حتى عجز الناس عن مواراتهم فرادى، فاتخذوا لهم الأخاديد وقبروا جماعات، وخلص من نجا من القتل منهم إلى تلمسان. قاله ابن خلدون.

وقال في القرطاس: دخل يوسف بن تاشفين مدينة فاس الدخلة الثانية الكبرى فقتل بها من مغراوة وبني يفرن في أزقتها وجوامعها ما يزيد على العشرين ألف رجل، وذلك سنة اثنين وستين وأربعين، وانقرضت دولة مغراوة من المغرب والبقاء لله وحده.

وكانت مدة دولتهم نحو مائة سنة. وفي دولتهم عظم شأن فاس وبنيت الأسوار على أرباضها وحصنت أبوابها، وزيد في مسجديها القرويين والأندلس زيادة كبيرة، واتسع الناس في أيام مغراوة في البناء، فعظمت فاس واستبحر عمرانها، وكثرت خيراتها، واتصل الأمن والرخاء جل أيامهم إلى أن ضعفت أحوالهم وجاروا على رعيتهم بأخذ أموالهم وسفك دمائهم والتعرض لحرفهم. فانقطعت عنهم المواد وكثير الخوف في البلاد، وغلت الأسعار، ويلى الله عباده بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وذلك في دولة الفتوح بن دوناس ومن بعده، فكان رؤساء مغراوة وبني يفرن يلتجون على الناس دورهم فيأخذون ما يجدون بها من الطعام، ويترusون لنسائهم وصبيانهم، ويأخذون أموال التجار فلا يقدر أحد أن يصدّهم عن ذلك.

وكان سفهاؤهم وعبيدهم يصعدون على قمة جبل العرض، فينظرون إلى الدور التي بالمدينة فإذا رأوا داراً بها دخان قصدوها وأخذوا ما وجدوا بها من طعام أو غيره، ومن تعرض لهم في ذلك قتلوا، فلما ارتكبوا هذه العظائم سلبهم الله ملكه وغير ما بهم من نعمة، ﴿الَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِم﴾ [الرعد: ١١] فسلط عليهم المرابطين فمحوا آثارهم من المغرب ونقوهم عنه بالكلية وطهروه من جورهم.

وفي أيامهم اتخاذ أهل فاس المطامير في بيوتهم للطعن والطبع لثلا

يسمع دوي الرخى فتقصد هم سفهاء مغراوة، وفيها أيضاً اتخذوا غرفاً لا مراقي لها حتى إذا كان عشى النهار صعد الرجل بأهله وعياله إليها بسلم، ثم يرفع السلم معه لثلا يدخل عليه فجأة. وكان من هذا شيء كثير.

وكان من الأحداث في هذه المدة أنه في ليلة الخميس الثالث والعشرين من رجب سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة ظهر نجم في السماء، كان في رأي العين مثل الصومعة العظيمة، طلع من جهة المشرق وتهافت جرياً فيما بين المغرب والجوف، وتطاير منه شرر عظيم فزع الناس منه واستغاثوا ربهم في صرف مكروهه عنهم.

وفي سنة الثنتين وثمانين بعدها كان الكسوف الكلي الذي أذهب جميع الفرصة.

وفي سنة خمس وثمانين وثلاثمائة كانت الريح الهائلة التي نظر الناس فيها إلى اليهائم تمر بين السماء والأرض نعمذ بالله من سخطه.

وفي سنة أربع وتسعين وثلاثمائة طلع الكوكب الوقاد وهو نجم عظيم ضخم الجرم كثير الضياء.

وفي سنة ست وتسعين وثلاثمائة طلع نجم عظيم من ذوات الأذناب شديد الارتفاع.

وفي سنة سبع وأربعين وثلاثمائة اقرضت دولة بنى أمية بالأندلس، وقامت بها دولة بنى حمود وكانت مدتها نحو سبع سنين وانقرضت أيضاً، وافترق أمر الجماعة بالأندلس، وصار إلى ذلك بها طوائف إلى أن نسخ ذلك يوسف بن تاشفين.

وفي سنة إحدى عشرة وأربعين وثلاثمائة اشتد القحط ببلاد المغرب كلها من تاهرت إلى سجل ماسة وكثير الفناء في الناس نسأل الله العافية.

وفي سنة خمس عشرة وأربعين وثلاثمائة كانت الزلزلة العظيمة بالأندلس اضطربت لها الأرض وانهارت الجبال.

وفي سنة سبع عشرة وأربعينات توفي الفقيه ابن العجوز بفاس .
 وفي سنة ثلاثين وأربعينات توفي الشيخ الفقيه أبو عمران الفاسي . قال في التلوك : «أبو عمران موسى بن عيسى بن أبي حاج الفاسي ، أصله من مدينة فاس ، ونزل بالقيروان فأخذ عن أبي الحسن القابسي ، ثم رحل إلى بغداد فحضر مجلس القاضي أبي بكر بن الطيب ، ثم عاد إلى القيروان وبها مات ثلاثة عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ثلاثين وأربعينات وكان مقدماً في الفضل والأمانة» اهـ .

انتهى الجزء الأول

وبليه الجزء الثاني

ويبدأ

بالخبر عن الدولة الصنهاجية اللمتونية المرابطية وأوليتها

فهرس الموضوعات

3	(مقدمة)
9	(ترجمة المؤلف)
59	مقدمة في فضل علم التاريخ
63	ذكر رسول الله ﷺ وخلفائه الأربعة رضي الله عنهم
73	خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه
80	خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه
90	خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه
92	فتح إفريقيا
99	خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه
104	حرب صفين
116	القول في نسب البربر وبيان أصلهم
120	القول في تقسيم شعوب البربر على الجملة
.....	الخبر عن حال البربر قبل الإسلام وذكر بعض أمصار المغرب القديمة وما
122	قيل في ذلك
127	القول في تحديد المغرب وذكر حال البربر بعد الإسلام
129	ولاية عمرو بن العاص رضي الله عنه وفتحه برقة وطرابلس
131	ولاية عبد الله بن سعد بن أبي سرح وفتحه إفريقيا
133	ولاية معاوية بن حبيج على المغرب
134	ولاية عقبة بن نافع الفهري على المغرب وبناؤه مدينة القيروان

ولاية أبي المهاجر دينار وفتحه المغرب الأوسط 136
ولاية عقبة بن نافع الثانية وفتحه المغرب الأقصى ومقتله 137
ذكر من دخل المغرب من الصحابة مرتبة أسماؤهم على حروف المعجم 141
ذكر اختلاف العلماء في أرض المغرب هل فتحت عنوة أو صلحاً أو غير ذلك 146
ولاية زهير بن قيس البلوي على المغرب ومقتل كسيلة وما يتبع ذلك 147
ولاية حسان بن النعمان على المغرب وتخربيه قرطاجنة 148
ولاية موسى بن نصیر على المغرب وفتحه الأندلس 151
ولاية محمد بن يزید على المغرب 156
ولاية إسماعيل بن عبید الله بن أبي المهاجر على المغرب 157
ولاية يزید بن أبي مسلم على المغرب 158
ولاية بشر بن صفوان على المغرب 160
ولاية عبید بن عبد الرحمن على المغرب 160
ولاية عبید الله بن الحجاج على المغرب 161
ولاية كلثوم بن عياض على المغرب ومقتله 166
ولاية حنظلة بن صفوان على المغرب 169
ذكر صالح بن طريف البرغواطي المتنبئ ومحرقته 170
الخبر عن تغلب آل عقبة بن نافع على المغرب وولاية عبد الرحمن بن حبيب منهم 172
دخول عبد الرحمن الأموي إلى إفريقيا وجوائزه إلى الأندلس وتأسيسه للدولة الأموية بها 174
استيلاء الياس بن حبيب على المغرب 176
استيلاء حبيب بن عبد الرحمن على المغرب وفتنة عاصم بن جمیل المتنبئ ومقتله 178
استيلاء عبد الملك بن أبي الجعد على المغرب 179
استيلاء عبد الأعلى بن السمع على المغرب وظهور الصفرية من آل مدرار المكتناسين وبناؤهم مدينة سجلماسة 179

183	ولادة محمد بن الأشعث على المغرب
185	ولادة الأغلب بن سالم التميمي على المغرب
186	ولادة عمر بن حفص هزارمرد على المغرب
188	ولادة يزيد بن حاتم على المغرب
190	ولادة روح بن حاتم على المغرب
192	القول في مذاهب أهل المغرب أصولاً وفروعاً وما يتبع ذلك
198	تممة مهمة
203	الخبر عن دولة آل إدريس بالمغرب الأقصى وذكر السبب في أوليتها
208	دخول إدريس بن عبد الله أرض المغرب الأقصى
211	بيعة الإمام إدريس بن عبد الله رضي الله عنه
212	غزو إدريس بن عبد الله أرض المغرب الأقصى وفتحه إليها
213	غزو إدريس بن عبد الله أرض المغرب الأوسط وفتح مدينة تلمسان
213	وفاة إدريس بن عبد الله والسبب في ذلك
216	أمر البربر بعد وفاة إدريس بن عبد الله رحمه الله
217	الخبر عن دولة إدريس بن إدريس رحمه الله
219	وفود العرب على إدريس بن إدريس رحمه الله
220	بناء مدينة فاس
225	غزو إدريس بن إدريس المغاربة واستيلاؤه عليهم
227	وفاة إدريس بن إدريس رحمه الله
228	الخبر عن دولة محمد بن إدريس رحمه الله
229	حدوث فتنة بين بني إدريس
230	وفاة محمد بن إدريس رحمه الله
230	الخبر عن دولة علي بن محمد بن إدريس
231	الخبر عن دولة يحيى بن محمد بن إدريس
231	بناء مسجد القرويين بفاس
234	الخبر عن دولة يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس
235	الخبر عن دولة علي بن عمر بن إدريس

الخبر عن دولة يحيى بن القاسم بن إدريس 235	
الخبر عن دولة يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس 237	
استيلاء العبيديين من الشيعة على المغرب الأقصى وقدوم قادتهم مصالة بن حبوس إلى فاس 238	
عودة المغرب الأقصى إلى الأدارسة وظهور الحسن الحجام بن محمد القاسم ابن إدريس 240	
خروج الحسن الحجام إلى قتال موسى بن أبي العافية 241	
الخبر عن دولة آل أبي العافية المكناسيين الناسخة لدولة آل إدريس بفاس وأعمالها 241	
طرد موسى بن أبي العافية آل إدريس من أعمال المغرب وحصره إياهم بحجر النمر 242	
استيلاء موسى بن أبي العافية على تلمسان وأعمالها 243	
انحراف موسى بن أبي العافية على الشيعة إلىبني مروان وما نشأ عن ذلك 244	
ثورة أحمد بن بكر الجذامي بدعة المروانيين بفاس وما نشأ عن ذلك 245	
حرب ميسور بن موسى بن أبي العافية 246	
بقية أخبار آل أبي العافية بالمغرب 247	
الخبر عن الدولة الثانية للأدارسة ببلاد الريف 250	
الخبر عن رياضة القاسم كنون بن محمد بن القاسم بن إدريس 251	
الخبر عن دولة أبي العيش أحمد بن القاسم كنون 251	
تغلب عبد الرحمن الناصر على بلاد المغرب ومضائقته لأبي العيش بها 252	
هجرة أبي العيش إلى الأندلس بقصد الجهاد 253	
الخبر عن دولة الحسن بن كنون 253	
قدوم القائد جوهر الشيعي من إفريقيا إلى المغرب واستيلاؤه عليه 256	
قدوم بلکین بن زيري بن مناد الصنهاجي الشيعي من إفريقيا إلى المغرب 256	
قدوم غالب الأموي إلى المغرب وتغريب آل إدريس إلى الأندلس 257	
حدوث الفرة بين الحكم والحسن والسبب في ذلك 258	
عود الحسن بن كنون إلى المغرب وما كان من أمره إلى مقتله وانقراض دولته 259	

262	الخبر عن دولة زناتة من مغراوة وبني يفرن بفاس والمغرب
265	الخبر عن دولة زيري بن عطية المغراوي بفاس والمغرب
266	حديث أبي البهار الصنهاجي مع المنصور بن أبي عامر وما نشأ عن ذلك
267	وفادة زيري بن عطية على المنصور بن أبي عامر بالأندلس
268	استيلاء يدو بن يعلى اليفرني على فاس ومقتله
269	بناء مدينة وجدة
270	حدوث التفرة بين زيري بن عطية والمنصور بن أبي عامر وما نشأ عن ذلك
272	قدوم عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر مدينة فاس وما كان من شأنه بها
272	بقية أخبار زيري بن عطية
273	الخبر عن دولة المعز بن زيري بن عطية المغراوي
276	الخبر عن دولة حمامة بن المعز بن عطية المغراوي
276	الخبر عن دولة أبي الكمال تميم بن زيري اليفرني واستيلائه على فاس وأعمالها
276	الخبر عن دولة دوناس بن حمامه بن المعز بن عطية المغراوي
278	الخبر عن دولة فتوح بن دوناس المغراوي
279	الخبر عن دولة معنصر بن حماد بن معنصر بن المعز بن عطية المغراوي
280	الخبر عن دولة تميم بن معنصر المغراوي

فهرس الأعلام والقبائل

حروف (١)

- آل أبي صفرة 181.
- آل أبي العافية 247.
- آل البيت 204 - 210.
- آل إدريس 179 - 242.
- آل الحسن بن علي 205.
- آل خزر 264.
- آل الزبير 140.
- آل العباس 190.
- آل عقبة بن نافع 166 - 178.
- آل علي بن أبي طالب 190.
- آل محمد 204.
- آل المهلب 191.
- آل موسى بن نصیر 160.
- الإيابية 163 - 178 - 164.
- إبراهيم بن الأغلب 191 - 217 - 220 - 227 - 238.
- إبراهيم بن عبد الله بن الحسن 207.
- ابن أبي معيط 105.
- ابن أبي زرع 118 - 209 - 230 - 246.
- ابن الرقيق 136 - 152.
- ابن أبي شيبة 85.
- ابن أبي زيد 192 - 194.
- ابن الأثير 112.
- ابن الأشعث 183.
- ابن بدرون 98.
- ابن بشكوال 153 - 174.
- ابن حبان 142.
- ابن حزم 117 - 123 - 123 - 182 - 195.
- ابن حمود الإدريسي 259.
- ابن حيان 167 - 175 - 177.
- ابن الخطيب 62 - 72 - 98.
- ابن خلدون (عبد الرحمن) 63 - 74 - 120 - 137 - 136 - 133 - 127 - 124 - 122 - 149 - 143 - 141 - 139 - 138 - 167 - 166 - 163 - 153 - 152 - 151 - 205 - 189 - 188 - 175 - 170 - 237 - 233 - 231 - 227 - 217 - 211 - 281 - 275 - 254 - 246 - 190 - 181 - 158 - 151.

- أبو جيدة .146.
 أبو الحسن القابسي .146.
 أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة .77.
 أبو حصين عثمان بن عاصم الكوفي .74.
 أبو الحكم عمرو بن عبد الله عسكلاجة .
 .259.
 أبو حنيفة (الإمام) .194.
 أبو خزيمة الأننصاري .78.
 أبو الخطاب المعاافري .179 - 180 - 183 - .
 .184.
 أبو الخطار .169 - 173 - .174.
 أبو الدرداء .94.
 أبو ذؤيب الهمذاني .145.
 أبو ذر .94.
 أبو رمثة البلوي .145.
 أبو زمعة البلوي .145.
 أبو سعيد المصري .249.
 أبو شيب الصدفي .152.
 أبو ضبيس البلوي .145.
 أبو طالب .67 - 66 - .67.
 أبو عبد الله الحميدي .151.
 أبو عبد الله المحتسب الشيعي .181 - .
 .238.
 أبو عبد الله المغيلي .168.
 أبو عبد الله اليفرنى .61.
 أبو عبيدة بن الجراح .73 - 79 - .80 - .84.
 أبو عبيدة بن مسعود الثقفي .80.
 أبو عمر بن عبد البر .90.
 أبو عمran الفاسي .194.
- أبن سعد .86.
 ابن سعيد .124.
 ابن شهاب .95.
 ابن عباس (عبد الله) .66 - 72 - .99 - .
 .100 - 102 - 103 - 131 - .142.
 ابن عبدون .112.
 ابن عبد البر .113 - 117 - .123.
 ابن عبد الحكم .146 - .165.
 ابن عساكر .159.
 ابن عمرو بن العاص .131.
 ابن القاسم .146.
 ابن الكلبي .117 - .123.
 ابن مسعود .85.
 ابن المسيب .82.
 ابن مصاد .140.
 ابن مندة .141.
 ابن ناجي .143.
 ابن يونس .141 - 142 - .145.
 أبو أمامة أسعد بن زرارة .69.
 أبو أيوب الأنصاري .108.
 أبو بكر الصديق .67 - 70 - 73 - .74 - .
 .75 - 77 - 78 - .79 - .80 - .85 - .86 - .
 .101 - .105 - 115 - .107 - .145.
 أبو بكرة .113.
 أبو بكر الباقلاني .114.
 أبو بكر العربي المعاافري .197.
 أبو بكر بن عياش .74.
 أبو البهار بن زيري بن مناد الصنهاجي .
 .266.
 أبو يهس الخارجي .163.

- أبو العيش أحمد بن القاسم كتون 251 -
 .253 - 252.
- أبو الفتح التسولي 243.
- أبو الفداء 64 - 90 - 112.
- أبو الفضل بن التحوي 224.
- أبو القاسم بن سمكو المكناسي 180.
- أبو القاسم بن عبيد الله المهدي 245.
- أبو القاسم بن عبيد الله بن التحبّاب 161.
- أبو قرة بن دوناس الفرنسي 185.
- أبو قيس بن الأسلت 69.
- أبو الكمال تميم بن زيري 277 - 280.
- أبو لهب 66.
- أبو المبتذر 145.
- أبو محمد الأصيلي 198.
- أبو محمد بن أبي زيد القيرواني 156.
- أبو محمد الحريري 189.
- أبو محمد المعتز بالله 182 - 183.
- أبو المهاجر دينار 136 - 137 - 139.
- أبو موسى الأشعري 91 - 94 - 100 - 105 - 107 - 108.
- أبو هريرة 74 - 82 - 85 - 143.
- أبو الهيثم مالك بن التيهان 68 - 70.
- أبو الوليد الباجي 198.
- أبو يزيد مخلد بن كيداد 239.
- أحمد بن أبي بكر الزناتي 182 - 232 - 233.
- أحمد بن إدريس بن إدريس 228.
- أحمد بن يكر الجذامي 245.
- أحمد بن القاسم بن إدريس 240.
- أحمد بن ميمون 182.
- الاحتف بن قيس 84 - 105.
- الأدارسة 194 - 232 - 241.
- أداسة (قبيلة بربرية) 121.
- إدريس بن إدريس بن عبد الله 216 - 217 - 219 - 220 - 222 - 223 - 225 - 226 - 227 - 228 - 231 - 233.
- إدريس بن عبد الله الحسني 123 - 128.
- إدريس بن عبد الله الحسني 123 - 128 - 147 - 210 - 209 - 208 - 202 - 147 - 216 - 215 - 214 - 213 - 212 - 211 - 210.
- أرداجة (قبيلة بربرية) 121.
- أرم 68.
- الأزارقة 107.
- أسامة بن زيد 75.
- إسحاق بن محمد بن عبد الحميد.
- الأوريبي 121 - 209 - 210.
- أسد بن الفرات 150.
- الإسكندر 86 - 123 - 124 - 124.
- إسماعيل (ملك المغرب) 62.
- إسماعيل بن إيان بن مروان 175.
- إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر 152 - 157 - 159 - 159 - 160 - 160 - 164 - 192 - 192.
- إسماعيل بن عبيد الله بن المرادي 161.
- أسيد بن حضير 69 - 73.
- الأشتر التخعي 105 - 106.
- الأشعث 106 - 184.
- الأشعرى (الإمام) 114.
- الأعاجم 122 - 153 - 154.
- الأعراب 89.

- الأغلب بن سالم التميمي ١٨٤ - ١٨٥ - ١٨٦
أهل اليمامة ٧٧ - ٧٨
أوريغة (قبيلة بربرية) ١٢١ - ١٢٣
أوربة ١٢١
الأوس ٦٨ - ٦٩ - ٧٠ - ٧٣
أيوب بن حبيب التخمي ١٥٦
حروف (ب)
بادس بن منصور ٢٧٢
البتر ١١٧ - ١٤٨ - ١٢١ - ١٢٠ - ١٢١ - ١٤٩ - ١٤٨ - ١٤٩
البخاري ٥٩ - ٦٤ - ٦٦ - ٦٧ - ٩٥
البراء بن مالك ٧٧
البراء بن معروف ٧٠
البرانس (قبيلة بربرية) ١١٧ - ١٢٠ - ١٢١
بر بن قيس ١١٧ - ١١٨ - ١١٩ - ١٣٠
البربر ١١٦ - ١١٧ - ١١٨ - ١١٩ - ١٢٠ - ١٢١ - ١٢٢ - ١٢٣ - ١٢٤ - ١٢٥ - ١٢٦
- ١٢٧ - ١٢٨ - ١٢٩ - ١٣٠ - ١٣٢
- ١٣٤ - ١٣٥ - ١٣٦ - ١٣٧ - ١٣٨ - ١٣٩
- ١٤٠ - ١٤١ - ١٤٢ - ١٤٣ - ١٤٤ - ١٤٥ - ١٤٦
- ١٤٧ - ١٤٨ - ١٤٩ - ١٤١ - ١٤٣ - ١٤٥ - ١٤٧
- ١٤٨ - ١٤٩ - ١٤١ - ١٤٣ - ١٤٤ - ١٤٥ - ١٤٦
- ١٤٧ - ١٤٨ - ١٤٩ - ١٤١ - ١٤٣ - ١٤٤ - ١٤٥ - ١٤٦
- ١٤٧ - ١٤٨ - ١٤٩ - ١٤١ - ١٤٣ - ١٤٤ - ١٤٥ - ١٤٦
- ١٤٧ - ١٤٨ - ١٤٩ - ١٤١ - ١٤٣ - ١٤٤ - ١٤٥ - ١٤٦
- ١٤٧ - ١٤٨ - ١٤٩ - ١٤١ - ١٤٣ - ١٤٤ - ١٤٥ - ١٤٦
- ١٤٧ - ١٤٨ - ١٤٩ - ١٤١ - ١٤٣ - ١٤٤ - ١٤٥ - ١٤٦
- ١٤٧ - ١٤٨ - ١٤٩ - ١٤١ - ١٤٣ - ١٤٤ - ١٤٥ - ١٤٦
- ١٤٧ - ١٤٨ - ١٤٩ - ١٤١ - ١٤٣ - ١٤٤ - ١٤٥ - ١٤٦
برغواطة (قبيلة بربرية) ١٢١ - ٢٦٣
البرنسى ١٣٦ - ٢٢٧

- بشير بن سعد الأنصاري .73
 بشر بن صفوان الكلبي 160 - 169.
 البكري 118 - 150 - 171.
 يكر بن عيسى القيسي 173.
 بلح بن بشر القشيري 166 - 168 - 167 - 173 - 172 - 173.
 بلکین بن زيري 256 - 259 - 259 - 263.
 بنو أبي العافية 121 - 121 - 1242.
 بنو إدريس 121.
 بنو إسرائيل 123.
 بنو أسد 76.
 بنو أمامة 118.
 بنو أمية 100 - 150 - 170 - 174 - 183.
 بنو الأغلب 150.
 بنو بكر عبد مناة 75.
 بنو حام (قبيلة) 116.
 بنو حنيفة (قبيلة) 76 - 77.
 بنو خزر (قبيلة) 132.
 بنو الخير (قبيلة) 221 - 222.
 بنو زيان 122.
 بنو زيري بن مناد 121.
 بنو سام 116.
 بنو العباس 144 - 170.
 بنو عبد شمس 113.
 بنو عبد المطلب 65 - 66 - 111 - 113.
 بنو عدي 66 - 88.
 بنو فاتن 167.
 بنو فازار 123.
 بنو فزارة 94.
- حرف (ت)**
- تسول 228.
 تماضر بنت قيس 118.
 تمريغ بنت يجدول 118.
 تميم بن معنصر 276.
- حرف (ث)**
- ثابت بن قيس 77.
 ثابت الصنهاجي 173.
 ثعلبة بن سعد 75.
 ثعلبة بن محارب 236.
 ثوبة بن سلامة 174.

حرف (ج)

- حبيب بن حبيب المهليبي .186
 حبيب بن عبد الرحمن .176 - 177 - 178 - 179 .
 حبيب بن نصر .191
 الحاجاج بن يوسف الثقفي .158
 حذيفة بن الأحوص .160
 حذيفة بن اليمان .87 - 95
 الحارث بن حبيب .141
 الحارث بن هشام .84
 حرقوص بن زهير .101
 حسان بن ثابت .69 - 84 - 98 .
 حسان بن النعمان .122 - 148 - 149 - 150 - 151 - 152 .
 الحسن بن أبي العيش .243
 الحسن البصري .113
 الحسن بن حرب الكلبي .185
 الحسن بن علي بن أبي طالب .92 - 100 - 108 - 141 - 131 - 114 - 111 .
 حسن بن قاسم اللواتي .246
 الحسن بن كنون الإدريسي .256 - 257 - 260 - 258 .
 الحسن بن محمد بن إدريس الحجام .240 - 242 - 241 .
 الحسين بن علي بن أبي طالب .92 - 141 - 131 - 100 .
 حفصة بنت عمر .78 - 83 - 89 - 95 .
 الحفصيون .151
 خطاب التميمي .87
 الحكم بن هشام الأموي .171 - 182 - 256 - 223 - 202 .
 جابر بن عبد الله .68
 جالوت .116 - 120 .
 جبلة بن عمرو .141
 جبلة بن الأبيهم .83
 جبير بن مطعم .82
 جراو بن الديديت .148 - 149 - 150 .
 جراوة (قبيلة) .148 - 150 .
 الجرجاني .117
 جرجير .93 - 117 - 132 - 132 - 153 .
 جرجير بن عبد الله .103
 جرير بن مسعود .186
 جرهد بن خوبيلد .141
 جزولة (قبيلة) .121 .
 جشم بن معاوية .128
 جندب بن عبد الله .111
 جوهر بن عبد الله الأول .182 - 255 - 256 .
 جويرية بن أسماء .158
 جيوش المسلمين .79 .

حرف (ح)

- الحافظ ابن حجر .203
 حام .116
 حامد بن حمدان .241 - 242 - 244 .
 حاميم المتنبي .249
 الحباب بن المنذر .73
 حبان بن أبي جبلة .141 - 157
 حبيب بن أبي عبيدة .100 - 162 - 165 - 172 - 166 .

- خطمة (قبيلة) .69
- خلف بن فرج السميسير .120
- خلفية بن خياط .141
- الخارج .68 - 107 - 108 - 163 - 164 - 167
- حرف (د)**
- داود عليه السلام .116 - 120
- داود بن إدريس بن إدريس .228
- داود بن عمر المطاسي .171
- داود بن القاسم الأولي .226
- داهيا الزناتية (الكافنة) .122 - 149 - 148 - 150
- دهمان بن عيلان .118
- دولة آل ساسان .95
- دولة الأدارسة .241
- دولة بنى أمية .254
- دولة الروم .85
- الدولة العباسية .174
- دولة الفرس .85
- دولة القبط .85
- دولة المرابطين .172
- الدولة المغراوية .262
- دولة دوناس بن حمامه .278
- حرف (ذ)**
- ذبيان (قبيلة) .75
- ذكون بن عبد القيس .68
- الذهبي .145 - 144
- حليمة السعدية .64
- حمداد بن معصر .279
- Hammada bin al-Muz .276 - 277 - 278
- حمزة بن عبد المطلب .77
- حمزة بن إدريس .228
- حمزة الأصبهاني .86
- حمزة بن عمرو الأسلمي .141
- حميد بن بصلتين .244
- حمير .122
- حنش بن عبد الله الصناعي .136 - 140
- الحواريون .70
- حنظلة بن صفوان .169 - 170 - 173
- حرف (خ)**
- خارجية بن حذافة العدوبي .111
- خارجية بن زيد بن ثابت .95
- الخازن .72
- خالد بن ثابت العجلاني .142
- خالد بن حبيب الفهري .165
- خالد بن حميد الزناتي .165 - 166 - 167
- خالد بن سعيد بن العاص .75 - 79
- خالد بن الوليد .75 - 76 - 77 - 78 - 79 - 80 - 81 - 82
- خالد بن يزيد القيسي .149
- خدیجة بنت خویلد الأسلی .64 - 65 - 67
- الخرج .68 - 69 - 70 - 73
- خرزون بن فلقل .183 - 264
- خزيمة بن ثابت الانصاري .95

ذو القرنيين ٦٣ - ١٣٨.

حروف (ر)

الرازي أحمد الكتاني ١٧٤.

راشد (مولى إدريس بن عبد الله) ٢٠٩ - ٢١٤ - ٢١٥ - ٢١٦ - ٢١٧ -

.٢٢٧

الرباب بنت حيدة بن عمرو ١١٨.

ربيعة ٨١ - ١٠١ - ١٠٢.

ربيعة بن ثابت الرقي ١٨٩.

ربيعة بن عبادة الديلي ١٤٢.

الرجال بن عنفوة ٧٦ - ٧٧.

رسنم (قائد الفرس) ٨١.

روح بن حاتم المهلي ١٩٠.

الروم ٧٦ - ٧٨ - ٧٩ - ٨٠ - ٩٤ -

.١٤٨ - ١٣٢ - ١٣١ - ١٢٩ - ١٢٤

رويغع بن ثابت ١٤٢.

رياح (قبيلة) ١٢٨.

حروف (ز)

زانان بن يحيى ١٢٢.

الزبير بن العوام ٧٩ - ٨٩ - ٨٥ - ٩٦ - ٩٩

.١٠٢ - ١٠١ - ١٠٠ -

زمور بن صالح ١٧١.

زناتة ١١٨ - ١٣٨ - ١٤٠ - ١٦٤ - ١٨٢ -

.٢٧٢ - ٢٣٢ - ٢٢٧

الزهرى ٨٢.

زهير بن قيس البلوي ١٣٧ - ١٤٠ - ١٤٢

.١٥١ - ١٤٨ - ١٤٧ -

زواحة (قبيلة) ٢٣١.

زياد بن العجلان ١٣٥.

زياد ١١١.

زياد بن الأصفر الخارجي ١٦٤.

زيادة الله الأغلب ١٥٠.

زياد بن عبد الرحمن ١٩٤.

زياد بن عمرو اللخمي ١٦٧.

زيد بن ثابت ٧٨ - ٩٥ - ٩٦

.٦٧.

زيد بن حارثة ٧٧.

زيد بن الخطاب ٧٧.

زيري بن عطية ٢٦٤ - ٢٦٥ - ٢٦٨ - ٢٦٩ -

.٢٧٣ - ٢٧٢ - ٢٧١ - ٢٧٠ -

حروف (س)

سابق المطمطي ١٢١.

سالم (مولى أبي حذيفة) ٧٧.

سبتا بن كوش بن حام ١٢٥.

سعد بن أبي وقاص ٧٩ - ٨١ - ٨٩ - ٩٠ -

.٩٦ -

سعد بن معاذ ٦٩ - ٦٩.

سعيد بن أبي هند ١٩٤.

سعيد بن العاص ٩٥.

سعيد بن عثمان ١٤٤.

سعيد بن المسيب ١٤٤.

سفيان الثوري ١١٤ - ٢١٩.

سفيان بن عوف الأزدي ٩٥.

سفيان بن وهب الخولاني ١٤٢.

سكوت البرغواطي ٢٨٠.

- سلكان بن مالك .142
 سلمة بن الأكوع الإسلامي .142
 سليمان بن جرير الشماخ .215 - 214
 سليمان بن ربيعة الباهلي .91
 سليمان بن عبد الملك .155 - 156 - 157 - 158 - 172
 سليمان بن عبد الله بن الحسن .211 - 228
 سليمان بن يسار .141 - 146
 سهل بن حنيف الانصاري .99
 سهيل بن عمرو .84
 السهيلي .117
 سويد بن غفلة .109
حروف (ش)
 شبيب بن شجرة .110 - 111
 شداد بن أوس .94
 شرحيل بن حسنة .77
 الشيبة .114 - 170 - 182
حروف (ص)
 صالح بن طريف البرغواطي .170 - 172
 الصفرية .164 - 169 - 180 - 226
 الصميل بن حاتم الكلبي .169 - 174
 صنهاجة .117 - 121 - 138 - 182 - 228
 - .231 - 241 - 216
 صولات بن وزمار الزناتي .132 - 262
حروف (ض)
 الضحاك بن قيس .105 - 140
- ضرار بن الأزور .76
 ضريسة (قبيلة) .121
حروف (ط)
 طارق بن زياد .152 - 153 - 154 - 155
 الطبرى .116 - 117 - 159
 طريف البرغواطي (المتنيء) .170
 طلحة .79 - 80 - 89 - 96 - 99 - 100 - 101
 طلحة بن خوبيل الأسدي .76 - 99
 طوال بن أبي زيد .243
 طيء (قبيلة) .76 - 107
حروف (ع)
 عائشة بنت أبي بكر .64 - 74 - 88 - 89
 عاتكة بنت علي بن عمر بن إدريس .234
 عاد .68
 عاصم بن جميل (المتنيء) .178
 عاصم بن عمر .143
 عاصم بن عمر بن قتادة .70
 عاصم بن كلب .112
 عبادة بن الصامت .68 - 94
 العباس بن عبادة .68 - 70
 العباس بن عبد المطلب .66 - 69 - 82
 عبد الأعلى بن جريج الأفريقي .164
 عبد الرحمن بن إبراهيم بن مولى بن أبي العافية .247
 عبد الرحمن بن أبي سهل الجذامي .234

- عبد الرحمن الأوزاعي 193.
 عبد الرحمن بن حبيب 162 - 170 -
 عبد الله بن أبي الخزاعي 79.
 عبد الله بن شعبة 236 - 243 -
 عبد الله بن جعفر بن أبي طالب 111 - 184.
 عبد الرحمن بن زياد 176.
 عبد الرحمن بن سمرة 113.
 عبد الرحمن بن العباس بن عبد المطلب 142.
 عبد الرحمن بن عبد الكريم بن شعبة 267.
 عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي 161.
 عبد الرحمن بن عقبة بن نافع 166.
 عبد الرحمن بن عوف 79 - 80 - 82 -
 عبد الرحمن بن معاوية - الداينل - 174
 عبد الرحمن بن طاهر 131 - 132 - 105 - 94 - 93 -
 عبد الله بن خلف 102.
 عبد الله بن الزبير 93 - 95 - 131 - 132 -
 عبد الله بن حرب 90 - 92 -
 عبد الله بن عمر 88 - 89 - 100 - 143 -
 عبد الله بن عاصم 143.
 عبد الله بن مالك 219 - 222 -
 عبد الله بن محمد النفس الزكية 196.
 عبد الله بن مروان 140 - 150 - 152 -
 عبد الله بن موسى بن نصیر 155 - 156 -
 عبد الله بن نافع بن عبد قيس 92 - 94 -
 عبد الله بن نافع 131.
 عبد الله بن نافع بن الحارث 92 - 131.
 عبد شمس 111.
 عبد العزيز بن مروان 150 - 152.
 عبد العزيز بن موسى بن نصیر 155 - 172 - 156.

- عبد الله بن نافع بن الحصين .143
 عبد المطلب جد النبي ﷺ 63 -
 عبد الملك بن أبي الجعد 178 - 179 -
 عبد الملك بن سكرديد 186 .
 عبد الملك بن قطن 161 - 165 - 167 -
 عبد الملك بن مروان 122 - 133 - 147 .
 عبد الملك الوراق 222 .
 عبد المؤمن بن علي 197 .
 عبد الواحد بن يزيد 169 .
 عبد الوارث بن حبيب 175 - 176 -
 عبس (قبيلة) 75 .
 عبيدة بن عبد الرحمن السلمي 160 -
 عبيدة بن قيس العقيلي 119 .
 عبيد الله بن الحبّاح 161 - 164 - 165 -
 عبيد الله بن زياد 101 .
 عبيد الله بن عمر 83 - 143 .
 عبيد الله المهدى 181 - 182 - 238 .
 العبيديون 181 - 187 .
 عقبة بن نافع 92 - 121 - 131 - 134 -
 عقبة بن عامر بن نابي 68 .
 عقبة بن الحجاج 161 - 165 .
 عروة بن الوليد 173 .
 عرب العراق 163 .
 عرب اليمن 68 .
 عرب اليماني 180 .
 عرب بن حميد القرطبي 180 .
 عقبة بن نافع 84 .
 عثمان بن أبي نسعة الخثفي 160 .
 عثمان بن حنيف 87 - 99 - 100 - 102 -
 عثمان بن عفان 67 - 78 - 79 - 80 - 89 -
 عجيبة (قبيلة) 121 .
 عجيبة بن دوناس المغراوي 278 .
 العرب 74 - 78 - 81 - 82 - 89 -
 117 - 120 - 121 - 123 - 124 -
 126 - 128 - 130 - 132 - 133 -
 140 - 147 - 149 - 150 - 152 - 153 -
 154 - 162 - 163 - 164 - 165 -
 166 - 167 - 178 - 179 - 180 -
 183 - 219 - 220 - 223 - 230 - 238 .
 عبد الله بن سهيل بن عمرو .

- عقيل بن أبي طالب 82.
- عكاشة بن أبيوب الفزارى 169.
- عكرمة بن أبي جهل 79.
- عكرمة (مولى عبد الله بن عباس) 180 - 180.
- عمر بن عبد الله المرادي 161 - 162 - 161.
- عوان بن بر 118.
- علي بن أبي طالب رضي الله عنه 60 - 61 - 65 - 67 - 70 - 79 - 82 - 89 - 89.
- عمرو بن بكر التميمي 110 - 111.
- عمرو بن ثعلبة الكلندي 145.
- عمرو بن الحمق 98.
- عمرو بن العاص 75 - 79 - 84 - 85 - 85.
- عمرو بن ياسر 100 - 104 - 105 - 106 - 107 - 108 - 109 - 110 - 111 - 112 - 113 - 114 - 115 - 116 - 117 - 118 - 119 - 120 - 121 - 122 - 123 - 124 - 125 - 126 - 127 - 128 - 129 - 130 - 131 - 132 - 133 - 134 - 135 - 136 - 137 - 138 - 139 - 140 - 141 - 142 - 143 - 144 - 145 - 146 - 147 - 148 - 149 - 150 - 151 - 152 - 153 - 154 - 155 - 156 - 157 - 158 - 159 - 160 - 161 - 162 - 163 - 164 - 165 - 166 - 167 - 168 - 169 - 170 - 171 - 172 - 173 - 174 - 175 - 176 - 177 - 178 - 179 - 180 - 181 - 182 - 183 - 184 - 185 - 186 - 187 - 188 - 189 - 190 - 191 - 192 - 193 - 194 - 195 - 196 - 197 - 198 - 199 - 200 - 201 - 202 - 203 - 204 - 205 - 206 - 207 - 208 - 209 - 210 - 211 - 212 - 213 - 214 - 215 - 216 - 217 - 218 - 219 - 220 - 221 - 222 - 223 - 224 - 225 - 226 - 227 - 228 - 229 - 230 - 231 - 232 - 233 - 234 - 235 - 236 - 237 - 238 - 239 - 240 - 241 - 242 - 243 - 244 - 245 - 246 - 247 - 248 - 249 - 250 - 251 - 252 - 253 - 254 - 255 - 256 - 257 - 258 - 259 - 260 - 261 - 262 - 263 - 264 - 265 - 266 - 267 - 268 - 269 - 270 - 271 - 272 - 273 - 274 - 275 - 276 - 277 - 278 - 279 - 280 - 281 - 282 - 283 - 284 - 285 - 286 - 287 - 288 - 289 - 290 - 291 - 292 - 293 - 294 - 295 - 296 - 297 - 298 - 299 - 300.

- عيلان بن مصر .118
حرف (غ)
 غالب الأموي (مولى الحكم) - 257
 .258
 غطفان (قبيلة عربية) .76
 غمارة (قبيلة بربرية) 121 - 228
 غياثة (قبيلة بربرية) 123 - 228
حرف (ف)
 فارس 76 - 78 - 80 - 81 - 91 - 102
 فاطمة (أم البنين) بنت محمد الفهري .232 - 231
 فاطمة الزهراء رضي الله عنها .112
 الفتح بن ميمون المداري .182
 الفتوح بن دوناس المغراوي 278 - 279 - 281 -
 فروة بن نوفل .108
 فزارة .83
 الفضل بن روح بن حاتم .191
 الفضل بن العباس بن عبد المطلب .144
 فيروز (أبو لولوة) .87
حرف (ق)
 القابسي .194
 القاسم بن إدريس بن إدريس (الزاهد)
 .229 - 228 - 234
 قبائل البربر .118
 قبائل زناتة .149
 .228 - 216
 كثافة بن بشر .98
 كنزة (زوج إدريس الأكبر) .228
 .113 - 106 - 88 - 67 - 66 - 64 - قريش
 .179 - 130 -
 قريظة .68
 قطام .110
 قطن بن عبد الملك .168
 القعقاع عمر التميمي .101
 القوط .125 -
 قيس بن عيلان .118
 قيس بن سعد بن عبادة 99 - 108 - 113 -
 قيسر .97 - 133 - 148
حرف (ك)
 كاتمة .117
 كسرى أبو شروان .63 - 97
 كسلة بن أغز البرنسى .121 - 126 - 136 -
 .149 - 147 - 140 - 139 -
 الكلبي .116
 كلثوم بن عياض .166 - 168 - 167 -
 .172 - 169
 كثابة بن بشر .98
 كنزة (زوج إدريس الأكبر) .228 - 216

- كتنان 120 - 121 . 121
حرف (ل)
 محمد بن تومرت 121 - 195 - 196 .
 محمد بن الحنفية 100 .
 محمد بن خزر المغراوي 263 .
 محمد بن خيرون 195 .
 محمد بن الربيع الجيزى 141 - 142 - 144 .
 محمد بن عبد الله الأشجعى 160 .
 محمد بن عبد الله (النفس الزكية) 205 .
 محمد بن ميمون 182 - 254 .
 محمد بن القاسم بن طملس 256 .
 محمد بن مقاتل العكى 191 .
 محمد بن ميمون المكتانى 181 .
 محمد بن يزيد 156 - 159 - 160 .
 محى الدين التورى 72 .
 المخارق بن غفار الطائى 184 - 186 - 188 .
 المخدج (خارجي) 108 .
 مخرمة بن نوقل 82 .
 مدرار بن اليسع 181 .
 مروان بن الحكم 90 - 94 - 132 - 140 .
 مروان بن محمد الأموى 170 - 173 .
 مروان بن موسى بن نصیر 152 .
 المروانيون 245 - 250 .
 مزاتة (قبيلة ببريرية) 134 .
 مزنة بنت أسد بن ربيعة بن نزار 118 .
 المسعودي 96 - 117 .
 لذرق 153 .
 اللمتون 264 .
 لمطة (قبيلة ببريرية) 121 .
 لواتة (قبيلة ببريرية) 121 - 129 - 134 .
 الليث بن سعد 135 - 169 .
حرف (م)
 ماذغيس بن بر 118 .
 مازيع 120 - 121 .
 مالك بن أبي عمران 141 .
 مالك بن أنس 142 - 146 - 193 - 194 - 195 .
 المبرد 164 .
 المتنبى 78 .
 المثنى بن حارثة الشيبانى 81 .
 مجتمع التميمي 112 .
 محارب بن عبود 236 .
 محمد بن عَلِيٌّ 58 - 60 - 63 - 65 - 69 - 78 - 104 - 106 - 171 .
 محمد بن أبي بكر الصديق 100 - 102 .
 محمد بن أبي علي بن قوشش 263 .
 محمد بن أبي الفتح 255 .
 محمد بن إدريس بن إدريس الأمير 228 - 229 - 230 - 234 .
 محمد بن أحمد بن تميم 128 .
 محمد بن الأشعث الخزاعي 183 .
 محمد بن أوس الأنصارى 140 .
 محمد بن بسادر بن مدرار 182 .

- المنتضد بالله العباسي .181 .72 - 66 - 64 .
 المعز بالله باديس الصنهاجي .274 - 193 .
 المعز بن ذيري بن عطية .274 - 273 - 276 .
 المعز لدين الله الفاطمي .254 .
 معنصر بن حماد بن معنصر المغراوي .280 - 279 .
 مغراوة (قبيلة بربرية) .122 - 138 - 262 .
 مغراو بن يصلتين .262 .
 المغيرة بن شعبة .86 - 90 .
 مقاتل بن عطية .264 .
 المقداد بن الأسود الكندي .96 - 145 .
 المقوقس .126 .
 مكناسة (قبيلة بربرية) .121 - 180 - 183 .
 المكتانيون .179 .
 الملثمون .121 .
 المنصور بن أبي عامر .146 - 233 - 183 - 266 - 265 - 264 - 259 - 228 .
 المنصور أبو جعفر .175 - 177 - 176 - 187 - 186 - 183 - 181 - 180 .
 المهاجرن .77 - 99 - 89 - 79 - 103 .
 المهدي بن أبي جعفر المنصور .181 - 190 .
 مسلم .72 - 66 - 64 .
 مسعود بن الأسد البلوي .144 .
 مسلمة بن عبد الملك .175 .
 مسلمة بن مخلد الأنباري .136 - 142 .
 المسور بن مخرمة الزهري .144 .
 المسور بن هانئ الزناتي .186 .
 مسوحه (قبيلة بربرية) .139 - 162 .
 المسيب بن حزن بن أبي وهب .144 .
 مسلمة الكذاب .77 - 76 .
 المصاصدة (قبيلة بربرية) .121 - 137 - 152 - 138 .
 مصالحة بن حبوس المكتاسي .182 - 238 .
 مصعب بن عمير رضي الله عنه .70 .
 مصر (قبيلة عربية) .81 - 101 - 102 - 102 .
 مصر بن نزار .118 .
 مصرفة (قبيلة عربية) .164 - 167 .
 المطلب بن أبي وداعه .144 .
 معاذ بن جبل .84 .
 معاذ بن الحارث .68 .
 معاوية بن أبي سفيان .60 - 91 - 94 - 61 - 61 .
 معاوية بن حدبيج السكوني .133 - 134 - 107 - 106 - 104 - 103 - 102 - 136 - 134 - 133 - 113 - 111 - 110 .
 معبد بن العباس بن عبد المطلب .141 - 144 - 142 - 137 .
 معبد .144 .

- مهدي بن يوسف الكزنائي .280
- موسى عليه السلام 60 - 65 - 112 .
- موسى بن أبي العافية المكناسي 238 -
- الهرمزان 82 - 84 .
- هسكورة (قبيلة بربرية) 121 .
- هشام بن عبد الملك الأموي 160 - 161 .
- هوار بن أويغ بن برسن 169 .
- هوارة (قبيلة بربرية) 169 - 228 .
- الهيثم بن عبيد الكلابي 160 .
- حروف (و)**
- الواقدى 137 - 142 - 144 .
- واقف (بطن من بطون الأوس) 69 .
- وحشى قاتل حمزة 77 .
- وردان 110 - 111 .
- ورقة بن نوفل 65 .
- الوضاح بن أبي خيثمة 159 .
- وقعة الأشراف 165 .
- وقعة البويب 81 .
- وقعة الجمل 102 .
- وقعة اليرموك 79 .
- الوليد بن عبد الملك 150 - 151 - 152 .
- .153 - 155 - 156 - 158 .
- الوليد بن عقبة 79 - 90 .
- الوليد بن يزيد الأموي 170 - 173 - 175 .
- حروف (ي)**
- يعين بن إدريس بن إدريس 228 .
- هتونة (قبيلة بربرية) 165 .
- هرثمة بن أعين 192 .
- هانئ بن بكور الضريسي 149 .
- هارون الرشيد العباسى 189 - 190 - 191 - 209 - 213 - 220 .
- هندون (قبيلة بربرية) 163 .
- نافع بن الأزرق الحنفى الخارجى 163 -
- .164 .
- النجاشى 67 .
- نجدة بن عامر الحنفى الخارجى 163 .
- النجدية (إحدى فرق الخوارج) 163 .
- النصارى 95 .
- التضير 68 .
- نوح عليه السلام 119 - 125 .
- نفوسة (قبيلة بربرية) 121 .
- النwoي 85 .
- حروف (ه)**
- هانئ بن بكور الضريسي 149 .
- هارون الرشيد العباسى 189 - 190 -

- يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس 237 - 239 .
 يحيى بن حارث المضغري 167 .
 يحيى بن خالد البرمكي 213 .
 يحيى العدام بن القاسم الإدريسي 235 - 236 .
 يحيى بن محمد بن إدريس 231 - 233 .
 يحيى الجروطي 235 .
 يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس 234 .
 يحيى بن يحيى الليبي 195 .
 يدو بن يعلى بن محمد اليفرنى 264 - 265 .
 يزد جرد (ملك الفرس) 95 .
 يزيد بن أبي سفيان 79 - 84 .
 يزيد بن أبي مسلم دينار 157 - 158 .
 يزيد بن أسيد السلمي 189 .
 يزيد بن الياس العبدى 217 .
 يزيد بن ثعلبة البلوي 68 .
 يزيد بن حاتم المهلبى 187 - 188 .
 يوشع بن نون 116 - 117 .
 يزيد بن خلف العبسي 140 .
 يزيد بن سكوم الولهاص الاياضي 178 .
 يزيد بن عبد الملك الأموي 157 .
 يزيد بن معاوية بن أبي سفيان 137 - 140 .
 اليسع بن أبي القاسم 181 .
 يعقوت المنصور الموحدي 128 .
 يعقوب بن لبيب المغيلي 186 - 187 .
 يعلى بن منية 96 - 100 .
 يعلى بن محمد اليفرنى 254 .
 يفرن بن يصلتين 262 .
 يملح بن مشيش 181 .
 يليان النصراني الغماري (ملك سبتة)
 - 153 - 152 - 137 - 126 - 121
 .154 .
 اليهود 60 - 62 - 68 - 95 .
 يهود خير 60 .
 يهود فاس 61 .
 يوسف بن تاشفين 280 - 281 .
 يوسف بن عبد الرحمن الفهري 174 - 177 .

فهرس الأماكن

157 – 155 – 153 – 152 – 151 – 149
 – 175 – 174 – 173 – 167 – 166 –
 191 – 190 – 187 – 186 – 183 – 176
 – 217 – 210 – 194 – 193 – 192 –
 .263 – 261 – 256 – 238
 .الأبار 79.
 154 – 153 – 148 – 145 – 128
 الأندلس
 – 161 – 160 – 159 – 156 – 155 –
 175 – 173 – 170 – 168 – 167 – 162
 – 223 – 188 – 183 – 182 – 181 –
 257 – 253 – 252 – 251 – 232 – 231
 .275 – 273 – 272 – 259 – 258 –
 .أنطاكية 82.
 .أوربة 147
 .إيران 86.

حروف (ب)

باب بنى مسافر – فاس 146
 باب الجزيرة – تونس 136
 باب عجيبة – فاس 279

(أ)
 آزمور 224 – 222
 آسفى 170.
 آصيلا 228 – 242
 آكرسيف 246
 آنکای 239.
 أحد 69.
 أذربيجان 81 – 95 – 81
 أربونة 155.
 أرمينية 81 – 95 – 95
 الإسكندرية 82 – 82 – 91 – 96 – 129 –
 .223 – 133
 أصبهان 86 – 112
 أغمات 225
 إفريقية 92 – 93 – 92 – 121 – 117 – 94 –
 122 – 127 – 126 – 125 – 124 – 123 – 122
 – 132 – 131 – 130 – 129 – 128 –
 141 – 137 – 136 – 135 – 134 – 133
 – 146 – 145 – 144 – 143 – 142 –

بلاد فلسطين .116	باب الفتوح - فاس .279
بلاد المغرب .92 - 122 - 129 - 148 .	باجة .148
	بحر الأندلس (البحر المتوسط) .117
	بحر الرومي .120 - 122 - 123 - 124 .
بلاد النوبة .85	بحر الزقاق .124 .
بلاد الشهداء .161	بحر المحيط .120 - 127 - 137 - 138 .
بنزرت .134 - 148 .	البحرين .82 .
	بدر .69 .
برقة .148 .	برشلونة .155 .
البيت - الكعبة .83	برقة .82 - 84 - 92 - 120 - 129 - 131 .
بيت المقدس .84	بادلا .228 - 212 - 218 .
حرف (ت)	تادلا .228
	تارودانت .139 .
	تلزا .238 - 228 .
	تافيلالت .152 .
	تمسنا .228 .
	تاهمرات .137 - 181 - 183 - 186 - 273 .
	تبوك .99 .
	تطوان .228 .
- 166 - 136 - 132 - 127 - 122 .	تلمسان .122 .
234 - 225 - 213 - 210 - 192 - 173 .	بلاد الحجاز واليمن .71 .
	بلاد الروم .91 .
	بلاد الريف .239 - 250 .
	بلاد السودان .120 .
- 175 - 173 - 169 - 150 - 148 .	بلاد السوس .138 - 137 .
.259 - 185 - 177 - 176 .	بلاد الشام .81 - 91 .
تكساس .228 - 229 .	بلاد العجم .91 - 155 .
حرف (ث)	بلاد العراق .81 .
ثغور الهند .91 .	بلاد فارس .81 .
	بادل البرير .86 - 88 - 118 - 123 - 162 .
	بلاد الجريد .137 - 136 .
	بلاد الحجاج .71 .
	بلاد الرفاعة .91 .
	بلاد السوس .138 - 137 .
	بلاد الشام .81 - 91 .
	بلاد العجم .91 - 155 .
	بلاد العراق .81 .
	بلاد فارس .81 .
	بلاد أرمينية .91 .
	بلاد الببر .86 - 88 - 118 - 123 - 162 .
	بلاد الجريد .137 - 136 .
	بلاد الحجاج .71 .
	بلاد الرفاعة .91 .
	بلاد السوس .138 - 137 .
	بلاد الشام .81 - 91 .
	بلاد العجم .91 - 155 .
	بلاد العراق .81 .
	بلاد فارس .81 .

- | | |
|---|---|
| حروف (ج)
الحرمان .102
حصن الأجم .93 - 133
حصن لميس .137
حمص .91 - 79
الحيرة .79 | حروف (خ)
جامع الزيتونة - تونس .161
جبال تلزا .127
جبال غمارة .153
جبل أوراس .122 - 148 - 137 - 149 - 148
حروف (خ)
خراسان .81 - 95 - 85 .102
الخربية .101
خليج الزقاق .153 - 155
الخندق .69 |
| حروف (د)
درعة .127 - 152
دمشق .165 - 155 - 150 - 148 - 103
دومة الجندي .106 | حروف (د)
ذو جبى .75
ذو القصة .75 |
| حروف (ر)
رومة .148
ريف اليمامة .77 | حروف (د)
الجزيرة الخضراء .124 - 138 - 153 - 153
.155 |
| حروف (ن)
النزاب .116 - 172 - 149 - 137 - 183 | جزيرات
جزيرة شريك .136
جزيرة العرب .71 - 128
جزيرة طريف .124
جزيرة قبرس .94
جلولا .81 - 125 - 133
الجوزجان .91 |
| حروف (س)
سبتة .121 - 154 - 152 - 125 - 167
.228 - 172 | حروف (ح)
الجبعة .67 - 125
الحجاز .70 - 127
حجر النسر .228
العذيبة .106 |

حروف (ط)	
طينة - مدينة بأرض الزاب	.139 - 134 - 184
طخارستان	.91 - 186 - 187
طرابلس	.82 - 84 - 86 - 92 - 93 - 122
طنجة	.129 - 131 - 124 - 138 - 131 - 125
طوبطة	.154 - 154
طريف	.154
حروف (ش)	
شالة	.228 - 242 - 276
الشام	.71 - 74 - 76 - 79 - 80 - 83
السودان	.120 - 134 - 162
السويس	.126 - 137 - 152 - 162 - 261
سلا	.125 - 170
سردانة	.173
سرقوسة	.162
سطفورة	.176
سقوعما	.152
سمرقند	.86
العلومنان (فاس)	.226
عدوة الأندلس	.138 - 131 - 231 - 234 - 241
عدوة القرقيز	.235 - 241 - 246 - 247 - 278 - 279
العرائش	.228
العراق	.78 - 79 - 80 - 81 - 96 - 102
عقبة	.68 - .69
عقبة السعتر بفاس	.279
عمالة السوس	.128
عمالة فاس	.127
عمالة مراكش	.127
عين التمر	.79
حروف (ص)	
صبرة	.129
الصحراء	.151
صفورة	.148
صفين	.104 - 141
চقلية	.123 - 134 - 148 - 150 - 153
صن قادس	.159 - 160 - 162 - 165 - 174

حرف (غ)

- غداس .134
غزنة .91

حرف (ف)

- فاس - 121 - 127 - 146 - 182 - 147 -
فاس .121
فاس - 182 - 147 - 146 - 127 -
فاس .121
فاس - 229 - 225 - 224 - 223 - 220 - 193
فاس .193
فاس - 235 - 234 - 232 - 231 - 230 -
فاس .230
فاس - 242 - 241 - 240 - 239 - 238 - 236
فاس .236
فاس - 252 - 246 - 245 - 244 - 243 -
فاس .243
فاس - 262 - 261 - 258 - 257 - 255 - 253
فاس .253
فاس - 276 - 273 - 272 - 267 - 264 -
فاس .264
فاص .279

- فحص شريس .154
الفرات .109

- فرغاتة .91
فرنسا .127

- فلسطين .118 - 91 - 102 - 91

حرف (ق)

- قابلس .149 - 178

- القادسية .82

- قرطاجنة .124 - 148 - 133 - 125 - 148

- قرطبة .155 - 257 - 183 - 177 - 171 - 155

- القرن بالقيروان .169

- القدسية .155 - 133 - 83

- قس الناطف .80

- قصر فرعون (وليلي) .138

- قصر المجاز .124

حرف (ك)

- كرمان .81
الكعبة .63 - 135
الكرفة .82 - 98 - 96 - 90 - 86 - 109 - 108 - 103 - 102

حرف (م)

- المدائن .81 - 108
مدن خراسان .91
المدينة .68 - 81 - 76 - 75 - 71 - 69 - 100 - 97 - 96 - 92 - 87 - 86 - 145 - 142 - 132 - 131 - 102 - 206 - 205 - 168
مرج راهط .140
مراكش .127

- 251 - 250 - 240 - 239 - 237 - . مراجعة 147.
- 260 - 258 - 256 - 255 - 254 - 253 . مرو 86 - 95.
- 265 - 264 - 263 - 262 - 261 - . مسجد البصرة 102.
- 276 - 275 - 274 - 273 - 272 - . مسجد القرويين 231.
- . 278 .
المغرب الأدنى 126 - 127 - 126 - 121 - 115 - 126 - 121 - 115 - 117 - 143 - 137 - 136 - 128 - 127 - 147 - 143 - 137 - 136 - 128 - 127 - 166 - 164 - 162 - 161 - 153 - 185 - 182 - 180 - 172 - 170 - 167 - 210 - 209 - 202 - 194 - 192 - 246 - 243 - 239 - 238 - 223 - 211 - 269 - 263 - 251 - 277 - 269 - 184 - 136 - 127 - 246 - 243 - 238 - 225 - 213 - 192 - 107 - 102 - 100 - 76 - 69 - مكة 69 - مکران 81 - مکناسة 147 - ممس 147 - منی 67 - المهدية 255 - 252 - 182 - حرف (ن) - التجف 112 - تقیس 228 - 225 - نکور 270 - 246 - نهر سبو 236 - 220 - 251 - 250 - 240 - 239 - 237 - 147 - 140 - 136 - 132 - 136 - 132 - 122 - 156 - 155 - 151 - 150 - 148 - 177 - 174 - 173 - 172 - 171 - 170 - 259 - 185 - 184 - 183 - 98 - 94 - 93 - 92 - 90 - 84 - 81 - 129 - 117 - 116 - 102 - 99 - 141 - 136 - 134 - 133 - 131 - 130 - 150 - 148 - 146 - 144 - 142 - 176 - 166 - 161 - 160 - 155 - 151 - 223 - 209 - 191 - 183 - 122 - 119 - 118 - 117 - 116 - 130 - 128 - 125 - 124 - 123 - 142 - 141 - 140 - 138 - 137 - 134 - 147 - 146 - 145 - 144 - 143 - 156 - 155 - 152 - 151 - 150 - 149 - 162 - 161 - 160 - 159 - 157 - 168 - 167 - 166 - 165 - 164 - 163 - 173 - 172 - 171 - 170 - 169 - 179 - 178 - 177 - 176 - 175 - 174 - 184 - 183 - 182 - 181 - 180 - 191 - 190 - 189 - 188 - 186 - 185 - 196 - 195 - 194 - 193 - 192 - 229 - 228 - 219 - 211 - 210 - 209

- | |
|--|
| نهر بلخ .86
النهروان ١٠٧ - ١١٥ - ١٦٣
حرف (ه)
هرارة .٨٦
وادي مليانة .١٤٩
وجدة .٢٦٩
ودان .١٣٤
ورغة .١٣٨
حرف (و)
وادي سبو ١٦٦ - ١٦٧
وادي شلف .١٦٥
وادي القيروان .١٣٥
وادي ملوية ١٢٧ - ١٤٧ - ٢١٥ - ٢١٥
حرف (ي)
البرموك .٧٩ - ٧٨
اليمامة .٧٦ - ٧٨
اليمن .٧٠ - ٩٩ - ١٠٢ - ١٤٤ |
|--|